

الدكتور جمال حيدر



البعثات التعليمية

في عهد السلطان
مولاي الحسن



kitabweb-2013.forumsmaroc.com

منشورات الزمن



سلسلة شرفات

العدد 62

نوفمبر 2015

جميع الحقوق محفوظة للزمن

المدير: عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

الإخراج الفني: طاقم الزمن

العنوان: 153 . شارع سيدي محمد بن عبد الله . رقم 7 العكاري - الرباط

الهاتف + الفاكس: 00 212 5 37 29 98 44

البريد الإلكتروني: manchourat@gmail.com

الإيداع القانوني: 2015 MO 3125


الطبع: مطبعة بني ازناسن - سلا - المغرب

ردمك: 1 - 59 - 516 - 9954 - 978

التوزيع: سبريس

جمال حيمر

البعثات التعليمية
في عهد السلطان مولاي الحسن

منشورات 

+٠٨٨٨٤٩ | ٨٤٠٧٠٤٩
+٠٤٠٧٠٤٩ | +٢٥٥١٠



المملكة المغربية
وزارة التعليم

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

إهداء

إلى والدي
تفهدا الله برحمته

الاختصارات الواردة في البحث

خ.ح.ر: الخزانة الحسنية بالرباط

خ.ع.ر: الخزانة العامة بالرباط

خ.ع.ت.مح: الخزانة العامة بتطوان - محفظة

م.ط.ك: مراسلات الطالب محمد بن الكعاب

A. E. P : Archive du Ministère des Affaires Etrangères,
Paris correspondance politique Maroc.

A. G. V : Archive du Ministère de la Guerre, Vincennes.

B. A. F. RC : Bulletin de L'Afrique Française,
Renseignements coloniaux.

تقديم

الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش

يشرفني أن أقدم هذا الكتاب المتميز الذي أنافت صفحاته عن المائتين، لعدة اعتبارات:

فالباحث الدكتور جمال حيمر، يعتبر من خيرة المؤرخين اللامعين الذين أنجبتهم الجامعة المغربية، ويتميز بالجد والمثابرة، وطول النفس، والحس التاريخي، والعمل الدؤوب الذي لا يفتر. كما يتميز بقدرته على الصبر وامتطاء عقبات التحدي، ومعاركة صعاب البحث بعزم وإصرار، لكن أيضا بهدوء وانضباط وتبصر.

وأحسب أنه أحسن اختيار الموضوع الذي يعالجه في هذا الكتاب: فرغم ما كتب عن تاريخ المغرب في القرن 19م من أبحاث ودراسات يشهد لأصحابها بعلو الكعب، لا تزال بعض البياضات تخترق المنجز التاريخي الخاص بهذه المرحلة التاريخية، وهي بياضات لا تخطئ العين السليمة في رؤية إحداثياتها وما خلفته وراءها من فجوات تحتاج إلى ترميم وإعادة تصويب النظر، خاصة في حقل إصلاح التعليم الذي شكل مكونا أساسيا في مشاريع الإصلاح التي تبنتها الدولة المغربية. وبما أن أوروبا شكلت آنذاك مصدر النماذج المستلهمة للإصلاح، فقد بدأت عملية التفكير في اقتباس تجربة « الآخر » في إصلاح التعليم المغربي وتطويره عن طريق إرسال بعثات طلابية لبعض البلدان الأوروبية، بهدف الاحتكاك والاستفادة من الخبرات العلمية والتربوية الذي أنتجتها الحضارة الغربية في ذروة إشعاعها.

في هذا السياق نحت الباحث المتألق الدكتور جمال حيمر سؤال البعثات التعليمية المغربية في عهد السلطان الحسن الأول نحو أوروبا،

على الرغم مما يحمله الخوض في تفاصيل هذا السؤال من شحنة استشكالية ومفاهيم ملتبسة ومعقدة، جعلت الأبحاث السابقة لا تجرأ على المغامرة باقتحام هذا الموضوع الشائك، لا بل يمكن الجزم أنه قبل إقدام الباحث المنوه به على هذه المغامرة البحثية الدقيقة، لم تكن معرفة المهتمين بتاريخ المغرب في القرن 19م تتجاوز سقف الإشارات والتلميحات الباهتة إلى هذه المبادرة الإصلاحية بكثير من العمومية والتأسف عن نكوص وكبوة هذه المبادرة على غرار كل التجارب الإصلاحية التي شهدتها معظم البلدان الإسلامية في سياق الاحتكاكات الأولى التي وقعت بينها وبين أوروبا خلال القرن التاسع عشر.

وتأسيساً على ذلك، فإن القارئ المنصف لا يمكن إلا أن ينوه بقصب سبق الدكتور جمال حيمر في تقحّم هذا المجال الشائك، وتفكيك ألغازه، ويقرّ بجدة وأصالة الدراسة والموضوع البكر الذي وفق في اختياره، وفي إنجازه بكثير من الرصانة وعمق الحفر والتنقيب. وقد أثر الباحث أن يتقرد بمسلك يخالف ما دأبت عليه معظم الدراسات التي وقعت تحت تأثير سلطة التنظير لموضوع الإصلاح، فلم تول اهتماماً بالنبش في جزئيات وتفاصيل الظاهرة، وبالتالي لم تقدم مشهد الوقائع التاريخية التي يتوخاها القارئ، لذلك عوّل الدكتور حيمر على رؤية مزدوجة تجمع بين التنظير المؤسس الذي يلامس السياقات العامة، دون إهمال التركيز على المادة المصدرية التي هي عماد المؤرخ، وهو ما جعله يسبر غور هذه التجربة استناداً إلى أفق نظري يحيل على ثنائية التقدم والتأخر، ويطء التطور التاريخي في المجتمعات الثالثة، وكيفية الجمع بين استنهاض ذاتي للمجتمع واستلهاهم أسس تقدم الأوروبيين، إلى جانب مقارنة مجهرية تقوم على التحري الدقيق، والرصد المفصل، والدقة في تقصي الجزئيات المفيدة لرصد هذه التجربة «الأم» من حيث منطلقاتها ومقاصدها ونتائجها.

ووفقاً لهذه الرؤية الدقيقة والمنفتحة في نفس الوقت، عالج المؤلف إشكاليات هذا الكتاب بنوع من الاحتراف التاريخي القائم على منهج متكامل زاحج فيه بين الاستنباط والاستقراء لدراسة هذه التجربة الإصلاحية اعتماداً على رصيد توثيقي متعدد ومتنوع المطان، شمل الأرشفة المغربي المتمثل في الوثائق والطرر والتقايد، والذكرات والمراسلات وجميع الموارد التي تحوي إشارات وتلميحات متناثرة، استطاع الباحث أن يلمم خيوطها ليجعل منها مادة دسمة بعد أن كانت في شكلها الأصلي شحيحة ومبعثرة. كما اعتمد في النقاط مادة

بحثه على الأرشيف الأجنبي الذي شكل ثقبوا استطاع من خلالها أن يميظ اللثام عن أسرار وخبايا هذه التجربة. ولإثراء دراسته المتميزة، لم يدخر الباحث وسعا في الانخراط في دائرة البحث «الميداني» المتمثل في الاتصال بالعائلات المغربية التي كان لها حظ امتلاك بعض وثائق الطلبة المبتعثين لأوروبا ومساءلة حفدتهم للروح بالمسكوت عنه من الوقائع، واقتناص بعض الوثائق منهم.

ومما يضيفي قيمة على هذا الإنتاج التاريخي المتميز، قدرة صاحبه على التماهي مع الطريقة التوثيقية المؤصلة التي تحيل على طريقة المؤرخين الكبار من طينة « لانجلوا » وسيدي محمد المنوني، فالهوامش والإحالات موثقة وصارمة في تعيين المصادر والوثائق المعتمدة، وأرقام صفحاتها، والأفكار مقنعة بالحجة والقرينة، فضلا عن التصميم والهندسة المتوازنة لكل فصول الدراسة، ناهيك عن دربة المؤلف على تحليل النصوص واستنتاجها استنطاق المؤرخ المحترف، وتفسيرها تفسيراً تاريخياً علمياً. هذا دون إغفال ما يزر به الكتاب من تعليقات مفيدة، ومناقشات رصينة كان يفرد لها لبعض المقولات التي لا يتفق مع توجه أصحابها.

أما الحديث عن الخلاصات التي تمخض عنها البحث فهو حديث يطول، لأن كل فصول البحث ضمت بين دفتيها خلاصات ومعطيات جديدة. ورغم المتعة التي يشع بها قارئ تلك النتائج في سردها، فحسبي أن اقتصر - لضيق المجال - على نماذج لها ارتباط وثيق بتاريخنا الراهن وبمنظومتنا التعليمية والتربوية، إذ يكشف القارئ أن المبادرة الحسنية للبعثات الطلابية لأوروبا جسدت خطوة تربوية تعليمية غير مسبقة في العالم العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولا غرو فقد دلت على جراءة في الانفتاح على دائرة التعليم الغربي بالرغم من عدم نضج المقدمات بكل أبعادها، وعدم تناغمها مع بنيات الاستقبال، ناهيك عن بقاء قشرة الذهنية التقليدية متكلسة ومعيقة لكل تحديث.

لذلك أكدت نتائج الدراسة أن فشل هذه التجربة يعزى إلى أن أي محاولة تريد إدخال بعض عناصر التحديث على بنيات اقتصادية واجتماعية وذهنية تقليدية دون أن توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ودون أن تكون منبثقة من تطور داخلي، تبقى محاولة عقيمة ومحكومة بإخفاق متواصل، وغير قادرة على إحداث تحول حقيقي. وفي تقدير الباحث أن هذا الحكم

لا يزال يصدق على تجارب متعددة، ومن هنا تكمن راهنية هذا الموضوع، وحاجتنا إليه اليوم كمرجعية نبني عليها توجهاتنا.

ولعل ما يزيد من قيمة هذه الخلاصات والاستنتاجات العلمية التي جاءت نتيجة قراءة هادئة ومترنة وبعيدة عن أي سلطة إيديولوجية، تواضع المؤلف، وهو خصلة من شيم العلماء، فضلا عن نزاهته وأمانته العلمية. فدراسته تخاطب المتخصص الأكاديمي في المعرفة التاريخية، والراغب في التعرف على جوانب من تاريخ مغرب القرن التاسع عشر. كما يعلن صاحبها - دون عقدة - أن نتائجها تظل مفتوحة وقابلة للنقد والتعديلات بناء على المتغيرات التي قد تفتحها اكتشافات جديدة للوثائق، وهو بذلك لا يغلق ملف البعثات التعليمية بقدر ما يفتح آفاق البحث في إشكاليات الموضوع، وإمكانية تعميقها، أو الحفر فيها من جديد مع كل اكتشافات جديدة في الأرشيف الوثائقي.

ولا يفوتني أيضا التنويه ببراعة المؤلف في صياغة دراسته بأسلوب أنيق، ومسحة بلاغية فصيحة تكشف عن ملكته اللغوية القوية، وتعبيره الذي يتميز بجماله ورواقه، مما يجعله سريع الإدراك والاستيعاب من طرف القارئ، دون أن ينزل من علو سقفه الرفيع.

وبكلمة واحدة فإن الكتاب الذي بين أيدينا يعد -دون مدافع - قيمة مضافة لتاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، وللحركة الإصلاحية التي ميزت هذا القرن، وتفسيرا مقنعا للإخفاقات التي بصمت هذه المرحلة من تاريخنا الوطني. كما أنه يشكل مرجعا مهما وأساسيا لا يستغني عنه أي باحث في القرن التاسع عشر، ولكل مهتم بتاريخ إصلاح التعليم بالمغرب، وبالتالي فإن هذا الكتاب يعتبر -دون مدافع - قيمة مضافة، ووزنا من العيار المعرفي الثقيل الذي يشرف الخزانة التاريخية المغربية.

وفق الله الباحث للمزيد من الحفر في هذه الحلقات المعتمدة من التاريخ المغربي، وأحسب أن العديد من الإشكالات التي طرحها ستكون محور دراساته المستقبلية، وما ذلك عليه بعزير.

مكناسة الزيتون في 7 مارس 2015

المقدمة

شهدت معظم البلدان الإسلامية ومن بينها المغرب دعوات ومشاريع وحركات إصلاحية في سياق الاحتكاكات الأولى التي وقعت بين هذه البلدان وبين أوروبا في القرن الماضي.

ويتميز المغرب- ومن قبله بلاد مصر- بتجربة إصلاحية تمثلت في إرسال بعثات تعليمية على دفعات إلى مختلف دول أوروبا لاكتساب خبرات متنوعة، بهدف تزويد البلاد بأطر إدارية وتقنية مثقفة ثقافة عصرية، وقادرة على تولي مهام الإشراف على الأجهزة الإدارية والعسكرية التي لم تعد قادرة على مسايرة الأوضاع المستجدة.

وتتميز المغرب بهذه التجربة الإصلاحية بغض النظر عن مردوديتها ومدى نجاحها أو فشلها، شكل أحد دواعي اختيار هذا الموضوع، فضلا عن أن دراسة هذه التجربة تحيلنا إلى صلب الإشكالية التي طالما أرقّت الفكر العربي الإسلامي منذ بداياته النهضة إلى الآن. ونقصد بها إشكالية التقدم والتأخر، وكيفية الجمع بين إنهاض ذاتي للمجتمع وبين استلهاً أسس تقدم الأوروبيين.

وانجذابي إلى دراسة جانب من جوانب هذه الإشكالية من خلال موضوع البعثات التعليمية لا يعود لكونها إشكالية تغري بالميل إلى دراستها، بقدر ما يرتبط بقناعة مؤداها أن قضية الإصلاحات التي أنجزها أو فكر في إنجازها مخزن القرن التاسع عشر، رغم ما حظيت به من اهتمام الباحثين فإننا ما نزال نشعر حيال هذا الموضوع بأبعاده التاريخية والفكرية إلى التعريف بجوانب كثيرة منه، وذلك بالعمل على استقرار وتحليل الوثائق والمصادر المغربية والأجنبية على السواء.

ويكمن الدافع الثالث - في اعتقادنا - في أن تناول موضوع الإصلاحات تناولا قطاعيا أو مجهريا من خلال أنموذج معين كموضوعنا الخاص بالبعثات الطلابية، من شأنه أن يمكننا من تحديد طبيعة الإصلاح ورسم حدوده ومحدوديته واستجلاء أبعاده ونتائجه.

تأسيسا على ذلك تمحور الهدف من هذا البحث حول تتبع حيثيات وبواعث هذا الإصلاح، ومحاولة فهم الغايات التي كان السلطان المولى الحسن يروم تحقيقها، والوقوف على الوسائل المتيسرة والمعتمدة لبلوغها مع رصد نتائج وعوامل إخفاق التجربة الإصلاحية.

ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف فإنني لا أزعم أنني اعتمدت منهجا محددا بضوابطه وقواعده، وإنما حاولت قدر الإمكان اعتماد الطريقة المباشرة والمحتكة بالموضوع عبر تحليل عيني لعناصره وتركيب صورة الوقائع في الزمان والمكان مع مراعاة تسلسلها التاريخي.

ولم يكن من السهل إنجاز هذا العمل حيث اعترضتنا صعوبات عديدة ومتنوعة، يتعلق بعضها بشروط البحث وهي صعوبات مشتركة، غالبا ما يصادفها كل باحث، وبعضها الآخر مرتبط بخصوصية الموضوع ذاته، وهي التي نود الوقوف عندها بتصنيفها إلى مستويين:

المستوى الخاص بطبيعة الموضوع:

■ تصنيف الموضوع: يرى الأستاذ محمد المنوني في حركة البعثات التعليمية التي أرسلها السلطان الحسن الأول (1873-1894م) إلى أوروبا، والتي تعد في نظره في طليعة المحاولات الإصلاحية مظهرا من مظاهر اليقظة والانبعث في ميدان التعليم. في حين أن المؤرخ جون لوي ميج J.L. Miège وغيره يصنف هذه الخطوة كتدبير شكل إلى جانب ثلاثة تدابير متلازمة والمتمثلة في تغيير طريقة التجنيد، واستقدام مدربين أجانب، وشراء أسلحة معاصرة من مختلف الأقطار الأوروبية، كل هذه شكلت قوام سياسة تحديث مؤسسة الجيش في مغرب منتصف القرن التاسع عشر، مما جعل من العسير وضع حدود ثابتة للموضوع دون احتمال الوقوع في استطرادات أو إهمال جوانب مهمة منه.

■ وبالنظر لاضطرارنا إلى استعمال بعض المفاهيم التي لا زالت موضوع سجال بين الباحثين، فقد حاولنا تجنب الخوض في متاهات التحديد الاستمولوجي للمفاهيم المستعملة في متن هذا العمل، دون أن يعني كلامنا هذا توظيفها بنوع من التسليب وعدم التدقيق، بل ملئنا إلى تشغيل مفاهيم إجرائية مستفيدا في هذا الصدد من نتائج بعض الدراسات النظرية، فمثلا بخصوص مصطلح «الإصلاح» الذي يمكن

أن يكتسي عدة معان متباينة، فقد أثرت تبني المفهوم الذي حدده الأستاذ علي أومليل لهذه اللفظة في دراسته عن «الإصلاحية العربية والدولة الوطنية». وذلك من خلال تمييزه بين منطق الإصلاح الإسلامي القديم والإصلاح الإسلامي الحديث. من حيث إن الإصلاح الثاني يختلف عن الأول بإحالاته إلى الآخر واتجاهه إلى الغير (أوروبا) في تصوره ومباشرته لعملية الإصلاح وصياغة مشاريعه. وقد وجدنا في هذا المفهوم تحديدا مناسباً وملائماً لهذا الإصلاح موضوع دراستنا¹.

المستوى الثاني الخاص بمادة البحث:

يرى بعض الباحثين أن استئثار مرحلة القرن التاسع عشر باهتمام المؤرخين لم يكن مجرد صدفة، وإنما راجع لعوامل مختلفة نذكر منها على الخصوص أهمية هذه المرحلة من تاريخ المغرب من جهة، ووفرة الوثائق والمصادر المتصلة بها من جهة ثانية.

وإذا كنا نعتقد بوجاهة هذا الرأي إلى حد كبير، فإنه لا يصدق على موضوعنا الذي يتأطر زمنياً ضمن حدود هذه المرحلة، ذلك أنه رغم عدم استبعادنا لوفرة مادة هذا الموضوع، فإنه من العسير إن لم نقل من المتعذر الوصول إليها، نظراً لأن أساس مصادر البحث إلى جانب أصول أخرى، هو عبارة عن وثائق خاصة ومذكرات وتقاييد ورحلات ألفها بعض أفراد البعثات، إلا أن معظمها لا زال حبيس خزانات الخواص. وهو ما يدفعنا إلى تقديم تقويم أولي لمختلف مضان الدراسة.

مصادر ومراجع البحث:

لم يستفد البحث كثيراً من دراسات سابقة في الموضوع سواء المغربية منها أو الأجنبية، فباستثناء الدراسة القيمة للمؤرخ محمد المنوني، نجد أن باقي الأعمال التي اهتمت بهذه المرحلة لا تتضمن سوى معلومات متكررة لا تزيد في مجملها عن الإشارة إلى حدث إيفاد بعثات تعليمية إلى أوروبا من طرف السلطان الحسن الأول دون أدنى

1 - El Malki (H) et Doumou (A): *Réflexions Méthodologiques sur la problématique des Reformes au Maroc du 19^{ème} siècle* in *Actes du colloque Réformisme et Société Marocaine au XIX^{ème} siècle* Publications de la Faculté de lettres et des sciences humaines-Rabat 1983, p471.

إضافة. وتكمن أهمية دراسة المنوني بالأساس في قيمتها البيبلوغرافية وتذليل كثير من مصاعب البحث، حيث عرفتنا بعدد من الوثائق والنصوص التاريخية التي اكتفى بعرض وتحليل بعضها الآخر.

وعلى قلة ما يخصصه الأستاذ عبد الله العروي من صفحات لا تزيد عن ثلاث لموضوع الدراسة، فإننا استفدنا منها إلى حد كبير ومن أطروحته ككل حول الأصول الاجتماعية والفكرية للحركة الوطنية، خاصة على مستوى تصور هذا الإصلاح، وموقفه في سياق وقائع المرحلة، وتحليل أبعاد وخلاصات هذه التجربة.

وعلى كثرة التأليف الأجنبية المهتمة بالمغرب على عهد السلطان الحسن الأول، فقد كانت استفادتنا من الاطلاع على جلها جد محدودة، نظرا لسطحية أعمال بعضها من جهة، وتكرارها لنفس المضامين من جهة ثانية، غير أننا استفدنا من بعضها إشارات لا تخلو من أهمية ونذكر منها بالخصوص مقال جاك كايي (Jacques Caille) المنشور بمجلة هسبريس Hesperis في عددها سنة 1954 تحت عنوان:

« Les Marocains à l'école de Génie de Montpellier »

1985-1988»

وكتاب «Les Marocains en France» لمؤلفه (Juany Ray) حيث أفادنا بإشارات مقتضبة وهامة حول بعض أفراد البعثات، هذا فضلا عن دراسة مياج Miège حول العلاقات بين المغرب وأوربا، ودراسة بيير كيين (Pierre Guillen) عن العلاقات المغربية الألمانية.

واعتبارا أن الوثائق والمذكرات التي تهتم الموضوع تحتفظ بها جهات خاصة، فإنني لم أدخر جهدا يفوق بكثير إمكاناتي في سبيل الاطلاع عليها، حيث بذلت عدة محاولات للاتصال ببعض الأسر التي بلغني أنها في ملكها. غير أن حصيلة هذه الجهود لم تسفر عما كنت أطمح إليه في بداية البحث، وأهم ما تآتى لي الحصول عليه هو مقيدات وتصاميم هندسية تسلمتها شاكر من السيد محمد بن صالح بن محمد بن الكعاب المقيم بمكناس، وهو حفيد محمد الكعاب أحد أعضاء البعثة الطلابية التي توجهت إلى فرنسا، ومن بعدها إلى بلجيكا سنة 1297هـ/1879م، وتتضمن هذه المقيدات بعض المعلومات الهامة بخط صاحبها باللغة الفرنسية، إضافة إلى بعض المراسلات التي تبودلت

بين الطالب محمد الكعاب وبعض أفراد عائلته، حول إشارات أفادتني في تسليط الضوء على بعض الجوانب الخاصة بالموضوع.

وبعد محاولات متعددة للاتصال بالطبيب السيد العيدوني بالرباط وهو ابن أحمد الجبلي العيدوني أحد أعضاء البعثة الموجهة إلى إيطاليا سنة 1306هـ/1888م تمكنت من الحصول على مقال مرفوق بصورة شمسية لشخص الطالب، ومتضمن لمعلومات هامة حول أطوار دراسته بإيطاليا، وعلى الأخص حول المهام التي تولاهها بعد عودته إلى المغرب.

كما سمح لي العلامة محمد المنوني بتصوير نسخة لمخطوط من مخطوطات خزائنه الخاصة، وهو من تأليف الطالب الطاهر بن محمد الحاج الأودي أحد أعضاء البعثة التي قصدت فرنسا السالفة الذكر، عنوانه بـ «الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار...»، وتكمن قيمة هذا المخطوط في أنه يتيح للباحث إمكانية معرفة المستوى الفكري ومواقف طلبة البعثات، فضلا عن تضمينه لبعض الشوارد ذات الارتباط بموضوعنا.

وإجمالا، يمكن تصنيف الأصول التي تم اعتمادها في إنجاز هذه الدراسة إلى الأنواع التالية:

الوثائق

♦ الوثائق المغربية:

بعد تصفح أغلب المحافظ المحتوية للوثائق الرسمية الخاصة بعهد السلطان الحسن الأول بالخزانة الحسنية، وبعد مراجعة أغلب المراسلات التي تبودلت بين الحسن الأول ونائبه الطريس بالخزانة العامة بتطوان، فإني لم أظفر منها بشيء يذكر، عدا بعض الوثائق القليلة التي تخص الجوانب المرتبطة من بعيد بموضوعنا. وأهم الوثائق التي ارتكز عليها بناء هذه الدراسة، كان قد تم نشرها في ثلاث مضان أساسية وهي:

مجلة «الوثائق» التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط وخاصة في عددها الثالث، والجزء الثاني من مؤلف «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس» للمؤرخ عبد الرحمن بن زيدان، تم

كتاب «مظاهر يقظة المغرب الحديث» الجزء الأول الذي ضمنه صاحبه وثائق جد هامة في ملك أسرة آل بن سعيد بسلا.

وإذا كنت أفدت أيما إفادة من هذه الوثائق بخصوص بعض الجوانب التقنية والعلمية، كالإجراءات الإعدادية التي كانت تسبق إرسال كل بعثة، وتاريخ سفرها، ومعايير اختيار الطلبة، وأصولهم الاجتماعية ومواطنهم، فإن بعض الجوانب الأخرى لم تفصح عنها إلا نادرا كالتنفقات المالية التي تطلبها إنجاز هذا الإصلاح على سبيل المثال، وعن مجالات توظيف خبرات أفراد البعثات بعد عودتهم، مما حتم الاستناد إلى أصول أخرى.

♦ الوثائق الأجنبية:

لم يكن بمقدورنا في ظل شروط إنجاز هذا البحث زيارة كل أرشيفات الدول التي اتجهت إليها البعثات، غير أنه تآتى لنا الحصول على بعض وثائق وزارة الحربية الفرنسية، وعلى الأخص بعض تقارير البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب، حيث كان أعضاؤها يوفون شهريا قيادتهم العليا بتقارير حول تطور الأوضاع العامة بالمغرب، كما تم الاطلاع على بعض وثائق وزارة الخارجية الفرنسية والبلجيكية، هذا بالإضافة إلى الوثائق الهامة التي تضمنتها بعض التأليف الأجنبية، ولاسيما كتاب «ب.ج.ر. روجيرز حول «العلاقات الانجليزية-المغربية حتى عام 1900»». ومهما قيل عن محتوى هذه الوثائق ومنطقاتها، فإنه لا يمكن التقليل من أهميتها لاعتبارات متعددة، منها على الأخص كونها تعكس وجهة نظر طرف أساسي ارتبط به موضوع هذا الإصلاح، كما أن طابعها السري جعلها تحوي بعض المعلومات التي تفصح عن النوايا الحقيقية، وتكشف النقاب عن معطيات قد لا نجدها في الوثائق المغربية.

♦ الكنائش والسجلات المخزنية:

راجعت عددا من هذه الكنائش بالخزانة الحسنية والخزانة العامة بالرباط، ولم يتضمن بعضها سوى إفادات جد محدودة، غير أننا نؤكد في هذا الصدد على أهمية السجل الذي أورده المؤرخ ابن زيدان في الجزء الثاني من مؤلفه «العز والصولة في معالم نظم الدولة»، حيث يعد

عمدتنا الرئيسية في تسليط الكثير من الضوء على عناصر الموضوع، ويكشف بنوع من التفصيل عن أسماء أفراد أغلب البعثات، والدول التي قصدها، فضلا عن بعض الإشارات التي عرفتنا بتخصصات هؤلاء العلمية والعسكرية، والمدة الزمنية التي قضوها في الديار الأجنبية.

♦ مذكرات وتقارير خاصة:

تعد هذه الأصول على قدر كبير من الأهمية التاريخية، باعتبارها تعكس وجهة نظر أفراد البعثات وتجربتهم، وتزودنا بمادة غنية تقيد في التعرف على ظروف عيشهم بالبلدان التي درسوا فيها، كما تتضمن معلومات سياسية حول علاقة المغرب بالدول الأوروبية لا تخلو من قيمة، فضلا عن التعريف بالمهام التي كلف أصحابها القيام بها. وهي كلها معلومات قد لا نجدها في غيرها من المصادر التاريخية المتداولة، وإذا كانت بعض هذه المذكرات لا زالت في حوزة الخواص، وليست في متناول الباحث، فإنه من حسن الحظ أن بعضها قد عرف طريقة إلى النشر على أعمدة بعض المجلات (مجلة البحث العلمي، مجلة دار النيابة، مجلة دعوة الحق)، مما أتاح إمكانية توظيفها في مقاربة بعض جوانب موضوع البحث.

♦ المصادر المخطوطة والمطبوعة:

لم أذكر وسعا في ملاحقة مادة الموضوع في عدد كبير من المصادر المختلفة، محفوظة كانت أم مطبوعة، وباستثناء بعضها الذي أمدنا بشهادات مفيدة، فإن جل مصادر المرحلة على كثرتها، تلوذ بالصمت حيال موضوعنا، بيد أن هذا الصمت ذو دلالة تعبر عن موقف مؤلفي هذه المصادر الرافض للانفتاح على العالم الخارجي، والذي كان حدث البعثات التعليمية أحد تجلياته الأكثر تعقيدا.

بيد أن اطلاعنا على بعض المصادر التي ألفت حول تحديث الجيش أو إحداث «عسكر النظام» على حد تعبير مؤلفيها، وتقارير الرحلات السفارية المرتبطة بهذه المرحلة، كان مجديا، حيث أسعفنا في إبراز بعض المعطيات التي ساهمت في ميلاد هذه المبادرة الإصلاحية.

وأخيرا، وبالنظر إلى خصوصية الموضوع التي لا تسمح بإقامة حواجز فاصلة بين هذا الحقل المعرفي أو ذاك، فإننا حاولنا استغلال قراءتنا لأعمال بعض الباحثين المهتمين بتاريخ الأدب المغربي الحديث، والمهتمين بقضايا إشكالية النهضة، ونخص بالذكر كتاب الأستاذ عبد الله كنون «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث»، ومقال للأستاذ محمد الجابري حول تطور الانتلجنسيا في المغرب، كما ساعدنا استثمار نتائج بعض الدراسات التي عالجت قضايا الإصلاح سواء في المغرب أو غيره من أقطار العالم الإسلامي في القرن الماضي، في تسهيل معالجة بعض الجوانب الخاصة بموضوعنا، وأذكر منها بالخصوص الأبحاث التي ساهم بها أصحابها في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر التي نظمتها كلية الآداب بالرباط سنة 1983.

تلك هي حصيلة مختلف المضان التي استقينا منها المادة المصدرية وتم توظيفها في قالب يتكون من ثلاث أبواب وخاتمة عدا هذه المقدمة. خصص الباب الأول لرصد المعطيات وتحليل العوامل التي بدت لنا كبواعث على التفكير في الإقدام على هذه المبادرة الإصلاحية، والقاضية بتوجيه مجموعة من الشباب المغاربة في بعثات متتالية إلى أوروبا بهدف اكتساب الخبرة العلمية والعسكرية الأوروبية.

وأفرد الباب الثاني للتعريف بمختلف الإجراءات المتخذة قصد إعداد الطلبة الذين وقع عليهم الاختيار، وبأصولهم الاجتماعية، إلى جانب التمييز بين أصناف هذه البعثات وتركيباتها ومقاصدها.

أما الباب الثالث فقد تمحور أساسا حول عرض نتائج هذه التجربة الإصلاحية على المستوى العملي والعلمي، وتقويم حصيلتها، ومحاولة رصد عوامل إخفاقها.



الباب الأول:

مصادر فكرة البعثات

تهدف فصول هذا الباب إلى محاولة الإجابة على سؤال يفرض نفسه في مقدمة الأسئلة التي يثيرها موضوع الدراسة. ويتعلق بنصيب العوامل الداخلية، ونصيب العوامل الخارجية من مصادر هذا الإصلاح. هل صدرت فكرة إرسال بعثات للتكوين والدراسة بأوروبا عن قناعة من السلطان، وجاءت كخطوة أملت بها مواطن الضعف في الأجهزة المؤطرة لبنية المخزن من إدارة وجيش، أم كانت مجرد استجابة لأحد مقترحات و«نصائح» الخبراء والقناصل الأوروبيين؟

وقبل الشروع في استعراض مصادر هذا الإصلاح، يجمل بنا إبداء الملاحظات التالية:

■ تنشأ الحاجة إلى الإصلاح والشعور بضرورته ووجوبه في كل مجتمع كنتيجة لوعي بخلل ذاتي ويتدهور الأوضاع الداخلية، كما يمكن أن يكون ناتجا عن وعي بأخطار خارجية محدقة بكيان هذا المجتمع، وقد يكون ناجما عنهما معا. وهذا شأن المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر باعتبار أن الإصلاح مثل ظاهرة طويلة الأمد واكبت تاريخ المغرب، فكانت دوما مصادر داخلية للإصلاح في مقدمتها النموذج السياسي الإسلامي، إلا أن واقع الاحتكاك مع الدول الأوروبية خلق وضعاً جديداً، وبالنتيجة فرض مصدرا خارجيا للإصلاح كما يذهب إلى ذلك أحد الدارسين⁽¹⁾.

■ إن ما يلفت النظر بخصوص موضوع الإصلاح في مغرب منتصف القرن التاسع عشر، أن كل المبادرات جاءت في الغالب من الجهات الرسمية، وتمت على يد الدولة إن لم تكن أحيانا على يد السلطان بصفته فردا⁽²⁾.

■ من الصعب حيال واقعة تاريخية أن نحدد بشكل جازم الأسباب التي كانت وراء هذه الواقعة. ويصدق ذلك على هذه المبادرة الإصلاحية، إذ لا يمكن ربطها ربطا سببيا بجملة من العوامل المحددة، حسبنا

1 - محمد زنيير، "هل هناك مصادر داخلية للإصلاح؟"، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، أكتوبر 1986، ص 13 و ص 346.

2 - جرمان عياش، "حول الإصلاح بالمغرب في القرن التاسع عشر"، ضمن مجلة دار النيابة السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1984، ص 360، وأنظر أيضا:

محمد زنيير، "الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن 19"، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثامن 1982، ص 323.

التأكيد على أن حدث إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا جاء نتيجة تفاعل واحتكاك شروط مميزة لوضع داخلي يتسم بتأخر في هياكله وبنياته، تقابله شروط وضع خارجي يتميز بتقدم بنياته العسكرية والصناعية والعلمية.

■ تأسيسا على الملاحظة السالفة لم نود التعرض لوضعية المغرب خلال ظرفية هذه المبادرة الإصلاحية، تقاديا لاستعادة معلومات تاريخية معروفة، واعتقادا منا أنها نالت حظها من الدراسة من طرف ثلة من الباحثين أكثر أهلية منا لهذه المهمة. بيد أننا نرى أنه لا مندوحة من الوقوف على بعض الوقائع والقضايا التي لا يمكن فصل العلاقة بينها وبين هذا الإصلاح.



الفصل الأول

مصادر وأخيلة

1) مشاريع نظرية حول إصلاح الجيش:

سجل حدث احتلال الجزائر من طرف الجيش الفرنسي سنة 1830 بداية مرحلة جديدة بالنسبة لكل شمال إفريقيا، باعتبار أن هذا الحدث لم يخص الجزائر وحدها بل إن الدول المجاورة قد تحملت صدمة ذلك الاحتلال⁽¹⁾، إذ أن تدخل المغرب لنصرة جارته سبب في حدوث مجابهة عسكرية مباشرة بينه وبين جنود الاستعمار الفرنسي في «إيسلي» سنة 1844، مني خلالها المغرب بهزيمة فظيعة أبانت عن مدى ضعف الجيش المغربي وهشاشة تنظيماته أمام جيش نظامي مجهز بأسلحة فتاكة تتحرك وفق إستراتيجية محكمة وتخطيطات مدروسة.

وما لبثت إسبانيا أن ألحقت بالمغرب هزيمة أخرى في «حرب تطوان» سنة 1859 - 1860، لم تكن أقل تأثيرا من الأولى بل زادت من تعزيز النفوذ الأجنبي في البلاد، وأرهقت الخزينة المغربية التي أفرغت من كل محتوياتها⁽²⁾.

وليس في نيتنا الدخول في تفاصيل هاتين الهزيمتين وآثارهما، حسبنا التأكيد أنهما سجلتا بداية مسلسل من النكسات اللاحقة زعزعت المعطيات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ومهدت الطريق للاستعمار الأجنبي.

1 - Abdallah Laroui , « Les origines Sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1830) , Maspero- Paris 1977, p 237.

2 - جرمان عياش، جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860، مطبوعات معهد الدروس العليا المغربية، الجزء التاسع عشر الرباط 1959، ص26.

إن هدفنا من هذه الوقفة، هو إبراز الوجه الآخر للهزيمتين اللتين شكلتا حافزا للنقد الذاتي، ومدخلا لولوج سياسة الإصلاحات. يقول علال الفاسي في هذا الصدد: «...ولقد كان انهزام الجيش المراكشي في هذه الموقعة (...) باعثا للشعب المغربي ونخبته على التدبر والتفكير في أسباب الهزيمة وظروفها. وقد تنبه المغاربة منذ الساعة إلى أن الأنظمة العتيقة في الجيش وفي الدولة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوروبي الحديث، وتكون في نفس القادة شعورهم بالحاجة إلى التجديد، وانتحال وسائل التقدم والتعرف. وتعتبر هزيمة إيسلي العجز الأول للنهضة المراكشية الحديثة...»⁽³⁾.

وبالفعل فقد تمخض عن الهزيمتين ظهور حركة انبعاث جديد وبقظة في البلاد⁽⁴⁾، فكما حصل في المشرق حيث لم تبدأ بوادر الوعي النهضة في الحديث في التبلور إلا بعد الاصطدام مع أوروبا، وبكيفية خاصة بعد احتلال نابليون لمصر سنة 1798، حدث نفس الشيء في المغرب، إذ لم يبدأ الاتجاه إلى المستقبل بتساؤل وتوجس إلا مع احتلال الجزائر، وبالخصوص عقب هزيمة الجيش المغربي في وقعة إيسلي سنة 1844 أمام الجيش المحتل للجزائر⁽⁵⁾.

فَتَحَّتْ وقع الضربات الأولى للغزو الأجنبي (حادث الجزائر، إيسلي، تطوان) بدأ المغاربة أو على الأقل نخبتهم العالمة يعون وضعيتهم كأمة أصبحت مستهدفة من طرف الطامعين، هذا الوعي الذي جسده نخبة من العلماء الذين ألفوا رسائل وفتاوى وكتب جعلت من المسألة العسكرية نقطة الانطلاق في الإصلاح وبؤرته، فجاءت هذه التأليف عبارة عن مشاريع ونظريات تتضمن توجيهات حول تنظيم الجيش، وتصورا لنظام الاستعداد لمواجهة التهديد الأوروبي.

إن الكتابات حول الإصلاح العسكري والتي لا زالت في غالبيتها مخطوطة، بدأت تأخذ أهميتها منذ سنة 1850، أي عقب هزيمة إيسلي. وقد ميز العروي في هذه الكتابات بين ثلاثة اتجاهات. وهو تمييز يقوم على أساس موقع واضعي هذه التأليف.

3- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، الطبعة الرابعة، الرباط 1980، ص 86-85.

4- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجزء الأول، مطبعة المتوسط، الطبعة الثانية، بيروت 1985، ص 22.

5- محمد عابد الجابري، "تطور الانتلجنسيا المغربية: الأصالة والتحديث في المغرب"، ندوة الانتلجنسيا في المغرب العربي، المجموعة بإشراف عبد القادر جغلول، دار الحداثة الطبعة الأولى، بيروت 1984، ص 14.

الاتجاه الذي يمثله شهود عيان للعمليات العسكرية في الجزائر، والذين رأوا أن من واجبهم إثارة انتباه سلطان المغرب للأخطار المحدقة بالبلاد.

- الاتجاه الذي يمثله العسكريون المحترفون الذين أتوا من بلدان إسلامية أخرى وعرضوا على السلطان خدماتهم.
- اتجاه العلماء المرتبطين بشكل أو بآخر بالسلطة⁶.

وما يهمنا من هذه التآليف هو الوقوف على بعض الاقتراحات التي اعتبرت من شروط الاستعداد، وهي اقتراحات نعتبرها ذات أثر في إقدام السلطان على إرسال شبان وجنود لدراسة العلوم العسكرية وغيرها بالمعاهد الأوربية، خصوصا إذا علمنا أن أغلب هذه الرسائل كانت ترفع إلى السلطان، كما أن أصل هذه التآليف كان يرجع إلى الفتاوى التي يطلبها السلطان في شأن ما يعرض عليه من إصلاحات، إذ تتحدث المصادر أن السلطان محمد بن عبد الرحمان وهو الذي عاش حرب إيسلي وتطوان بكل النتائج المترتبة عنهما، بعد اقتناعه بحقيقة ضعف الجيش المغربي، واستيعابه للدور الكبير للمدفعية وضرورة إخضاع الجيش لتكوين نظري خاصة في مادة الرياضيات، قرر استشارة عشرة علماء كبار لإضفاء الشرعية على مشاريعه الرامية إلى تجديد قواعد الجيش المغربي⁽⁷⁾.

وقبل إبراز أثر هذه التآليف كمصدر داخلي للتفكير في توجيه البعثات، من المفيد الإشارة إلى ما يلاحظ بخصوصها من تباين من حيث مستوى شموليتها، وربط إصلاح وتنظيم الجيش بإصلاح الميادين الأخرى. غير أن القاسم المشترك الذي يجمع بينها هو اعترافها بضعف الجيش المغربي والفوضى الذي تسود صفوفه بالمقارنة مع تفوق الجيش الأوربي المنظم والمسلح على الطريقة العصرية.

إن تعاملنا مع نماذج من هذه التآليف لن يطال بنيتها الفكرية، وتحليل طريقة تصور هؤلاء العلماء لنظام الاستعداد، إنما سيتم التركيز فقط على كل إحالة إلى الغرب تقييد الإعجاب بعناصر قوته

6 - Abdallah Laroui, op-cité, pp273-274.

A. Laroui, op-cité, pp 279-280.

محمد المنوني، مظاهر بقطة المغرب الحديث، الجزء الأول، ص 280.

العسكرية، أو تصرح بتقليد نظام جيشه، أو توحى بجلب أسباب قوته، كاستيراد الأسلحة الأوروبية وتعلم الفنون العسكرية.

ولنبداً برسالة ألفها ابن عزوز سنة 1256/1849 موجهة للسلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1822-1859) تحمل عنوان «رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف»⁽⁸⁾ ويدور موضوعها حول تنظيم الجيش. ويستنتج من خلال ما جاء من معلومات في الرسالة ذاتها أن ابن عزوز هذا كان أحد الصوفية المقيمين بالجنوب الجزائري، وأنه شاهد عيان لمعارك فرنسا ضد الجزائر.

ويبدو واضحاً من خلال الصفحات المعدودة⁽⁹⁾ لرسالة ابن عزوز، أن هذا الأخير يقترح على السلطان عبد الرحمان بن هشام القيام بجملة من الإجراءات لتهيء جيش منظم قادر على القيام بحملة على الجزائر لتحريرها من قبضة الفرنسيين. واقتراحات ابن عزوز لإصلاح الجيش تنتظم ضمن أربعة مستويات تشمل التجنيد والتدريب والتسليح والتنظيم، ويهمنها الوقوف عند مستوى التسليح حيث نجده ينصح السلطان بجلب الأسلحة من أوروبا على اختلاف أنواعها. يقول ابن عزوز: «... فابعث إلى بلاد النصارى يأتونك بستمائة من المدافع المعلومة للقتال ومايتين وخمسين ألفاً من المكاحل المعلومة للعسكر المخالفة لمكاحلكم هذه، وعشرة آلاف مكحلة ذات الجعبتين ومثلها في العدد من الكوابيس وأربعماية كريطة... وكراريط المدافع أيضاً لا بد منها. وابعث نصرک الله أيضاً إلى بلاد النصارى بنحو اثني عشر سفينة موسوفة (كذا) بالشر ثم الكور (...) وإن زادوك البارود فحسن. وهذا معظم ما نحتاجه من بلاد النصارى»⁽¹⁰⁾.

يتبين أن أول ما استهل به رسالته هو اقتراحه على السلطان بالاعتماد كلياً على أوروبا «بلاد النصارى» لتزويد الجيش المغربي بالأسلحة الحديثة، لأنه خبر في الميدان فعالية هذه الأسلحة كما يتضح

8 - ابن عزوز المراكشي، «رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف»، مخطوط خ.ع.ر. رقم ح1623.

9 - مجمل الرسالة يتكون من أربعة فصول: الفصل الأول في ذكر التهيء للجيش، والثاني في كيفية جمعه من المدائن والقرى والبوادي، والثالث في كيفية تهيئته وسفره لقتال العدو وصفة القتال، والرابع في ذكر توبيخ بعض أمراء الحوز وبعض أمراء الجند، غير أن النسخات المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط تشمل نقط الفصل الأول وجزء من الفصل الثاني.

10 - ابن عزوز، المصدر المذكور، ص7-8.

بجلاء من خلال وصفه الدقيق لكل أنواعها والتي تخالف الأسلحة المغربية التي باتت متجاوزة تقنيا، كما تبرز صيغة أسلوبه «المكاحل المعلومة للعسكر المخالفة لمكاحلكم هذه»⁽¹¹⁾، وإذا فات ابن عزوز أن أوروبا لم تكن لتقبل أن تزود المغرب بما يمكنه من مقاومة أهدافها الاستعمارية، فإن تأكيدات المتكررة تعكس يقينه من التفوق العسكري الأوربي، وهو تفوق أصبح مطلب الحصول عليه الهاجس الذي حرك أغلب التدابير المتخذة بهدف تحديث الجيش المغربي، هكذا، فكما أن ابن عزوز يقترح على السلطان عبد الرحمان بن هشام التوجه إلى الغرب لتزويد هذا الإصلاح من حيث الأسلحة، فإن هذا الغرب هو الذي ستقصد البعثات في عهد السلطان الحسن الأول لتأطير عناصر الإصلاح⁽¹²⁾.

وخلافا لابن عزوز، فإن علي السوسني السملالي (1311هـ/1893م) في مخطوطه الموسوم بـ«عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة»⁽¹³⁾ يرى من شروط الاستعداد الاعتماد على النفس في ميدان تسليح الجيش، وذلك بتوفير مستلزمات إقامة صناعة حربية محلية، يقول: «فلا بد للملك من أن ينبث في أراضيه ينابيع الإمداد من مدافع وكور وسيف ومكحلة وغير ذلك...»⁽¹⁴⁾ خصوصا إذا علمنا أن السملالي كما تبرز فقرات مخطوطه كان على بينة ووعي بمناورات وحيل الدول الأجنبية التي كانت تطوق المغرب وتورطه عبر خطة إقراضه بالديون، كخطوة أولى على طريق الإجهاز عليه واحتلاله. غير أن السملالي لا يسعه إلا الإقرار بواقع التفوق العسكري الأوربي من خلال تأكيده على ضرورة الاستعداد لمواجهة أطماع العدو المتربص بالبلاد، جاعلا من مسؤوليات السلطان ومن شروط الاستعداد العمل على خلق قوة عسكرية مماثلة لقوة الغرب العسكرية، كما عبر بقوله: «أن يكون بين ريحه وريح عدوه»⁽¹⁵⁾.

11 - المصدر نفسه، ص 8.

12 - عبد المجيد الصغير، «ملاحظات حول مشكلة الإصلاح في أول مخطوط صوفي لتحرير الجزائر سنة 1265هـ/1849م. ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط العدد الثامن 1982، ص 351.

13 - مخطوط ب.خ.ع.ر. ضمن مجموع يحمل رقم 480. على أننا اعتمدنا بالأساس على دراسة أحمد العماري، «نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوسني السملالي من خلال كتابه (عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة). ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء سنة 1986، ص 91-111.

14 - نقلا عن المرجع السابق، ص 108.

15 - المرجع نفسه، ص 107.

وفي نفس السياق، ينص السملالي على جملة من شروط الاستعداد نود الوقوف عند بعضها والتي تتم عن إدراكه للتباين الحاصل في المجال العسكري بين المغرب وأوربا (فرنسا). فمخطوط السملالي بما تضمنه من اقتراحات وتوجيهات قد ساهم إلى جانب تأليف أخرى حول نفس الموضوع في تحفيز السلطان على اتخاذ إجراءات متعددة تصب في اتجاه تحديث الجيش المغربي، ومن ضمنها إيفاد بعثات دراسية للتكوين العسكري في الدول الأوروبية.

إن السملالي الذي أُلِف مخطوطه اعتماداً على مصدر القرآن والمؤلفات الفقهية والموروث السلفي النقلي والعقلي يرى «أن النصر لا يكون باللطيف والدعوات ولكن بالاستعداد المنظم والصبر قبل الاتكال على الله»⁽¹⁶⁾، محيلاً إلى فرنسا حسب قوله «تمارس التجنيد الإجباري زيادة على أنها تملك مليوناً ونصف مليون من الجنود المدربة الدائمة في العمل العسكري»⁽¹⁷⁾.

ويبدو واضحاً، أن حديث السملالي يعكس لديه رغبة في اقتفاء أثر فرنسا، وغني عن البيان أن تحقيق ذلك كان يتوقف على إيجاد أطر مدربة على الطريقة الأوروبية، وهو ما رام السلطان بلوغه بإقدامه على توجيه جنود وطلبة إلى أوربا لاكتساب هذه الخبرة. ولم يفته في دعوته لإنشاء «عسكر النظام» التأكيد على أهمية تلقين دروس في الفن العسكري واختيار عناصر الجيش من فئة الشباب. وسنرى كيف أن عنصر الشباب سيراغى كمقياس من مقاييس اختيار الطلبة الذين سيقصدون الدول الأوروبية لتلقي الخبرة العلمية والتقنية، والإشراف على تدريب القوات المغربية. يقول أحد الباحثين محللاً تصور السملالي لمستلزمات إيجاد قوة عسكرية منظمة «والتنظيم عنده يقوم على اختيار عناصر الجيش من الشباب الأقوياء الشجعان وأن تلقن لهم دروس حول المهمة التي يقومون بها»⁽¹⁸⁾.

بقي أن نشير إلى أن السملالي الذي عمل مدرساً لحساب بعض أفراد الجيش المتخصصين في المدفعية بتطوان على عهد عبد الرحمان

16 - المرجع نفسه، ص 108.

17 - المرجع نفسه، ص 108.

18 - المرجع نفسه، ص 108.

«...هشام، ثم مدرسا للعلوم بالقصر الكبير على عهد محمد بن عبد الرحمان⁽¹⁹⁾ كان من دعاة الاهتمام بالعلوم الطبيعية في ظرف تراجعت أثناءه مكانة هذه العلوم، ولم يعد لها من موقع في البرنامج الرسمي لأعلى مؤسسة تعليمية في البلاد(20)، مذكرا أن لا عيب في نقلها «اقتباسها من أوروبا، وكيف أن الفكر الإسلامي استفاد من معارف علوم الحضارات السابقة عنه والمعاصرة له» ثم ينبه على كيفية «حصول العلوم إلى المسلمين من الفرس والإغريق وأوروبا الغربية...»⁽²¹⁾.

لقد شكل الإعجاب بنظام أوروبا العسكري وما تميز به من إحكام وترتيب، «أبنا من ثوابت الكتابة الداعية إلى إنشاء «عسكر النظام» الذي «يتأكد...» بل يتعين ويتحتم⁽²²⁾ وهو إعجاب ممزوج في ذات الوقت بكراهية هذا الغرب، يقوم على قناعة هؤلاء العلماء بأن مواجهة الغزو الأجنبي وصد العدو يتوقفان على الأخذ بأسباب تقدمه وأسس قوته العسكرية.

إن هذه القناعة يعبر عنها بكل وضوح أحد دعاة تحديث الجيش على النمط الأوروبي بقوله: «...وإن الاستعداد بآلة المدافع والمهاريس وعسكر النظام أمر حتم قطعاً على الإمام، يجبر عليه الرعية، وبه يحصل قمع وقهر أعداء الملة المحمدية، ولا جرم أن مضادة الكفرة ومدافعة أعداء الدين الفجرة، فلا يحصل في هذا الأوان إلا بذلك دون غيرها من الحروب والمعارك، فحقيق على الإمام أن يسلك بالرعية تلك المسالك وإلا وقعت في الرذائل والمهالك. فإن الروم أذلهم الله داكت عقولهم في استنباط واستخراج حرب لا تطاق محاربته، ومن قاتلهم ودافعهم دونه لم تغنى مدافعه فأحدثوا عسكر النظام وأطبقوا على أن به يحصل المرام، ثم أضافوا له ما أحدثوا قبله من الرمي بالمدفع والمهراس وأجمعوا على أن بهما يحصل الفرز والرعب للناس فتمت حيلتهم، وأمنت بذلك هزيمتهم إلا من رام الحرب المذكور من بابيه واتخذ النظام بمتعلقاته وأسبابه...»⁽²³⁾.

19 - المرجع نفسه، ص 95.

20 - A. Laroui, op-cité, pp 198-199.

21 - أحمد العماري، مرجع سابق، ص 109.

22 - محمد المهدي بن الطالب بن سودة في رسالته لتنظيم الجيش نقلا عن محمد المنوني، مرجع سابق، ص 344.

23 - الغالي اللجاني، «قمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام»، مخطوط خ.ج.ر، رقم 965، ص 26.

لا شك أن هذا الموقف المزدوج الذي طبع أغلب هذه التأليف يجد تفسيره في إدراك هؤلاء العلماء للوجه الآخر من المدنية الأوروبية، وهو وجهها الاستعماري الذي تأكد بالوقائع وهو موقف لم ينفرد به المغاربة وحدهم. فقد لاحظ أحد الدارسين المهتمين بقضايا النهضة العربية الحديثة أن الاقتناع بقوة أوربا لدى طائفة من مثقفي العصر سواء كان ذلك في المجال العسكري أو غيره من المجالات، كان مقرونا بكرهية أوربا «...أخذ الوعي النهضوي العربي يضع الأنا (العرب- المسلمون-الشرق) في موقع النائم المتأخر المعنّدى عليه، المهدد في وجوده المادي وكيانه الروحي، ويضع الآخر (الغرب- أوربا المسيحية) في موقف الناهض المتقدم، ولكن أيضا الغازي التوسعي المستعمر، ومن هنا ذلك الموقف المزدوج الذي اتخذته العرب من الغرب، الموقف الذي اتسم بالتناقض الوجداني. الإعجاب والكرهية في نفس الوقت الإعجاب بالغرب، بعلومه وصناعته (...)، والدعوة إلى اقتفاء أثره والأخذ بأسباب تقدمه، والكرهية لنفس الغرب الغازي التوسعي الاستعماري...»⁽²⁴⁾.

لقد استبعدنا في استقراءنا لنماذج من النصوص التي دعا أصحابها إلى تحديث الجيش المغربي، مسألة التفكير في مدى أو عدم شمولية تصوراتهم لهذا التحديث، وفيما إذا ربطوا الإصلاح العسكري بالإصلاح السياسي والاجتماعي العام، لأن اهتمامنا ينصب أساسا على ما تضمنته هذه النصوص من إشارات واقتراحات تحيل صراحة أو ضمنا، إلى التوجه إلى أوربا للحصول على مصادر قوتها العسكرية، سواء عنيت هذه الإشارات بجلب الأسلحة العصرية، أو التمرن على استعمالها، أو تدريب عناصر الجيش المغربي على الطريقة الأوروبية، وهي كلها قضايا شكلت إحدى الأهداف الرئيسية للبعثات التي ستوجه إلى أوبا، والأمثلة السالفة الذكر خير معبر عما نحن بصدد إبرازه كمصدر داخلي للإصلاح موضوع الدراسة.

ومن المفيد الوقوف على مثال آخر، حيث يستفاد من جملة التوجيهات التي أوردها مؤلف إحدى الرسائل الموضوعية حول تنظيم الجيش⁽²⁵⁾

24 - محمد عابد الجابري، "العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي، ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 32، السنة 1984، ص 44-45.

25 - محمد بن أحمد الخوجة، "رسالة في تنظيم الجيش"، مخطوط خ.ع.د، رقم ك، 2733، ص 1.

أن الارتقاء إلى مستوى النظام العسكري الأوربي يقتضي ضرورة معرفة وتعلم العلوم العسكرية التي يركز عليها هذا النظام.

إن مؤلف الرسالة احترّف مهنة الجندية واطلع في «بلاد الترك، وفي بلاد الروم» على كتب تعالج موضوع القوانين والفنون العسكرية⁽²⁶⁾، مما يفسر تنويعاته المتكررة بهذه العلوم، وخاصة الهندسة ليلمح إلى الرغبة في تعليمها وتلقينها لأطر الجيش المغربي التي لاحظ عليها جهلها لهذه العلوم حسب قوله في بداية الرسالة: «...وبعد فإني لما نظرت في أحوال العسكر السعيد (...) وجدت قلة المعرفة مع أرباب المكلفين به مع جهل القوانين الجارية فيه تذكرت البعض مما رويناه، عن أربابه وشاهدناه في بلاد الترك وفي بلاد الروم ودارسناه، في كتب المهندسين من أرض مصر وجعلناه مختصرا لطيفا في خدمة العسكر وقوانينه وحروبه»⁽²⁷⁾. ولم يفته التأكيد على ضرورة وحاجة أفراد الجيش المغربي لمثل هذه العلوم التي بدون تعلمها فإن وجود الجيش يتحول إلى عدم «...لأن صنعة العسكر إذا لم تكن لها الرياسة والمعرفة والقوانين صار وجودها كالعدم، فالواجب على العسكر التعليم والمسايسة والملاحظة فيه حتى ترسخ صنعة الحرب في عقولهم ويثبتون على القوانين والحيال اللازمة لهم عند مقابلة العدو»⁽²⁸⁾.

إن أهمية هذه الرسالة بالنسبة لموضوعنا تكمن في تمييزها عن النماذج السابقة الذكر بإلحاح صاحبها على وجوب تعليم عناصر الجيش كل أصناف العلوم العسكرية، وتذكيره بوجود كتب خاصة بهذه العلوم «وصنفوا على ذلك، كتب عديدة»⁽²⁹⁾، فضلا عن أن مؤلفها لم يقتصر على الإحالة إلى الغرب، وحده كمصدر للقوة العسكرية على غرار ما لاحظناه مع المؤلفين السابقين، بل نجده يشير أيضا إلى أسبقية تركيا ومصر، على المغرب في هذا المجال، فليس صدفة إذن أن تبدأ البعثات الدراسية بالتوجه إلى مصر ومن بعد إلى أوروبا، وليس صدفة أيضا أن نجد العلوم العسكرية تتصدر قائمة المواد التي «سيتلقى فيها الطلبة تكويننا في المعاهد الأوربية».

(26) المرجع نفسه، ص.1.

(27) المرجع نفسه، ص.1.

(28) المرجع نفسه، ص.5.

(29) المرجع نفسه، ص.2.

تأسيسا على ما استعراضناه من نماذج من النصوص التي عالجت موضوع الإصلاح العسكري انطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر نخرج بالخلاصات التالية:

لا يمكن فصل هذه التأليف التي ساهمت في خلق أدب متميز عن حدث احتلال الجزائر وهزيمتي إيسلي وتطوان، وهي أحداث كشفت بما فيها الكفاية عما آلت إليه وضعية الجيش من ضعف وفساد من جهة، كما حكمت بوجوب الإصلاح؛ ومن ضمنه البعثات؛ من جهة ثانية. إن هذه التأليف بما تضمنته من آراء وأفكار تمثل نموذجا من الإنتاج الفكري الذي عرفته المرحلة، يعكس لنا الوعي المتكون بعد صدمة الهزيمتين عند عموم المغاربة حكاما ومحكومين على السواء.

إن تبوأ الإصلاح العسكري مكانة الصدارة في كل المشاريع والمحاولات الإصلاحية، فكرية كانت أو عملية، يرجع إلى أن القطاع العسكري كان أول قطاع مغربي احتك واصطدم بالغرب، فاكشف قوة هذا الغرب العسكرية والكامنة في نظامها المحكم، لذا وجب إنشاء مثل هذا النظام الذي «حق على هذه الأمة»⁽³⁰⁾ لأن «ما أصاب جيشه السعيد هو من عدم تنظيمه على الطراز الجديد»⁽³¹⁾.

إن دعوة هذه الكتابات إلى إنشاء جيش نظامي على النمط الأوروبي جعل جلها يسير في اتجاه تأكيد مظاهر التفوق العسكري والبحث عن أسبابه، فتولدت القناعة بأن لا مناص من اللجوء إلى أوروبا لإقامة «عسكر النظام» كخطوة أولى في أفق القضاء عليها بأسباب قوتها عينها، ولم يكن إيفاد بعثات دراسية لاكتساب العلوم التي يركز عليها هذا النظام إلا إجراء من إجراءات هذا اللجوء الاضطراري إلى الغرب.

إن خلو هذه التأليف، من اقتراح صريح ومباشر يقضي بإيفاد بعثات دراسية إلى أوروبا، لا يمنع من تصنيفها كباعث من بواعث هذا الإصلاح، ذلك أن ورود عدة اقتراحات في هذه المتون، تخص التدابير الواجب اتخاذها لتحديث الجيش المغربي على الطريقة الغربية، جعل الغرب قبلة كل إصلاح في الميدان العسكري. فالغرب هو الذي ستقصده البعثات التي كانت من ضمن التدابير المتخذة لتطوير جهاز المغرب الدفاعي.

30 - أحمد الكردودي، «كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على الأمة»، مخطوط خ.ع.ر رقم 1281د.

31 - محمد غريب، «قواصل الجمان في أبناء وزراء وكتاب الزمان»، مطبعة الجديدة، فاس 1346، ص88.

يستند تصنيفنا لهذه الكتابات كمصدر من مصادر هذه المبادرة الإصلاحية التي كانت مبادرة رسمية إلى كون أغلبها كان موجها إلى السلطان محمد بن عبد الرحمان، فضلا عن أن بعض مؤلفيها كانوا من بين عناصر الدائرة المحيطة بهذا السلطان الذي عُرِفَ عنه اهتمامه بالعلوم العقلية وتشجيعه لها⁽³²⁾. ومعلوم أن البعثات بدأت على عهد هذا السلطان، وإن كانت مصادر أخرى ترجعها إلى عهد عبد الرحمان بن هشام كما سيأتي تفصيله استقبالا.

2) تقارير الرحلات السفارية:

يتبين مما سبق ذكره، أن المسألة العسكرية قد استأثرت بالنصيب الأوفر من الجهود الإصلاحية الفكري في المغرب، منذ منتصف القرن التاسع عشر. وسيتقوى الاهتمام الفكري بهذه المسألة بمساهمة الرحالة المغاربة الذين زاروا بعض أقطار أوربا خلال هذه الفترة، وذلك بتركيزهم أكثر في تقاريرهم الوصفية على رصد التنظيمات العسكرية الأوروبية التي عاينوها بهذه الأقطار، مع ما كانت تتضمنه أوصافهم هذه من نقد باطني لتنظيمات الجيش المغربي.

فمن المعلوم أن تكاثف العلاقات مع أوربا، وما ترتب عنها من مشاكل تحولت إلى أخطار تهدد الكيان المغربي، جعل السلاطين يبذلون جهودا متعددة ومتواصلة لدرء هذه الأخطار، ولم يكونوا على استعداد للدخول في مغامرة حربية مع إحدى الدول المتنافسة على المغرب، قد تكون عواقبها أعمق مما خلفته هزيمتا إيسلي وتطوان. وهو نهج عكسته كتابات بعض العلماء الذين أثروا تجنب كل اصطدام مباشر مع القوى الأوروبية⁽³³⁾ على نحو ما عبر عنه أحد الحجاج المغاربة بقوله: «...ومن يحاج النصرارى ويغال بهم اليوم لعلو

32 - عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط 1940، الجزء الثالث، ص 367.

33 - لا ننفي وجود بعض العلماء الذين عارضوا سياسة الصلح والمهادنة مع الدول الأوروبية ودعوا في كتاباتهم إلى مواصلة الجهاد. أنظر ما جاء في مخطوط ألف سنة (1280هـ/1863م) لصاحبه محمد الدرقاوي العربي المدغري عنوانه "منشور يدعو إلى الحري"، خ-ع، رقم 3353.
راجع أيضا: لطيفة سمريس بناني، "جوانب من مواقف علماء المغرب في القرن 19 من أزمة وأحداث الفترة"، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص سنة 1406-1985، ص 228-191.
محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص 357-348.

كلمتهم وقوة شوكتهم في البحار والمراسي وفي كل الثغور...»⁽³⁴⁾.

وهذا العجز يعلنه الناصري بكل صراحة: «فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء، والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدي إليه سبيلا، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء»⁽³⁵⁾.

ومحاولة من سلاطين المغرب لتطويق الأزمة وتفاذي المواجهة المباشرة نهجوا سياسة خارجية لبقة ومتحيلة اتجاه الدول الاستعمارية الكبرى المتمثلة وقتذاك في إنجلترا وإسبانيا وفرنسا المتصارعة فيما بينها في حرب باردة بهدف بسط نفوذها على المغرب⁽³⁶⁾. وقد تبلور جانب من هذه السياسة في إيفاد سفارات مغربية تجوب أقطار أوروبا لمدة محدودة قد تغطي بضعة أسابيع أو شهور، مستهدفة تسوية بعض المشاكل العالقة مع بعض هذه الأقطار، وفي نفس الآن تعميق الخلافات السائدة في صفوف القوى الأوروبية بما يضمن سيادة ووحدة التراب المغربي.

فعلا شهد المغرب منذ سنة 1845 حركة دبلوماسية مكثفة تمثلت في توجه عدة سفراء مغاربة إلى جل بلدان أوروبا مكلفين بتسوية قضايا خاصة قد تتعلق بتصفية بعض المشاكل لترايبية أو لطلب تأييد مواقف المخزن أو لاقتراض. وقد يتعلق الأمر فقط بزيارة مجاملة لتوطيد العلاقات بين البلدين، وإن ظل في الغالب موضوع السفارة مسكوتا عنه لأن السفراء كان يرون أن ذلك من الأسرار الدولية التي من واجب أمثالهم المحافظة عليها وكتمانها⁽³⁷⁾.

وموضوع السفارات المغربية إلى أوروبا الذي لم يحظ من قبل إلا بدراسات محدودة، بدأ يثير اهتمام الباحثين مغاربة وأجانب⁽³⁸⁾ نظرا

34 - محمد بن عبد الله الغيغالي: "رحلة الغيغالي"، مخطوط خ.ع.ر، رقم ج 98، ص 66.

35 - الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، الجزء التاسع، ص 190.

36 - زكي مبارك، "من أدب الرحلات، تحفة الملك، العزيز بملكة باريز للكاتب الأديب الحاج إدريس العمراني، مجلة البحث العلمي، العدد 31، أكتوبر 1980، ص 69.

37 - محمد داوود، تاريخ تطوان، المجلد الثالث، المطبعة المهدية، تطوان 1962، ص 298.

38 - أنجزت الأمريكية "سوزان ميلر" دراسة عن رحلة محمد الصفار.

- Susan G. Miller, « The voyage of Faquih as. In actes du premier congrès d'histoire T.2, Tunis 1979.

لأهمية هذه السفارات كشكل من أشكال الاتصال بالأوروبيين في ظرفيه دقيقة. وبغض النظر عن الحصيلة السياسية لهذا النشاط الدبلوماسي فإن ما يستوقف الدارس هو ما نتج عن هذا النشاط من إنتاجات فكرية جاءت في شكل تقارير قد تكون من تأليف السفراء أو ممن كانوا يرافقونهم من كتاب وأدباء. وهي تقارير شكلت أدبا حضاريا جديدا، إذ أنها بالإضافة إلى ما تضمنته من معلومات حول الظروف والملابسات التي أحاطت بالسفارات، فإنها تنطوي على معطيات حول ما شاهده مدونوها أو سمعوه من مؤسسات ومآثر وعادات وتقاليد البلدان التي وُجِّهوا إليها، لذا ليس من المبالغة اعتبارها مصدرا من المصادر التاريخية، وبمثابة دراسات مقارنة لمجتمعين أحدهما في طور التجديد والتغير والتوسع، والآخر في طور الجمود والانكماش، أي بين مجتمع عصري ومجتمع تقليدي⁽³⁹⁾.

وإذا كانت بعض تقارير هذه الرحلات في غير متناول الباحثين⁽⁴⁰⁾ فإن المتوفر منها كاف نسبيا لتقديم تصور عام حول رؤية ومنظور فئة من مثقفي العصر لمخترعات المدنية الأوروبية، ومواقفهم إزاء مظاهر التقدم الأوربي الحديث.

على أننا سنكتفي بالوقوف على نماذج من هذه التقارير موجهين في طريقة تعاملنا معها بالسؤال التالي: ما هو دور هذه الرحلات السفارية في تعميق الوعي بضرورة الإصلاح؟ وبالتالي بأي معنى من المعاني يمكن اعتبارها باعثا محليا من بواعث التفكير في إرسال بعثات دراسية إلى أوروبا؟

يستفاد مما ورد في مخطوط العربي المشرفي أن جل السفراء المغاربة الذين أرسلهم السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان عادوا يستعظمون أنظمة البلدان الأوروبية التي زاروها، ويستحسنون طرق

39 - زكي مبارك، مرجع سابق، ص 75.

40 - نتحدث المصادر عن بعض الرحلات السفارية التي لم تستغل بعد من طرف الدارسين منها:
- رحلة لأبي عبد الله محمد بن الحاج محمد بن السعيد السلاوي (ت 1310هـ/ 1892م) إلى بلاد فرنسا حوالي سنة 1868م/ 1285هـ بأمر من السلطان محمد الرابع، تقع في سفر صغير توجد عند حقدته سلا.
أنظر: ابن سودة، "دليل مؤرخ المغرب الأقصى"، الجزء II، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1960، ص 352-353.
رحلة إدريس بن محمد الجعدي (ت 1308هـ/ 1891م) تحت عنوان «تحفة الأخبار بغرائب الأخبار»، ألفها عن سفارة محمد الطاهر الزبدي إلى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلجيكا (1293هـ/ 1876م).
أنظر: كما كتبه الناصري معلقا على هذه الرحلة، الاستقصا ج 9، ص 151 وأيضاً: عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر، الجزء 2، دون تاريخ الطبع ومكانه، ص 275.

أحكامها حسب ما يؤكد قوله: «...وكل من بعثه المولى الإمام لبر
النصارى عَظَمَ شأنَ الملاقاة للكفار، واستعظم النظام الكبرى وضبط
الأحكام...»⁽⁴¹⁾.

فلنقف على معالم التنويه هاته في بعض النماذج من الرحلات
السفارية مبتدئين برحلة محمد بن عبد الله التطواني الصفار⁽⁴²⁾ الذي
رافق بصفته كاتباً في سفارة الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش
عامل تطوان إلى فرنسا ابتداء من أواخر سنة 1261هـ/1845م⁽⁴³⁾.
ويتضح من خلال رسالة بعثها السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام
إلى الحاج عبد القادر أشعاش يخبره فيها بتعيينه سفيراً للمغرب في
فرنسا، أن الغاية من هذه السفارة هي إظهار تقرير الصلح والمهادنة⁽⁴⁴⁾
بعد المعارك التي جرت في شهر أغسطس من السنة الماضية⁽⁴⁵⁾.
وأهمية هذه الرحلة تكمن في كونها أول رحلة سجلت أحوال البلاد
الغربية في العصر الحديث، فضلاً عن أن صاحبها كان مسؤولاً كبيراً
في الجهاز المخزني حيث تولى الوزارة لثلاثة من ملوك المغرب⁽⁴⁶⁾، وكان
من المستشارين المقربين للسلطان المولى الحسن، فموقعه هذا يجعلنا
لا نستبعد احتمال اقتراحه على السلطان باقتباس ما ارتآه إيجابياً
من منجزات التقدم التقني التي عاينها بالديار الفرنسية، يؤكد ذلك
ما جاء في بداية تقريره، مفسراً دواعي كتابته: «...وكان من الحزم لمن
تغرب عن وطنه ونأى أن يعد كل ما سمع ورأى لما قد يوجد في ذلك، من
العلوم والعبر وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر...»⁽⁴⁷⁾.

41 - المشرقي العربي بن علي، «الحسام المشرقي»، مخطوط خ.ع.ر ضمن مجموع بحمل رقم ك2276، ص321.

42 - وردت ترجمته في:

-ابن داوود، تاريخ تطوان، الجزء III، ص297 وأيضاً:

-Georges Yver، «La question Marocaine-Revue Africaine, Année 1909, p212.

-المراكشي، «الإعلام»، الجزء 7، ص34.

43 - بخصوص هذه السفارة يمكن الرجوع إلى مجلة «الوثائق»، العدد2، المتضمنة ثمان وثائق رسمية تحت الأرقام
التالية:

الوثيقة 192-193-182-181-180-179-178. أيضاً.

44 - مجلة الوثائق المجموعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، 1396هـ/1976 رقم الوثيقة 178، ص73.

45 - جاك كاي، «السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا»، ضمن مجلة تطوان، السنة 1961 العدد6، ص179.

46 - محمد الفاسي، «الرحلات السفارية المغربية»، ضمن مجلة البيئة، السنة الأولى، العدد6، أكتوبر 1962، ص
21-22.

47 - محمد بن عبد الله الصفار التطواني، «رحلة إلى فرنسا»، مخطوط خ.ح.ر رقم 113، ص24-25.

إن الصفار يبدي في كثير من فقرات تقريره نوعا من الإعجاب ببعض التنظيمات التي شهداها، من ذلك على سبيل المثال ما جاء في معرض وصفه لمظاهر السكن العمراني بنوعيه الحضري والبدوي «... أعلم أن هؤلاء القوم ليس عندهم في مساكنهم لا أخصاص ولا خيم ولا نواويل، وإنما يعرفون البناء لا غير إلا أن بناء البوادي متميز عن بناء الحواضر، فقراهم في الحقيقة من جملة المدن، يوجد فيها ما يوجد في الحاضرة من الأسواق، وما يباع فيها وغير ذلك، وقد رأينا في طريقنا هذا ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم وإتقان تدبيرهم...»⁽⁴⁸⁾.

ومما يستوقف الدارس في رحلة الصفار هو وصفه لنظام الصحافة ووظائف النظام البرلماني بلهجة إيجابية توحى بالتبني، حيث كتب معلقا على سير عمل نواب الأمة «...ومن وظيفتنا (أي القمرة ويقصد البرلمان) تجديد قانون مفقود وإبقاء قانون موجود على حاله، والفرق بينهما أن القمرة الكبيرة تحامي عن الملك، ورؤساء الدولة، وتعضد أمرها، والصغيرة تحامي عن الرعية وتنصرها وتطلب حقوقها فكأنها خصم للأخرى... ولا يمضي قانون من قوانينهم ولا حكم من أحكامهم إلا إذا اتفق عليه أهل القمرة الصغيرة والقمرة الكبيرة والسلطان ووزراءه...»⁽⁴⁹⁾.

ولم يكن المؤرخ ابن داوود مبالغا في استنتاجه من وصف الصفار لميزانية الدولة ومدخيلها ومصاريقها، إذ كتب معلقا على هذا الوصف «...وقد أسهب في هذا الموضوع إسهابا ولعله كان يود لو كان شيء من ذلك، النظام المالي موجودا في بلده أيضا»⁽⁵⁰⁾.

إن هذه الرغبة المسكوت عنها نجدها حاضرة عند الصفار وغيره من الرحالة المغاربة، وتُستشف من خلال قراءة عميقة لمتن هذه الرحلات، فبعض التقارير لم يفصح أصحابها عن كل ما شاهدوه وأعجبوا به، فضلا عن تفاوت مكانة هذا المؤلف عن الآخر مما يعني تفاوت إمكانيات وهامش التعبير⁽⁵¹⁾.

48 - المصدر نفسه، ص 29.

49 - المصدر نفسه، ص 134-133.

50 - محمد داوود، تاريخ تطوان، م.س، ج 3، ص 308.

على أننا نجد في بعض الفقرات تعبيراً صريحاً عن إعجاب الصفار ببعض التنظيمات، كتعقيبه على مشاهدته لإحدى التداريب العسكرية، إذ كتب منها «...إنهم أرونا كيفية حربهم بالمدافع في هذا المركب، إذا عرض لهم فيه حرب، بينما كل واحد من خدمته ومن يباشر ذلك، جالس أو قائم في موضعه الذي هو فيه (...) ومدار ذلك، كله على الضبط والحزم والاعتناء التام وعدم الغفلة في الأمور، والله فليست لهم قوة في أبدانهم ليست لغيرهم بل ربما كانوا أضعف من غيرهم في ذلك، وإنما الذي لهم الاعتناء التام والترتيب الحسن، ووضع الأشياء في محلها ويبنون أمورهم كلها على أصح أساس ويستعدون للأمور قبل وقوعها ولا يعرف حقيقة ذلك، إلا من شاهده...»⁽⁵²⁾.

إن هذه الرحلة بما تضمنته من أوصاف إيجابية لبعض المخترعات التقنية تدل على استعداد عظيم لتفهم المدنية الحديثة من قبل الصفار الذي صار بعد ذلك، من أهم رجالات الدولة المغربية.

ومن المفيد أن نختم حديثنا عن رحلة الصفار بالوقوف على إشارة هامة أوردها بصدده وصفه لحضور الوفد المغربي في القصر الملكي لتقديم التهنئة للملك الفرنسي بمناسبة حلول السنة الجديدة 1846، حيث ذكر أن من بين الوفود الحاضرة سبعة من المسلمين المصريين وبعضهم من عائلة محمد علي، ثم نحو ستين من الأشخاص الذين بعثهم محمد علي المذكور إلى فرنسا لتعلم العلوم بها⁽⁵³⁾. إنها إشارة تحمل أكثر من دلالة صادرة عن شخصية مسؤولة ومقربة من السلطان، مما يجعلنا نرجع أن هذه التقارير ساهمت بشكل أو بآخر في الإقدام على خطوة إرسال بعثات طلابية إلى أوروبا.

ومثل هذا الإعجاب الذي طبع وصف الصفار لبعض تنظيمات فرنسا نصادفه مرة أخرى عند إدريس بن إدريس العمراوي⁽⁵⁴⁾ في رحلته التي ألفها عن سفارة توجهت برئاسته إلى فرنسا سنة

52 - محمد الصفار: "رحلة إلى فرنسا"، ص 54-53-52.

53 - محمد داوود، تاريخ تطوان، ج 3، ص 307.

54 - وردت ترجمته في عدة مصادر نذكر من بينها:

* أبو عبد الله محمد بوجندار، "كتاب الاغتباط لتراجم أعلام الرباط".

* ابن زيدان، الإتحاف، ج 2، ص 32 وما بعدها.

* محمد غريظ، "فواصل الجمان..."، ص 142 وما بعدها.

1276هـ/1860م⁽⁵⁵⁾، تحمل اسم «تحفة الملك العزيز بمملكة باريز»⁽⁵⁶⁾ وإذا كان مؤلف الرحلة وبعض المصادر (57) تفصح عن أهداف هذه السفارة بإشارات جد عامة، فإن الرجوع إلى بعض المضان العربية والأجنبية يفيد بتنوع مهام هذه السفارة، حيث كلف السفير ابن إدريس بإخبار نابليون الثالث بوفاة السلطان عبد الرحمان بن هشام وتولية ابنه سيدي محمد عرش المغرب، وكذا إبلاغه برغبة السلطان المغربي في تدخل فرنسا كوسيط بين المغرب وإسبانيا بشأن قضية تطوان، فضلا عن مشكل الحدود المغربية-الجزائرية، الذي كان يثار وقتذاك، في كل لقاء مغربي فرنسي⁽⁵⁸⁾.

وتستمد رحلة ابن إدريس أهميتها من الوزن السياسي والفكري لشخصية مؤلفها، مما يفسر عدم تردد ابن إدريس في الإفصاح عن بعض الاقتراحات المباشرة للجهات المسؤولة بشأن جلب بعض المخترعات لما ارتأى فيها من منفعة وفائدة للمغرب، بدأ ذلك واضحا حين كتب ابن إدريس العمراوي مبديا إعجابه من إحدى مبتكرات أوربا الصناعية... وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع هي في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام، واعتبط بها مشاهير العلماء الإعلام ويكفيك من شرفها وحسن موقعها رخص الكتب التي تطبع بها، وقد اعتنوا بتصحيحها، وبالغوا في تهذيبها مع جودة الخط وإيضاح الضبط»⁽⁵⁹⁾، وإذا يقتنع بمزايا جهاز المطبعة فإنه لا يلبث أن يعرض على السلطان محمد الرابع (1859-1873) فكرة إنشاء هذا الجهاز بالمغرب... ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة...»⁽⁶⁰⁾.

55 - عن هذه السفارة أنظر:

* ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص34-33-32 والجزء 3، ص523.

* زكي مبارك، مرجع سابق، ص82-67.

56 - إدريس بن إدريس العمراوي، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، الطبعة الحجرية، بدون تاريخ.

57 - المصدر نفسه، ص3، وأنظر أيضا:

* ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص33.

* العباس بن إبراهيم، الإعلام، ج3، ص34.

58 - جاك كايي، مرجع سابق، ص181-180.

59 - إدريس بن إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص54.

60 - المصدر نفسه، ص55.

وكما هو الشأن في معظم الرحلات السفارية، فإن العمراوي يصف بنوع من الدهشة والذهول كلما صادف بعض المخترعات الحديثة غير المعهودة في المغرب⁽⁶¹⁾، وعن سير الحياة السياسية بفرنسا يسجل العمراوي ارتسامات تفيد إعجابه بهذا النظام غير أن وصف الميدان العسكري استأثر بالقسط الأوفر من رحلة العمراوي منوها بتنظيمات وقوانين الجيش الفرنسي كقوله «...أما قاعدتهم في ضبطه فقرروا أحكاما ككل جريمة تجري على فاعلها حتما وقطعوا الطمع عن أن يتولى أحد مرتبة فيه برشوة أو شفاقة أو (...) ولم يطلقوا للمتولين اليد في العسكر بالتعدي والضرب والحيف، ولا يأخذ شيء من مرتبهم فما يحدث في قلوب العسكر حنق عليه حتى يطلعون بعزلة وولاية غيرهم، ولذلك، وقف كل عند حده فآمنوا بوائقه وفتته»⁽⁶²⁾.

نستشف أن العمراوي، الذي لا زالت هزيمة تطوان عالقة بذهنه، يصف الجيش الفرنسي وتنظيماته بعين تستحضر في ذات الوقت وبشكل ضمني مساوئ تنظيم الجيش المغربي والفوضى السائدة في صفوفه، وما يترتب عنها، مما ينم عن رغبة دفينية في اقتباس هذه التنظيمات وإدخالها إلى المغرب.

يتبين إذن من خلال ما وقفنا عليه من إشارات واردة في رحلة العمراوي، أن هذا الأخير في نقله صورة عن أوضاع المجتمع الفرنسي وما بلغته من تقدم لا يخفي إعجابه ببعض مظاهر هذا التقدم والتلويح بإنشائها واقتباسها. لقد كان العمراوي ينطلق من وصفه «من زاوية مغربية فتأتي المقارنات هفوية ولا شعورية، وتصدر عنه الرغبات، ويلوح بالإصلاحات، ويطالب بالتغيير في الأمور النافعة، ويستنكر الأمور القبيحة بأسلوب الفقهاء ومنطق العصر»⁽⁶³⁾.

لقد أولى السفراء وكتاب التقارير اهتماما بالغا بالأمور العسكرية فزاروا معامل صنع الأسلحة ووصفوا بإسهاب صناعة «الكرطوشات» والمدافع، وعاینوا التمرينات العسكرية، وأشاروا إلى أن الفن العسكري علم يكتسب بالكتابة، وأن مدارس مختصة في تكوين أبناء الأعيان لمهنة الجندية⁽⁶⁴⁾.

61 - من ذلك وصفه لجهاز التلغراف، ص 62-61.

62 - المصدر نفسه، ص 106-105.

63 - زكي مبارك، المرجع المذكور، ص 72.

64 - A.Laoui, op-cité, p217.

كل هذه الاهتمامات شكلت قاسما مشتركا عند أغلب الرحالة مما يعكس رغبة هؤلاء في تحصيل أسباب التفوق العسكري الأوروبي. ويتأكد قولنا هذا من خلال الوقوف على بعض الانطباعات التي ضمنها أبو العباس أحمد الكردودي⁽⁶⁵⁾ في رحلته المسماة «التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الصبنيولية»⁽⁶⁶⁾ عن سفارة كان عضوا فيها قصدت إسبانيا سنة 1884 برئاسة عبد الصادق أحمد الريفي، ففي تعليقه على زيارة لمصنع المدافع بإشبيلية يقول: «...وهذه الدولة وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك فإنها لم تبلغ بعض البعض مما استنبطوه ولا علمت من صناعاتهم مثلما صنعوه ولكنها لم تهمل ذلك، إهمالا كلياً، ولا جعلته وراءها ظهرياً بل وجدت في إدراكه فأدركت ما تيسر من ذلك، وهم جادون فيما سلكه غيرهم من تلك المسالك...»⁽⁶⁷⁾. فالكردودي كان على وعي تام بتأخر إسبانيا بالقياس إلى باقي الدول الأوروبية، لكنه لم يفته التأكيد على محاولة الأسباب وسعيهم الجاد في سبيل اللحاق بهذه الدول مستفيدة من تجاربهم بدراسة نتائج اكتشافاتهم، وكان الكردودي بتأكيد هذا يتمنى لو أن المغرب حذا حذو الدولة الإسبانية، مصداق ذلك تنويهه بمبادرة السلطان المتمثلة في إرسال جنود مغاربة إلى جبل طارق للتدرب على الطرق الحديثة، متنبئاً بإقدام السلطان على خطوات مماثلة مستقبلاً يقول: «ومن اعتناء سيدنا أيده الله بأمور الجهاد ورغبته فيما يعود نفعه على البلاد والعباد صار يوجه من أهل كل فرقة من الحرف التي هي آلة للجهاد من يستقصي معرفتها ويعلم صفتها وكيفيةها حتى يستغنى به فيها عن سواه عن الأجانب ويدرك ما يكون به كمال الاستعداد من المأرب وصار أيده الله يوجه على «الفابريكات» التي يستخدم بها ذلك، وقد ورد منها ما ورد ورفع من وجهته بعض من توجه لمعرفة والاطلاع على كيفيةها وخدماتها عارفاً بجملتها وجميعهم بصدد الشروع في عمل ما علمه وبذل مجهود في ما أتقنه من ذلك، وأحكمه وهي أمور تدل على ما وراءها...»⁽⁶⁸⁾.

لقد كتب الكردودي وهو مشرف على ختم تقريره «...هذا وقد

65 - أنظر ترجمته في مقدمة عبد الوهاب بن المنصور لهذه الرحلة.

66 - أبو العباس أحمد الكردودي، التحفة السنية بالمملكة الصبنيولية، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1963.

67 - المصدر نفسه، ص 90.

68 - أبو العباس أحمد الكردودي، مصدر سابق، ص 91.

ألمحنا في هذا التقييد العجيب ببعض ما شاهدناه من الأعاجيب، واقتصرنا على ما لا بأس بذكره للعلم به، ومعرفة جملته وتفصيله قصد المزيد للاستعداد بأفضل منه، والسعي في تحصيله»⁽⁶⁹⁾.

واضح أن الكردودي وهو يبرر دواعي كتابة رحلته أنه قصد بها التعريف ببعض منتجات ثورة أوربا الصناعية «الأعاجيب»، حاثا على بذل المساعي الكفيلة بتحقيق مناعة المغرب والحصول على أسباب التقدم الأوربي.

وعن سفارة الحاج محمد الزيدي الذي أوفده السلطان المولى الحسن سنة 1876 إلى فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وإنجلترا لتعديل أمر الحماية القنصلية⁽⁷⁰⁾، حيث تنقل لنا بعض التقارير الأجنبية أن هذا السفير بعد اطلاعه على مظاهر التقدم الحضاري بعواصم أوربا قد أعجب بهذه المظاهر، وأكد أنه من واجبه أن يعرف السلطان بعد عودته إلى المغرب بمزايا هذه الحضارة الأوربية وأن ينصحه باقتباس بعض تنظيماتها، وفي مقدمتها العمل على تنظيم الجيش المغربي على النمط الأوربي⁽⁷¹⁾.

لقد لاحظ أكثر من دارس أن تقارير الرحلات السفارية، قد ساهمت إلى حد ما في تعميق الوعي بضرورة الإصلاح الذي أصبح مطلبا موضوعيا تقتضيه شروط الظرفية الحرجة التي كان يمر منها المغرب، «فلا شك أو وصف السفراء لمعطيات النهضة الحديثة كان يهدف بالدرجة الأولى- إلى تعريف دولتهم بمزايا هذه الحضارة قصدا للاقتباس منها»⁽⁷²⁾.

صحيح أن هذه التقارير بما تتضمنه من آراء وموافق متفتحة على بعض المخترعات الغربية لم تمارس تأثيرا يذكر على الرأي العام لأن مؤلفيها كانوا قلة ومنعزلين، فضلا عن أنها كانت موجهة إلى فئة

69 - المصدر نفسه، ص 92.

70 - عن هذه السفارة أنظر:

* ابن زيدان، الإتحاف، ج 2، ص 311-279.

* مجلة الوثائق، ج 5، ص 10 وما بعدها.

71 - Miage (J.I), « Une Mission Française à Marrakech en 1882 ». Publications des Annales de la Faculté des Lettres Aix-en-Provence, 1960, p360.

72 - محمد المنوني، "نماذج من تفتح القرن 19 على معطيات نهضة أوربا والشرق الإسلامي، ضمن ندوة "الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19"، ص 195.

محدودة من القراء⁽⁷³⁾، غير أن مما لا شك فيه أن الرحلات السفارية كان لها الأثر الواضح على ما أقدم عليه السلطان من تدابير إصلاحية، لاسيما تلك التي مست الميدان العسكري.

فالسفراء المغاربة، كانوا بالإضافة إلى بعض الأجانب والتجار المصدر الوحيد لمد السلطان بمعلومات عن أوضاع الدول الأوربية ومصادر قوتها⁽⁷⁴⁾، فضلا عن كون بعض مؤلفي هذه الرحلات كانوا من كبار المسؤولين في السلك المخزني، لذا، ليس من باب المبالغة ما ذهب إليه أحد الدارسين بقوله معقبا على دور هذه الرحلات «...وبالفعل يظهر أن الحركة التي قام بها السلطان مولاي الحسن من إدخال الأساليب العصرية والمخترعات الجديدة مع توجيه عدة طلبة إلى مختلف عواصم أوربا للدراسة كان ناتجا عن التقارير التي كان يقدمها مختلف السفراء الذين يقصدون أوربا منذ أيام المولى عبد الرحمان»⁽⁷⁵⁾.

ومن جهة أخرى، فإن ما يؤكد على مدى ارتباط مسألة السفارات المغربية بموضوع البعثات الطلابية، هو أنها شكلت مناسبة لاطلاع المسؤولين على أحوال الطلبة وظروف إقامتهم بالديار الأجنبية، ومعاينة سير دراستهم وأعمالهم، وذلك بناء على ما أوردته بعض الدراسات الأجنبية، حيث أشار جاك كايي في معرض حديثه عن سفارة عبد المالك بن علي السعيد التي قصدت فرنسا سنة 1885، أن هذا الأخير وهو في طريق عودته إلى المغرب توقف في مدينة مونبلييه «وباشر مقابلات طويلة مع الطلبة المتدربين وتباحث مع المسؤولين المكلفين بتعليمهم»⁽⁷⁶⁾.

كما كانت سفارة عبد السلام برشيد الشاوي⁽⁷⁷⁾ الذي زار إيطاليا سنة 1892 فرصة لتفقد أحوال البعثة الطلابية التي تتابع دراستها بإيطاليا حسبما تؤكد هذه الإشارة الواردة في مذكرة أحد أعضاء هذه البعثة «وصل إلى إيطاليا وفد يترأسه عبد السلام برشيد الشاوي

73 - A. Laroui, op-cité, p219.

74 - Firch (R.J) : « Le Maroc, Ernest Leroux, Paris, 1895, p45.

75 - محمد الفاسي، مرجع سابق، ص23.

76 - جاك كايي، مرجع سابق، ص186.

77 - تتحدث عنه إحدى الوثائق السلطانية كأحد كبار خدام السلطان ومن سامي رحلاته، أنظر:

- وثيقة موجهة من السلطان المولى الحسن إلى الطريس بتاريخ 11-4-1888 الخزانة العامة بتطوان، محققة 7 رقم الوثيقة 28.

وذلك سنة 1892 بأمر من مولانا السلطان الحسن الأول (...). فلما وصل إلى مدينة ميلانو اتصل تليفونيا بمدير المدرسة وطلب منه أن يأتي مصحوبا بكافة الطلاب المغاربة (...). وزودنا قبل الاقتراق بـ «لويز» ذهبي لكل واحد منا، ورجعنا إلى أعمالنا وسافر السيد عبد السلام إلى ألمانيا⁽⁷⁸⁾. وعلاوة على هذا، فإن بعض البعثات الطلابية كانت ترافق السفارات الموفدة إلى أوروبا⁽⁷⁹⁾.

تأسيسا على كل ما تقدم نستنتج أن تقارير السفارات المغربية شكلت مصدرا داخليا من مصادر التفكير في توجيه بعثات تعليمية إلى أوروبا بهدف تحصيل العلوم التي كانت أساس ما عاينه هؤلاء السفراء ووصفوه من مخترعات ومبتكرات خاصة في صيغتها العسكرية.



78 - أحمد معنيو، "مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة"، (هو الحسين الزعري)، ضمن مجلة "دعوة الحق"، العدد الأول، السنة 12، نوفمبر 1968، ص145.

79 - CAILLE Jacques , « Les Marocains à L'école de génie de Montpellier 1885-1888 », Hesperis, vol. XLI, Année 1954, p132.

الفصل الثاني

مصادر خارجية

I) دور الحضور الأجنبي:

أكدت أغلب الدراسات التي تناولت موضوع الإصلاح في الأقطار الإسلامية عامة والمغرب خاصة، على دور القوى الأجنبية عبر ممثليها في الإقدام على مشاريع معينة، بهدف خدمة مصالحها والحفاظ على امتيازاتها، فالوثائق المغربية والأجنبية والمصادر المتنوعة لا تبخل على الباحث في هذا الصدد، لما توفره له من مادة غنية يعتمد عليها لإبراز الدور الأجنبي الذي اتخذ أشكالا متباينة تتراوح بين الإيعاز والمطالبة بإدخال بعض المشاريع التحديثية وأحيانا فرض بعض الإصلاحات بما كان يعنيه ذلك، من تناول على سيادة البلاد وتجاوز لصلاحيات السلطات⁽¹⁾.

كما تفاوت حجم هذا الدور بتفاوت حجم العلاقة و«الصداقة» التي كانت تربط السلطان وبعض مسؤولي الجهاز المخزني بهذه الدولة الأوربية أو تلك⁽²⁾، في شخص ممثليها الذين يكمن دورهم بالأساس

1 - كأمثلة على بعض الإصلاحات يراجع:

* ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص544.

محمد أمين البراز، المجلس الصحي الدولي بالمغرب (1792-1929)، رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب

والعلوم الإنسانية، الرباط، أبريل 1980.

LAROUÏ (Abd), op.cité, pp240-262.

MEGE (J.L), op-cité, T. III.

MAR CET (A) , Le Maroc : Voyage d'une mission française à la cour du sultan, Librairie PLON, Paris 1885.

2 - أشار مصطفى الشاوي في أطروحته أن بعض العائلات المخزنية كانت مرتبطة بدول أوربية معينة وتفضل نصائحها، فعائلة بركاش كانت مرتبطة منذ أمد طويل بإنجلترا غير أنه في أواخر القرن 19 أصبحت أكثر ارتباطا

في مد حكوماتهم بتقارير تطلعها على مستجدات الوضعية العامة بالبلاد، وإخبارها بإمكانيات التغلغل وفرص كسب مواطئ جديدة لتعزيز نفوذها بالمغرب.

غير أن تقرير هذا المعطى بنوع من العمومية يبقى من باب تحصيل الحاصل، إذ الموضوع في اعتقادنا يتطلب كثيرا من التحري ومعرفة مواقف كل القوى التي كانت فاعلة في الأحداث التاريخية التي عاشها المغرب في هذه الفترة الحاسمة، كما يقتضى ضرورة التمييز بين الإصلاحات التي كان الأجانب يرغبون في إدخالها قصد «تمدينه» وتغيير البنى الداخلية التي تعرقل كل عمل تحديثي من جهة، والإصلاحات التي كان السلطان مقتنعا بضرورة القيام بها من جهة ثانية⁽³⁾، مع ما اقترن بهذه القناعة من حرص شديد على الحفاظ على استقلال البلاد والوفاء للتقاليد والمقومات الإسلامية، ناهيك عن عدم ثقة السلطان بأية دولة أوروبية، وإدراكه للأهداف التي كان الممثلون الأجانب يرومون تحقيقها من وراء الإصلاحات المزعومة التي يوصون بها⁽⁴⁾، إضافة إلى وعره بالصراع الدائر بين الهيئات الدبلوماسية التي كانت ترعى مصالح الدول التي تمثلها في المغرب⁽⁵⁾.

كل هذا يفسر طابع الاحتراس والتردد الذي ميز السياسة الإصلاحية التي نهجها السلطان الحسن الأول، إذ كان على بينة من تحفظ الأمة إزاء كل أشكال التدخل الأجنبي، وموقف العامة الراض للاقتراحات

بألمانيا تمثلت في علاقة بركاش بالممثل الألماني Mentizugen بطنجة خلال المدة التي شغل فيها منصب عامل طنجة، أما عائلة الزبيدي فلم تكن تخفي ارتباطها لألمانيا، فيما مالت عائلة ابن سليمان وغريط إلى فرنسا أكثر من غيرها، في حين ارتبط المنهبي أكثر بإنجلترا وألمانيا.

Chapi (Mustapha), « Quelques grands Familles du Makhzen marocain au XIX siècle d'après Ibn Zaidane » thèse de doctorat 3ème cycle, Rabat 5avril 1973, p99.

أنظر أيضا:

Arnaud (Louis), « Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912 éditions Atlantides, Casablanca 1952, p57 et p99.

Guilen (Pierre), « L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905 », P.U.F, paris, 1967, p609 et p623.

3 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p264.

4 - Leroux (Charles), « Mission diplomatique Française à Fès » in Hesperis Tome 35, Année 1948, p232.

LAOUÏ (Abd), op.cité, p261.

5 - Miège (J.L), « Une mission Française à Marrakech en 1882 », p37.

الأجنبية، وهو رفض له مشروعيتها ومبرراته خلافا لما روجته بعض الكتابات الأجنبية من كونه راجعا لتعصب المغاربة وكراهيتهم المطلقة للأجانب، فالمصادر الأجنبية⁽⁶⁾، وحتى بعض النصوص المغربية⁽⁷⁾ حافلة بأحكام عديدة في شأن هذه المواقف.

إن الإصلاحات الموصى بها من قبيل الدول الأجنبية كانت ذات طابع اقتصادي ومرتبطة بها يضمن مصالحها الحيوية بالبلاد، وتوسيع استثماراتها، لذا نصادق في البرامج الإصلاحية التي اقترحتها القنصلة الأوروبيون إلحاحا على بعض القطاعات بالتحديد، وعلى الميادين التي يمكن لهذه الدول الاستفادة منها، كالمطالبة بإصلاح بعض الموانئ المغربية كميناء البيضاء وأسفي وطنجة، وإدخال التلغراف لتسهيل المبادلات بينها، وتأسيس دور ومتاجر للتجار الأوروبيين، وإلغاء قرارات منع المتاجرة ببعض المواد، وبناء الطرق وإنشاء سكة حديدية لتسهيل النشاط التجاري والتحكم فيه⁽⁸⁾. فغني عن البيان أن الإصلاحات كما أراد الأوروبيون صياغتها وإنجازها كانت تستهدف خلق شروط مواتية لضمان استغلال منظم وعقلاني لصالح الرأسماليين الأوروبيين. ولفائدة المؤسسات الاستعمارية، وتوفير قنوات مناسبة للربح الأجنبي.

غير أن إدخال مثل هذه الإصلاحات كانت تعني عند المغاربة مزيدا من التمازج بالأجنبي وما يترتب عنه، وتعزيز مصالح الأوروبيين

٦ - من هذه الأحكام نذكر على سبيل المثال وصف (أوجين أوبان) لسكان المغرب بكونهم "أشد الشعوب انغلاقا في الشمال الغربي الإفريقي".

Aubin (Eugène), Le Maroc d'Aujourd'hui, Armand Collin paris 1953, p155.

وقد كتب جان درموند هاي الداعية إلى الإصلاح في رسالة خاصة معلقا على وضعية اليهود بالمغرب ما يلي: "... وسوف يؤدي التقدم التدريجي للحضارة والتجارة، وزيادة نفوذ معتمدي الحكومات الأوربية إلى تحسن أحوال اليهود في تلك البلاد أفضل مما تؤدي إليه الإصلاحات الفجائية التي تفرض على شعب جاهل ومتعصب" نقلا عن: ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية في عام 1900، ترجمة ودراسة وتعليق د. يونان لبيب رزق، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1401981، ص232. ولنظر أيضا ما جاء في:

LUDOCV.IC (de Campou), un empire qui croule le Maroc Contemporain, Paris, 1886, p8. ERCKMAN (Jules), « Le Maroc Moderne Paris 1885, p229.

يراجع ما كتبه عبد الله العروي معلقا على هذه الأحكام.

7 - نقرأ في "الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية، مؤلفه العربي المشرق ما يلي: "...المغرب محتو على أوباش البربر وأجلاف العرب، إلا ما قل منهم (...) وهم على غاية التوحش وشدة النفور من هذه المخترعات التي لم يألفوها ولا رأوها قط..."، مخطوط خ.ع.ر. رقم 1463، ص420.

8 - Miège (J.L.), op.cité, III, p216.

وامتيازاتهم، لهذا واجهوها بالرفض الذي عبرت عنه فئة العلماء⁽⁹⁾، باعتبارها الفئة المتحدة باسم مصالح الأمة مثل قول الناصري «...وفي هذه المدة وقد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للأجناس مثل باشدور الفرنسيين والإصبنبول والبرتغال وغيرهم، وتكلم الفرنسيين في شأن بآبور البر والتلغراف، وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك، نفعا كبيرا للمسلمين والناصرى وهو والله عين الضرر، وإنما النصارى جربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكتب كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم»⁽¹⁰⁾.

إن الحديث عن هذه الإصلاحات المزعومة يدفعنا إلى التساؤل حول ما إذا كانت فكرة إرسال البعثات الطلابية إلى الخارج قد تبناها السلطان الحسن الأول بايعاز أو اقتراح من إحدى الدول الأوروبية.

لا نجد في الوثائق والنصوص التي تم اعتمادها اقتراحا مباشرا من أية جهة أجنبية على السلطان بإيفاد البعثات، باستثناء ما جاء في البرنامج الإصلاحي الذي اقترحه القنصل البريطاني (جان دريموند

9 - ألف بعض العلماء خطبا وفتاوى وتأليف يدعون فيها الشعب، إلى الامتناع عن الاختلاط بالأجانب والتعامل معهم، مؤكدين على الأضرار الناتجة عن ذلك، من الوجهة الشرعية والخلقية والاقتصادية والسياسية، تكفي الإشارة على سبيل المثال لا الحصر إلى عناوين موحية لبعض المخطوطات.

* المغيلي محمد بن عبد الكريم، جواب على سؤال فيها يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، ومما جاء فيه قوله: «لا يحل للمسلم أو يوكل كافرا على مسمرة أو بيع أو شراء أو صرف لأن لله تعالى في ذلك حقوقا أوجب علينا القيام بها...».

مخطوط خ.ع.ر ضمن مجموع يحمل رقم: 2013، صفحاته 379-365، ص 371.

* محمد إبراهيم السباعي، سؤال كشف النور عن حقيقة أهل بصور، مخطوط خ.ع.ر رقم د 1326، يراجع ما كتبه حول هذه الموافق:

محمد المنوني، مظاهر بقطة المغرب الحديث، ج 1، ص 334-326.

ادمون بورك، العلماء المغاربة في 1912-1860، تعريب محمد بن عبود، عبد العزيز سعود، مجلة البحث العلمي العدد 31، السنة ذو الحجة 1400هـ/أكتوبر 1980، ص 132.

محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب، على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977، ص 395.

10 - الناصري، الاستقصا، ج 9، ص 187.

وهو نفس الموقف الذي سيعبر عنه من بعد السليماني بقوله: "...أرى دول الاستعمار في هذا الزمان مهما عمروا بلادا ونزلوا بساحتها بنوا فيها الأمانة واستنجموا خيراتها وربطوا بين مدنها أسلاكها لتغرافية لجلب الأخبار وفتحوا طرقا جادة مرصفة للمارة والعربات والمركبات وغيرها، وبنوا على جميع الأنهار ومجاري المياه والشعاب جسورا في غاية الإتقان محكمة البناء (...) إلا أنهم مع هذا كله يشيئون إلى هذه الأعمال المفيدة بنشر مفاسدهم بين العامة (...) زد على هذا منازعة الوطني في موارد رزقه ومواجهته في ساحة بيته يخاد عونته بزجرهم ويبهرونه بهجرهم حتى يستولوا على بلاده ويعمدوا إلى إفساده".

أبو عبد الله السليماني، اللسان المغرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، الرباط،

1391هـ/1971م، ص 171.

هاي) على الحسن الأول سنة 1875، حيث تضمن في آخر محاوره، بعد التأكيد على الإصلاحات ذات الطابع الاقتصادي اقتراحات تقضي بتكوين مجموعة من الشبان المغاربة لإعداد أطر تسند لها مهمة تطبيق إصلاح البنيات الإدارية بالمغرب⁽¹¹⁾.

بل على العكس من ذلك، يستنتج من بعض النصوص المتأخرة أن مسألة تحصيل العلوم الحديثة لم ترد قط ضمن اقتراحات و«نصائح» الدول الأجنبية، بل تغافلها، حسبما يبرزه المشرقي في انتقاده للاقتراح الإنجليزي على السلطان مولاي عبد العزيز والقاضي بإصلاح جباية الضرائب (ترتيب 1901) حيث يقول معقبا «...ولو أرادت (يقصد إنجلترا) النصيحة الحقيقية دون دسياسة لإشارات عليها بإدخال العلوم الرياضية لوطنها وبناء المدارس لقراءتها وتدريسها، والاجتهاد في تحصيلها وبثها في المدن والقرى حتى يتأدب الجاهل ويستأنس المتوحش فتكتسب الدولة حينئذ رجالا يدافعون عنها بما علموه من العلوم الرياضية»⁽¹²⁾.

كما يستفاد مما ورد في بعض المصادر، أن إرسال البعثات استهدف بالذات، التخلص من النفوذ الأجنبي، ومباشرة الإصلاحات اعتمادا على أطر مغربية، إذ كان السلطان الحسن الأول يعقب دوما على الاقتراحات الأجنبية بـ «أن الحكومة المغربية مقتنعة بضرورة إدخال التنظيمات العصرية للمغرب، ولكنها مقتنعة أيضا بأنه يجب أن تكون اليد المتصرفة والمنظمة لهذه الإصلاحات هي اليد المغربية»⁽¹³⁾ فضلا عن كل هذا فإن الأوروبيين كانوا يفضلون أن يتعاملون مع مخزن ضعيف. وظلوا يعارضون طيلة القرن التاسع عشر كل إصلاح حقيقي هادف للنهوض بالشعب المغربي⁽¹⁴⁾.

غير أن هذه الشهادات لا تنفي دور بعض الوقائع التي كانت مرتبطة بالحضور الأجنبي في خلق هذه المبادرة الإصلاحية. فمما

11 - محمد أبو طالب، "مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر"، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 9، ص 300.

12 - محمد المشرقي، الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية، مصدر سابق، ص 421.

13 - محمد بن عبد السلام بن عبود، تاريخ المغرب، الجزء الأول، دار الطباعة، تطوان الطبعة الثانية 1957، ص 98.

14 - غلال الخديجي، مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية بالمغرب سنة 1905، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص 292.

لا شك فيه أن تكوين أطر مغربية على الأساليب الحديثة في الميدان الحربي وغيره، كان يندرج ضمن الإصلاحات التي رغب السلطان القيام بها، إلا أن علم الممثلين الأوربيين بهذه الرغبة جعلهم يعملون على عدم تقويت أية فرصة لاستعراض ما بلغته دولهم من تقدم في الميدان العسكري والتقني من تنظيمات حديثة وآلات عصرية، بهدف احتواء هذه الرغبة وتوجيهها وجهة تخدم مصالحها، كالاتجار في بيع الأسلحة، فضلا عما يصحب ذلك من تعزيز لموقع ونفوذ هذه الدولة أو تلك في المغرب، من هنا كان مآزق الإصلاح الرسمي في منتصف القرن التاسع عشر، الذي يجد تعبيره في الدوامة التي وجد فيها المخزن والمتمثلة في التناقض التالي: لم يكن بمقدور المخزن مقاومة الضغوط التي تمارسها الدول الأجنبية الأوربية إلا بتقوية جهازه الدفاعي وإصلاحه، ولم يكن بالإمكان تحقيق هذا الإصلاح إلا باللجوء إلى أوروبا والاستعانة بخبراتها⁽¹⁵⁾.

من هذه الزاوية يمكن تقدير دور التدخل الأجنبي كمصدر خارجي في الإقدام على هذا الإصلاح موضوع الدراسة.

وتمدنا بعض المصادر المغربية والأجنبية بشهادات دالة على قناعة السلطان محمد بن عبد الرحمان بإدخال إصلاحات للنهوض بالبلاد إثر هزيمة تطوان، تمثلت في تبنيه عدة مشاريع شملت ميادين مختلفة نذكر منها على الخصوص، إنشاء معمل للسكر بمراكش قرب أكادال⁽¹⁶⁾ كما أمر بزراعة مساحات كبيرة لقصب السكر⁽¹⁷⁾، كما يستفاد من بعض الوثائق محاولته إنشاء مصنعين للقطن أحدهما بمراكش⁽¹⁸⁾ والآخر بالرباط⁽¹⁹⁾، واهتمامه بتحصين السواحل وتزويد الموانئ بالمرافق الضرورية⁽²⁰⁾، إضافة إلى جهوده الرامية إلى تنشيط التبادل التجاري

15 - JULIEN (Charles André), « Hassan Ier et la crise marocaine au XIX siècle, in les AFRICAINS, tome III éditions J.A.P245.

يراجع ما كتبه عبد الله العروي حول أزمة الإصلاح الرسمي وتنافضاته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

16 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص566.

17 - أكسوس المراكشي، الجيش العرمرم الخماسي في أولاد مولانا علي الشريف السجلماي، الجزء الثاني مخطوط خ.ع. رقم 965، ص80.

18 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص560.

19 - نفسه، ص564.

20 - Miège (J.L.), op.cité, TIII, p114.

بتسهيل المواصلات، تمثلت في استيراد قنطرة حديد من إنجلترا قصد ربط مدينتي الدار البيضاء والجديدة عبر وادي أم الربيع⁽²¹⁾.

غير أن السلطان محمد بن عبد الرحمان الذي خاض معركة إيسلي بصفته قائدا للجيش، والذي بدأ عهده بهزيمة تطوان، حرص أكثر على إصلاح الجيش بإعادة هيكلته وتنظيمه على النمط الحديث⁽²²⁾، وهو عمل كان قد شرع فيه أيام خلافته عن ولده بعد عودته من إيسلي⁽²³⁾ وواصله بعد توليه مقاليد الحكم، فكان أول سلطان مغربي سابقا لهذه المبادرة⁽²⁴⁾.

وإذا كانت هذه المشاريع المتواضعة قد كلفت المخزن أموالا باهظة⁽²⁵⁾، في وقت كانت الخزينة شبه فارغة⁽²⁶⁾، فإنها لم تحقق النتائج المتوخاة منها، فضلا عن إخفاق بعضها قبل إنجازها وتوقف بعضها الآخر⁽²⁷⁾.

على أن أهم ما يستوقف الباحث في هذه المشاريع الإصلاحية هو الاعتماد الكلي في إنجازها على الخبرة الأوربية التقنية والبشرية وذلك لعدم توفر المغرب على أطر وطنية مؤهلة للاضطلاع بمثل هذه المهام⁽²⁸⁾، وهو الهدف الذي توخى السلطان الحسن الأول تحقيقه من وراء إيفاد البعثات.

21 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص563.

- Miège (J.L), op.cité, TIII, p114

22 - محمد بن الأعرج السليمان، زبدة التاريخ وزهرة الشمايخ، ج2، خ.ع.ر رقم د 3657، ص342.

Godard (ML) : « Description et histoire du Maroc, Paris 1860, p141 et p145.

23 - الناصري، الاستقصا، ج9، ص101.

ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص567.

24 - Lahbabi (Mohamed), « Le Gouvernement Marocain à L'aube du XIX siècle éditions techniques Nord Africains, Rabat 1958, p164.

ويستنبط مما أورده ابن زيدان في بعض تأليفه وكذا غيره أن السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام كان أول من حاول تجديد تنظيمات الجيش المغربي وفق النمط التركي، مستندا هذه المهمة إلى عامله أشعاش وأزطوط، لكنه أبطل العمل بذلك. أنظر:

ابن زيدان، الإتحاف، ج5، ص77 و ص238-239.

ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج2، المطبعة الملكية الرباط 1962-1382، ص ص215-214.

محمد الحجوي، اختصار الابتسام. مخطوط خ.ع.ر ضمن مجموع رقم ح 144، ص417.

25 - الناصري، الاستقصا، ج9، ص127.

26 - نعيمة التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان المولى الحسن 1873-1894، مطبعة فضالة، الرباط 1979، ص35.

27 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص563 و ص566.

28 - Miège (J.L)n op.cité, T III, p119.

فمثلا، فقد تم تجهيز معمل السكر بالجوز بآلات إنجليزية وأشرف على إنجازه المهندس (جون كلاركسون غي)⁽²⁹⁾، وفي ميدان الأشغال العمومية ورد على المغرب مهندسون أوروبيون لخدمة الطرق والمراسي⁽³⁰⁾، أما في مجال إصلاح الجيش، فقد اعتمد المولى محمد بن عبد الرحمان على خدمات بعض العلوج وأبرزهم (عبد الرحمان السولتي Abderhman Desaulty)⁽³¹⁾، الذي سيكون ابنه أحد أعضاء البعثة الطلابية الموجهة إلى مونبوليه⁽³²⁾. وفي عهد السلطان الحسن الأول الذي واصل أعمال الإصلاح التي شرع فيها أبوه ازداد حجم الاستعانة بالخبراء الأجانب⁽³³⁾ وتمشيا مع سياسته الرامية إلى حفظ التوازن بين الدول الأوربية تجنباً للوقوع تحت هيمنة دولة واحدة⁽³⁴⁾.

عمل الحسن الأول على استقدام خبراء ومدرسين من مختلف الأجناس حيث تم الاعتماد على مدرّبين عسكريين فرنسيين وإنجليز وتقنيين إيطاليين ومهندسين ألمان لتدريب جنوده على العمليات العسكرية الحديثة وتوعيدهم على استعمال الأسلحة المستوردة من أوروبا وإصلاح الشواطئ وتحصين الثغور.

وكان طبيعياً أن تتسابق الدول الأوربية نحو وضع خبرة أطرها رهن إشارة السلطان بغية كسب نفوذ داخل الجهاز الحاكم والحصول على معلومات سياسية من «المصادر الموثوق بها»، وذلك في نطاق التنافس التقليدي للدول الأوربية داخل المغرب، حيث كانت كل دولة تحرص جاهدة على الحصول على ما حظيت به غيرها⁽³⁵⁾.

29 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص 563-560.

فرناند ويلديرا مام تيتيث، خواكين غاثيل رحالة المغرب، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954، ص125.

30 - محمد أبو طالب، مرجع سابق، ص 304-303.

31 - Charmes (Gabriel) ، « Une Ambassade au Maroc », Paris 1887, p217.

CAILIE (Jaques) : « La véritable histoire de l'ingénieur Abder-Rahman Desaulty », in Hesperis, T.XXXVI, 3-4e trimestre Année 1949, p460.

32 - Martinière (Henri Bela) ، « Souvenirs du Maroc, voyages et missions 1882-1918 », paris 1919, pp184-196.

33 - ابن زيدان، العز والصلوة...، مرجع سابق، ج2، ص207.

34 - ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، أبريل 1985، ص64.

35 - ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر مساهمة في دراسة الإصلاحات العسكرية، أطروحة نيل دكتوراه السلك الثالث، الرباط 1984، خزانة كلية الآداب بالرباط، ص323.

هكذا بدأ توظيف بعض الخبراء الأوربيين بصفة شخصية وحسب عقدة مع المخزن خلال مدة معينة، كالبليجيكي (كرينار Grinard) الذي كلف بعمل القرطوس بمراكش، وتم الاتفاق مع البريطانيين (دونالد وماك هوك Donald et Mac Hugh) ليتكفوا بمدفعية طنجة، كما تم جلب خبير من جبر طارق وهو (إدوار سيلفيا Eduard Silvia) (36).

على أن الأمر لم يعد مقتصرًا على الاعتماد على خبرات فردية فحسب، بل تعداه إلى استقدام بعثات عسكرية أوربية بكاملها بدأت تقد على المغرب، وكانت أول بعثة هي البعثة الفرنسية التي شكل مجيئها سنة 1877⁽³⁷⁾ موضوع اعتراف من طرف ممثلي حكومات لندن ومديريد وبرلين، الذين حاولوا إقناع السلطان الحسن الأول بالتراجع عن قرار موافقته على مجيء هذه البعثة وخطورة أبعاد هذا الإجراء، مع سعيهم في ذات الوقت للحصول على نفس الامتياز⁽³⁸⁾ وفعلًا قبل مجيء بعثات من دورهم حفاظًا على توازن القوى الأوربية بالمغرب واستغلالًا لتناقضات مصالحها.

والجدير بالإشارة أنه في الوقت الذي تمكنت كل الدول الأوربية من إرسال بعثات عسكرية، وحصلت على الاعتراف بها رسميًا من طرف السلطان، تفيد إحدى الوثائق استغناء المخزن عن خدمات حراب كان قد قدم من مصر في بداية العهد الحسني. وإذا كانت الوثيقة لا تفصح عن أسباب هذا الاستغناء، فالراجع أن ذلك حدث بإيعاز من المستشارين الأجانب الذين كانوا يعملون على عرقلة أي تعاون بين المغرب والأقطار الإسلامية، وفي مقدمتها خديوية مصر والإمبراطورية العثمانية⁽³⁹⁾.

36 - Miège (J.L) op.cité, TIII pp 226-227.

37 - Erkman (Jules), op.cité, pp200-2001.

Miège (J.L), « Une Mission Française à Marrakech », p394.

Callie (J), « Quelques renseignements sur le capitaine ERKMAN » in Hesperis, tome XLI, année 1954, 3-4 trim, p468.

38 - Guillen (P), op-cité, p80.

39 - رسالة من الوزير محمد بن العربي الجامعي إلى الأتماء محمد بن المديني بنيس بتاريخ جهادي الأولى عام 1241/29 يونيو 1874 أوردتها مجلة الوثائق، مجموعة دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط، الجزء 3، ص 411-410.

واستنادا إلى التقارير والمصادر الأجنبية ذاتها⁽⁴⁰⁾، لم يعد خافيا الدور الحقيقي الذي كان منوطا بهذه البعثات التي تحولت إلى «جماعات ضغط» داخل الجهاز الحاكم «وطابور خامس» حيث كان أعضاء كل بعثة يحرصون على جمع معلومات تخص الحالة السياسية والعسكرية التي تمر منها البلاد من جهة، وجمع معلومات تهم تحركات ونشاط البعثات الأخرى لمعرفة مدى نفوذها لدى السلطان من جهة ثانية، وتبعث حصيلة هذه المعلومات في شكل تقارير شهرية إلى وزارة الدفاع في بلادها⁽⁴¹⁾.

وإدراكا من السلطان الحسن الأول بمحدودية النتائج التقنية لخدمات البعثات⁽⁴²⁾ وخطورة دورها السياسي⁽⁴³⁾ سعى بدون نتيجة إلى التخلص من هذه البعثات والاستغناء عن خدماتها⁽⁴⁴⁾، وهو نفس الموقف الذي سيعبر عنه العلماء بإلحاح في وقت لاحق رادا على المشروع الفرنسي الذي قدمه السفير الفرنسي (سان روني طابندي St René Taillandier) إلى السلطان المولى عبد العزيز أوائل سنة 1905⁽⁴⁵⁾، حيث ندد علماء فاس بسياسة استخدام المخزن لمستشارين أوروبيين في قطاع الجيش والإدارة وطالبوا بإبعاد البعثات العسكرية الأوروبية وتعويضها بخبراء مصريين وأتراك⁽⁴⁶⁾.

40 - يراجع على سبيل المثال:

Doutte (Edmon) : « Des moyens pour développer l'influence française au Maroc première partie, Analyse générale d'influence paris 1909.

Taillandier (S.R), « Les origines du Maroc Française 1901-1906, paris 1903.

Miège (J.L) op.cité, THII pp233-234 et T.IV, pp 107-109.

41 - كنموذج لهذه التقارير.

42 - Frisch (R.J) : « Le Maroc, géographie-organisation politique Ernest le Roux , PARIX 1895 1895, p195.

ثريا برادة، مرجع سابق، ص216.

43 - ابن زيدان، العز والصلوة، مرجع سابق، ج2، ص207.

LAHBABI (Moh), op-cité, p169.

44 - ابن زيدان، العز والصلوة، مرجع سابق، ج2، ص207.

45 - France : « Documents Politiques-Affaires du Maroc, 1901-1905, vol.1.

46 - أنظر مضامين فتوى علماء فاس، ومما جاء فيها: "...في أي شيء نفعلنا هؤلاء الأجانب، وما هي العلوم الجديدة التي علموها لنا، وما هي الفائدة التي استفدناها منهم، لقد صرفنا عليهم ثرواتنا وقد خدعونا ونشروا بيننا الفساد..."

Archives Marocains, Tome3, Année 1905, pp141-143.

وانظر أيضا: ادموك بورك، مرجع سابق، ص135.

وليس من شأننا تفصيل الحديث عن ملابسات مجيء هذه البعثات وتنافسها، والأبعاد الخطيرة التي ترتبت عن مثل هذا التدبير، إنما القصد من خلال هذه الوقفة القصيرة هو تقدير الدور الأجنبي كمصدر خارجي لفكرة إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا.

لقد كان ممثلو الدول الأوروبية يحرصون كل الحرص على عدم تقويت أية فرصة من شأنها أن تكسب لدولهم حظوة لدى السلطان، وتضمن ثقته بهدف تعزيز نفوذها داخل الأوساط المخزنية، وجمع الأخبار من مراكز التقرير⁽⁴⁷⁾.

وعليه نعثّر في بعض الوثائق الأجنبية على معلومات تتعلق بالتدابير التي يعتمزم السلطان القيام بها، حيث تتحدث بعض التقارير عما يروج في أوساط المخزن من أخبار تفيد رغبة السلطان في إرسال بعض الشبان المغاربة ليخضعوا لتكوين حديث في العلوم العسكرية والتقنية وغيرها بالمعاهد المتخصصة في الدول الأوروبية، ففي أحد هذه التقارير يخبر الكومندار (فالوا Vallois) حكومته أن السلطان الحسن الأول عازم على إرسال شبان مغاربة إلى مدينة سيرن Seraing ومدينة لياج Kiège ببلجيكا ليتدربوا على صنع أنواع الأسلحة، وأن ابن بركاش الذي سيغادر المغرب في اتجاه أوروبا هو الذي سيتكلف بمرافقتهم، وسيعودون بعد قضاء بضعة شهور ببلجيكا، ثم يضيف معلقاً أن المخزن يعتقد أن هذه المدة التي يستغرقها تكوين هؤلاء المغاربة كافية لتجعل المغرب مكتفياً بذاته، وبالتالي مستغنياً عن اعتماده على أوروبا⁽⁴⁸⁾.

وفي تقرير موال يؤكد أن عزم السلطان قد دخل حيز التطبيق وأن بعثة ثانية على أهبة السفر إلى بلجيكا، «...لقد غادر المغرب منذ بضعة أيام خمسون شاباً كنت قد أشرت إلى عزم السلطان على إرسالهم إلى بلجيكا في تقرير السابق عن هذا، ويوجد هنا (يقصد مكناس) عشرون شاباً على استعداد للتوجه إلى مدينة إيس كما يشاع»⁽⁴⁹⁾.

47 - Miège (J.L.) n op.cité, T III, p233-234.

48 - من وثائق وزارة الحربية بفانسان.

A.G.V-Rapport du C. vallois, n° Meknès, le 1er Mai 1884, p5.

49 - من وثائق وزارة الحربية بفانسان.

A.G.V-Rapport du C. vallois, n° Meknès, le 10 Juin 1884, p3.

لقد كان من أخطر المهام التي أوكلت إلى هذه البعثات متابعة نشاط بعثات الدول الأخرى وعرقلة نشاطها لتحظى بمكانة إلهها لتوطيد علاقاتها بالمخزن أكثر من غيرها. من هنا نفهم ما تضمنته الوثائق الأجنبية من إشارات ومعلومات تخص مستوى علاقة سلطان بهذه الدولة أو تلك، ودور بعض الشخصيات المخزنية في تفصيل الارتباط بهذه الدولة الأوربية عن غيرها. ففي تقرير رفع إلى وزارة الشؤون الخارجية ببلجيكا نقراً ما يلي: «...إن سلطان المغرب قد طلب من الحكومة الإنجليزية الإذن بإرسال مائة من خيرة جنوده إلى جبل طارق ليتدربوا هناك على الحركات الحديثة واستعمال الأسلحة وذلك بهدف أن يصبحوا بعد عودتهم مدربين في الجيش المغربي»⁽⁵⁰⁾.

وحول البعثة التي توجهت إلى ألمانيا، يتضح من خلال ما أوردته بعض التقارير الفرنسية أن ابن سيدي محمد بركاش الذي كانت تربطه علاقات قوية بألمانيا لا يخفى على أحد، هو الذي كان وراء إقناع السلطان بإيقاد الطلبة المغاربة للدراسة بالمدرسة العسكرية ببرلين⁽⁵¹⁾.

لقد كان هدف أعضاء البعثات العسكرية من حرصهم الشديد على معرفة التدابير المزمع القيام بها من طرف السلطان، تضمنينها في تقاريرهم هو حث حكوماتهم أن تبادر بتقديم خدماتها حتى لا تترك الفرصة لدولة أخرى أن تقوي بواسطة هذه الخدمات ارتباطها بالمخزن وتكسبها امتيازات جديدة.

يؤكد ذلك ما جاء في بعض المصادر الأجنبية، فند كتب إدمون دوتي ما يلي: «إن مسألة تصدير الأسلحة إلى السلطان يجب أن تستأثر باهتمام ضباط البعثة، إننا لم نُبِعْ إلا قليلا من العتاد الحربي بالقياس إلى ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا، والتي لم تكن مسلحتها في مستوى تقديم فكرة عالية عن النية الحسنة لأوروبا اتجاه المغرب...»⁽⁵²⁾.

50 - من وثائق وزارة الخارجية البلجيكية بروكسيل.

A.E.B. Rapport du 12-8-1877, Bruxelles.

51 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، باريس.

A.E.P - C.P Maroc, N° 26 Rapport. Tanger le 8 juin 1884 vol 48.

A.E.P - C.P Maroc, N° 46 Rapport. Tanger le 3 Octobre 1884 vol 49.

52 - DOUTTE (Edmond), op-cité, p57.

بناء على مجموع الإشارات التي تآتى الإطلاع عليها في بعض التقارير الأجنبية، لا يستبعد أن بعض أعضاء البعثات العسكرية الأوربية، خصوصا أولئك الذين كانت تربطهم بالسلطان علاقات شخصية مباشرة، قد اقترحوا بعد علمهم برغبة السلطان في تكوين شبان مغاربة تكوينا حديثا على النمط الأوربي، أن تكون معاهد دولتهم هي المستضيفة لهؤلاء الشبان. ولعل في مثال البعثة الطلابية الموجهة إلى إنجلترا، والجنود الذين تدريبوا بجبل طارق ما يرجح صحة هذا الاستنتاج، حيث تمدنا بعض الوثائق الإنجليزية بإفادات دالة على أثر هذه البعثات العسكرية الأجنبية والممثلين الأوربيين في تزكية رغبة السلطان ونصحه بمواصلة إيفاد مغاربة ليتخصصوا في مختلف الفنون الحربية والمدنية.

فمن المعلوم، أن القنصل البريطاني جان دريموند هاي كان من أكثر القناصلة الأوربيين احتكاكا بالمخزن على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، ومن بعده الحسن الأول، وبمجرد ما تعرف على الأوساط المغربية وخصائص وضعية البلاد، أخذ يقدم الاقتراحات تلو الأخرى بخصوص إصلاح شؤون الجهاز المخزني⁽⁵³⁾. إذ أتيحت له الفرصة أن يعرض برنامج الإصلاح في عدة مناسبات، يهمنها منها اللقاء الذي جمعه مع السلطان الحسن الأول في مارس، أبريل عام 1875، ومن الأهمية أن نشير إلى أن القنصل البريطاني قد كان في لقائه هذا مرفوقا بثلاثة ضباط وثلاثة مهندسين عسكريين قدموا من جبل طارق، وذلك لشرح طريقة اشتغال آلتى لبث البرقيات كان قد حملهما معه كهدية من وزارة الحربية البريطانية إلى السلطان المغربي⁽⁵⁴⁾، حيث تتحدث بعض المصادر الإنجليزية أن قرار السلطان بإرسال عدد من الجنود المغاربة النظاميين إلى جبل طارق للتدريب على الطريقة الإنجليزية جاء نتيجة إعجابه وتأثره البالغ بمظهر المهندسين العسكريين الثلاثة الذين رافقوا (هاي) خلال زيارته هاته⁽⁵⁵⁾.

وفعلا، تؤكد الوثائق المغربية من جهتها أنه بدأ الشروع في توجيه جنود مغاربة على دفعات، وكانت أولاها قد غادرت طنجة في 13 نوفمبر

53 - محمد أبو طالب، مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر، ص 300.

54 - ب. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية في عام 1900، ص 240.

55 - نفسه، ص 243-244.

عام 1876 كان من أعضائها شاب راغب في تعلم الطب⁽⁵⁶⁾ كما سيأتي تفصيله فيما بعد.

أما بخصوص البعثة الطلابية التي قصدت الديار الإنجليزية، فيستنتج أيضا من بعض الوثائق الإنجليزية ما يؤكد دور الحضور الأجنبي في الدفع بهذه المبادرة، ذلك أنه لما علم القنصل البريطاني من بعض الشخصيات المخزنية أن السلطان عازم على تحديث جيشه باتخاذ جملة من الإجراءات على رأسها إرسال طلبة مغاربة لتعلم الفنون العسكرية الحديثة⁽⁵⁷⁾، بادر هذا الأخير ببعث رسالة (15 يونيو 1875) إلى وزير الخارجية البريطانية (اللورد دربي) يخبره فيها بعزم السلطان على إرسال ثلاثة من الشبان المغاربة للدراسة في ساندهرست والأكاديمية العسكرية في ولويش⁽⁵⁸⁾. وكان طبيعيا أن يأتي رد الوزير إيجابيا حيث عبر في رسالته الجوابية على (هاي) عن استعداد إنجلترا لاستقبال البعثة الطلابية بكل ترحيب⁽⁵⁹⁾.

يتضح مما سبق، أن الدور الأجنبي وإن لم يكن وراء خلق هذه المبادرة، فقد عمل على محاولة تبنيها، لذا ليس صدفة أن تتوجه البعثات التعليمية إلى كل الدول الأوروبية التي كانت ممثلة في المغرب بقناصل وخبراء وبعثات عسكرية، وبالتالي فإن تنويع معاهد تكوين الطلبة المغاربة من إنجليزية وإيطالية وفرنسية وألمانية وبلجيكية وإسبانية، جاء نتيجة لتنافس الدول الأوروبية حول كسب صداقة السلطان وثقته، بالتسابق نحو وضع خبراتها وخدماتها رهن إشارته من جهة، وتماشيا مع سياسته الرامية إلى حفظ التوازن بين القوى الأجنبية بالمغرب⁽⁶⁰⁾، واستغلال هذا التنافس بما يخدم مصلحة البلاد من جهة ثانية.

وتبقى الإشارة أخيرا إلى أن فكرة إرسال البعثات إلى البلدان الأوروبية قصد اكتساب الخبرة العلمية والعسكرية كان من أهدافها المركزية توفير أطر مغربية بديلة للأطر الأجنبية التي كانت تمارس الوظائف الحيوية في البلاد، ومن بينها أعضاء البعثات العسكرية

56 - نفسه، ص. 243-244.

57 - ب.ر. ووجز، مرجع سابق، ص 242 و 248.

58 - نفسه، ص 243.

59 - نفسه، ص 243.

الأوربية، خصوصا إذا علمنا أن السلطان الحسن الأول كان قد قبل على مضض مجيء هذه البعثات⁽⁶¹⁾.

كما يلاحظ أن مواصلة إيفاء البعثات الطلابية واكبت جهود السلطان ومحاولاته الساعية إلى التخلص من البعثات الأجنبية حيث ظل إلى حدود وفاته يطالب بسحبها⁽⁶²⁾.

(2) أثر تجربة محمد علي بمصر

ما تزال التجربة الإصلاحية التي قادها محمد علي في مصر⁽⁶³⁾، تشد اهتمام المفكرين من مختلف التخصصات والتوجهات العلمية والإيديولوجية، تمثل من منظور كل منهم ما يتغنى به، فجاءت تقويمات هذه التجربة متباينة بل ومتعارضة أحيانا إلى حد كبير، وليس من موضوعنا المساهمة بوجهة نظر حول هذه التجربة، وإنما اقتضى مسار البحث عن بواعث ومنشأ فكرة إرسال البعثات الطلابية على عهد السلطان الحسن الأول، ضرورة تخصيص وقفة للتأكد حول مدى صحة أو خطأ افتراض تجربة محمد علي كمصدر فاعل في خلق هذه المبادرة الإصلاحية⁽⁶⁴⁾.

ولعل ما يبرز مشروعية طرح هذا الافتراض هو ما كان لإصلاحات محمد علي من أثر بين على ظهور أو دعم العديد من الحركات الإصلاحية هنا وهناك عبر أنحاء العالم الإسلامي، فهل كان السلطان الحسن

61 - Guillén (P), op.cité, p80.

62 - ابن زيدان، العز والصلوة، مرجع سابق، ج2، ص. 210-209.

- ابن زيدان، الإتحاف، مرجع سابق، ج2، ص 494.

DOUTTE (Ed), op.cité, p55.

63 - راجع على سبيل المثال لا الحصر:

-عبد الرحمان الرافعي، عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951.

-ألبرت جوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1789-1939، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة، بيروت 1977.

-أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي دار النهضة المصرية، القاهرة 1937.

64 -أنظر ما كتبه د. معن زيادة عن إشعاعات التجربة المصرية في بلاد الشام وتونس.

-معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1987، ص173 وما بعدها.
وقد كتب أحد المهتمين بموضوع الإصلاحات في تونس في القرن 19 معلقا على إصلاحات أحمد باي (-1837-1855) ما يلي: "...إذا ما تساءلنا عن أسباب إصلاحات أحمد باي بتونس وجدنا أن مصدرها مزدوج فهي من ناحية تقليد لما أنجزه محمد علي بمصر ومحمود الثاني بتركيا ومن ناحية أخرى رد فعل عن الأخطار التي أخذت تحديق بالبلاد التونسية مع الوضع الجديد التي أحدثته قفزة أوروبا إلى الأمام". محمد الهادي الشريف، مشكلة الإصلاحات بتونس.

الأول على علم بإصلاحات محمد علي التي كان من أبرز معالمها إيفاد مجموعة من الشبان المصريين من مختلف البيئات العلمية ومن مختلف الأعمار إلى دول أوربا ليتخصصوا في مختلف الفنون الحربية والمدنية والطبية والصناعية⁽⁶⁵⁾. وإلى أي حد يمكن اعتبار إقدام الحسن الأول على خطوة مماثلة تقليدا أو استرشادا بمبادرة محمد علي؟

لقد ذهب أكثر من باحث إلى أن المغرب كان إلى حدود أواسط القرن التاسع عشر مغلقا في وجه التيارات الفكرية والحضارية الخارجية⁽⁶⁶⁾، يعيش في عزلة تامة⁽⁶⁷⁾ فرضها على نفسه تحت ضغط عدة عوامل كان في مقدمتها حرصه الشديد على المحافظة على استقلاله. وإذا كانت سياسة الاحتراز والحذر الشديد لم تقلح في إيقاف الخطوات الأولى للتغلغل الاستعماري⁽⁶⁸⁾، فإنها حالت دون مواكبة التطورات الجارية في العالم الأوربي والإفادة من علومه وتجاربه⁽⁶⁹⁾، على أن المغرب -في نظر بعض الدارسين- لم يكن منعزلا؛ فحسب؛ عن أوربا التي كانت مناوراتها ومطامحها الاستعمارية غير خافية، بل كل منعزلا أيضا عن الشرق العربي الإسلامي الذي كان يشهد وقتئذ بدايات النهضة المتمثلة في بروز بعض الدعوات والحركات الإصلاحية المتباينة الاتجاهات، لقد كان المغرب «بعيدا

65 - أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، ص 423.

Iskandar Assabghy : « Les Missions Scolaires au temps de Mohamed Aly, in revue des conférences Françaises en Orient, publication Mensuelle, n° 11, 9ème année, Novembre 1945, le Caire Egypte, pp651-660.

66 - كتب ليفي بروفنصال بصدد هذه العزلة ما يلي: "أن الظروف التاريخية منذ القرن السادس عشر جعلت المغرب ينغلق داخل حدود مقفلة تماما فأوقف المؤرخون وأدباؤه بدورهم نظرهم عليها ولم يتجاوزها". ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرق، تعريب عبد القادر الخلافي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1397/1977، ص 277.

67 - محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص 464.
LUDOVIC(Decampou), op-cité, p4.

68 - تتحدث بعض المصادر المغربية عن شعور المغاربة بنوع من القلق اتجاه تصاعد نشاط الأساطيل الأوربية بالمغرب، فالضعيف ينقل لنا أن سكان الشمال أبدوا قلقهم من هذا النشاط وطالبوا علماء فاس بالتدخل لدى السلطان ليسمح لهم بحمل السلاح وشراء البارود. محمد الضعيف الرياطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، نشر دار المآثورات، الطبعة الأولى، الرباط 1406/1986، ص 313.

69 - محمد زنيبر، الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ص 321-323.
وأنظر أيضا بصدد هذه النقطة حوار أجرته مجلة الزمان المغربي مع العلامة محمد المنوني تحت عنوان "من الذكرة إلى التاريخ ومن التراث إلى الحداثة"، العدد 6، السنة الثالثة ربيع 81، ص 125-133.

عن كل تيار فكري جديد في حين أن غيره من البلاد العربية ولاسيما الشرقية لمصر والشام والعراق كانت تشهد قيام حركة علمية وأدبية نشيطة تقدر زندها أولا محمد علي في مصر وثانيا البعثات العلمية الأجنبية التي أمت هذه البلاد وأسست فيها مدارس عصرية من مختلف المستويات...»⁽⁷⁰⁾.

ولعل من شأن الرجوع إلى بعض الوثائق والمصادر أن يخفف من حدة الأحكام التي يذهب إليها هؤلاء بخصوص عزلة المغرب خلال هذه الفترة⁽⁷¹⁾، ذلك أن العلاقات الدبلوماسية والمبادلات التجارية ظلت قائمة وإن شهدت نوعا من التراجع⁽⁷²⁾، كما أن قنوات التواصل مع بلاد المشرق العربي بقيت ممتدة، ولاسيما من خلال الرحلات الحجية التي لعبت دورا أساسيا في استمرارية الروابط الثقافية والروحية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه⁽⁷³⁾ ومعلوم أن مصر كانت من أهم الأقطار التي يمر عبرها ركب الحاج المغربي.

فالمغرب لم يكن منطويا على نفسه تماما، غير أن الذي يجب تسجيله بهذا الشأن أن المؤثرات الخارجية المتسربة عبر هذه القنوات كانت محدودة وغير قادرة على تغيير الإيديولوجية التقليدية⁽⁷⁴⁾، في هذا السياق، نرى من المناسب التساؤل حول ما إذا كانت أصداء إصلاحات محمد علي في مصر قد وصلت أوساط المخزن والنخبة المغربية، وكيف تقبلت هذه الأوساط تلك الأصداء.

70 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1978، ص26.

71 - محمد المنوني، نماذج من تفتح مغرب القرن التاسع عشر على معطيات نهضة أوروبا والشرق الإسلامي، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص200.

LAROUÏ 5Abdc), op.cité, p205.

72 - عن هذه العلاقات أنظر على سبيل المثال:

عبد الهادي التازي، الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، مطبعة المتعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الجديدة 1984، ص102 وما بعدها.

BAYSSIÈRE (N) : « Histoire du Maroc », Librairie Hatier, Paris, p65.

73 - إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، مطبعة الدار البيضاء، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1985، ص25 و ص208.

FOUCAULD (Charles-Eugène de) :

« Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Challamel, paris, 1888, p110 et p121.

74 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p219.

إن المعلومات المتوفرة لا تقي بجواب شاف حول هذه المسألة فنصوص الرحلات الحجازية التي يمكن اعتمادها كمصدر أولي⁽⁷⁵⁾، بخصوص هذا الموضوع، نجدها خالية من أي ذكر أو إشارات لما تعرفه مصر من إصلاحات سواء بصيغة الإيجاب أو السلب⁽⁷⁶⁾، فكيف يمكن تفسير هذا السكوت، خصوصا وأن كتاب الرحلات كانوا عادة ما يضمنوها معلومات غنية تصف أحوال الشرق من النواحي الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؟

لا شك أن ذلك راجع إلى انقطاع ركب الحاج المغربي أربع سنوات⁽⁷⁷⁾ بفعل ما خلفه الغزو الفرنسي لمصر من أثر سيء في نفوس المغاربة من جهة، ومن جهة ثانية فإن مصر التي كان يقيم بها العلماء المغاربة مدة قد تمتد شهورا أو أعواما، وقد يصبح مقامهم بها نهائيا⁽⁷⁸⁾، لم تعد محطة أساسية في طريق الموكب الحجي وذلك لفقدان الطريق البري أهميته السابقة بعد أن أرست فرنسا نفوذها بالجزائر، وتعيضه بطريق بحري ينطلق من المرافئ المغربية عوض فاس أو سجلماسة كما كان سابق⁽⁷⁹⁾، وأصبح يمر عن جبل طارق وبور سعيد ثم جدة، كما أن الشرق الذي يقصده المغاربة وقتذاك، كان يمر بظرفية تحول، ولا شك أن هذه التحولات كان لها أثرها في تراجع الروابط بين المغرب ومصر على المستوى الثقافي⁽⁸⁰⁾.

75 - عن أهمية الرحلات الحجازية كمصدر للتاريخ أنظر محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من القتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1983.

عبد الرحمان المودن، الرحلة الحجية مصدرا من مصادر التاريخ الاجتماعي المغربي، نص المداخلة التي ساهم بها في ندوة "في النهضة والتراكم"، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة الطبعة الأولى، المحمدية 1986 ص ص 299-308.

76 - من الرحلات التي صادف قيام مدونوها بمصر عهد محمد علي أو السنوات التي أعقبته، ولم تورد أية إشارة عن أعماله وإصلاحاته نذكر منها على الخصوص:

* أحمد بن طوير الجنة الوادائي، رحلة المني والمئة، وقد استغرقت رحلته خمس سنوات (1250-1245هـ/1834-1829) وعن هذه الرحلة أنظر:

* محمد بن عبد الله بن مبارك العمري، رحلة الغيغاني، خ.ع.ر رقم ج 98.

77 - محمد المنصور، الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص 177.

78 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 27.

79 - محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان 1953، ص 41.

إلا أن استتطاق مضان أخرى أتاح إمكانية الوقوف على بعض الإشارات المتفرقة هي بمثابة شهادات دالة على أن أصداء إصلاحات محمد علي كانت قد بدأت تتردد في المغرب قبيل تولي الحسن الأول زمام السلطة بالبلاد، وأولى هذه الشهادات نجدها في وثيقة موجهة إلى السلطان عبد الرحمان بن هشان تنهض دليلا على وجود نوع من الروابط بينه وبين محمد علي، حيث تتحدث هذه الوثيقة عن تبادل الهدايا بينهما، والملفت أن هدية محمد علي كانت عبارة عن خمسة وثلاثين كتابا تعالج موضوع الفنون العسكرية أي «كتب النظام» كما جاء في الوثيقة⁽⁸¹⁾.

وثبة شهادة أخرى تضمنتها رحلة الصفار⁽⁸²⁾ حيث أورد في معرض وصفه لوقائع مشاركة الوفد الدبلوماسي المغربي في احتفالات الحكومة الفرنسية بفتح السنة الجديدة (1846) إشارة تتعلق ببعثة طلابية تضم ستين فردا، أرسلها محمد علي إلى فرنسا لتعلم العلوم الحديثة بمعاهدها⁽⁸³⁾.

وتحتفظ الخزانة الحسنية بنسخة لمخطوط مجهول المؤلف تحت عنوان «الابتسام عن دولة ابن هشام»⁽⁸⁴⁾، والذي لخصه محمد الحجوي بعنوان «اختصار الابتسام»⁽⁸⁵⁾، ولهذا المخطوط أهمية بالغة بخصوص ما نحن بصدد إبرازه، إذ يعتبر المصدر المغربي الوحيد⁽⁸⁶⁾ الذي نقل للأوساط المغربية معلومات دقيقة ومستفيضة عن أعمال محمد علي وإصلاحاته التي عاينها بالديار المصرية، فضلا عن أن مؤلفه عمل كاتباً في البلاط الرحماني طوال مدة تسع سنوات مع الوزير أبي عبد الله محمد بن إدريس العمراوي⁽⁸⁷⁾، وزير السلطان مولاي عبد

81 - رسالة من محمد الرزيتي إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام بتاريخ 10 ربيع 1264، أوردتها ابن زيدان في الإتحاف، ج5، ص 155-154.

82 - محمد بن عبد الله الصفار، مصدر سابق.

83 - نقلا عن محمد داوود، تاريخ تطوان، ج3، ص 307.

84 - مخطوط خ.ح.ر، رقم ز 12490.

85 - محمد الحجوي، اختصار الابتسام، مخطوط خ.ع.ر رقم ح 144 ضمن مجموع.

86 - نستثني هنا حسب علمنا- تاريخ الضعيف الذي اكتفى صاحبه بالحديث عن حروب محمد علي وأساسا حملته ضد الوهابيين، حيث ينقل لنا أطوار المواجهة العسكرية بين الوالي محمد علي والوهابيين بصورة يبدو معها المؤلف منحازا للوهابيين أنظر، محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق وتقديم وتعليق أحمد العماري، ص 364 و 378.

87 - محمد الحجوي، اختصار الابتسام، ص 355 و 373.

الرحمان، مما يعني أن الآراء التي أدلى بها قد تكون دالة على مواقف بعض الأطراف المخزنية أو بعض خاصة فاس⁽⁸⁸⁾.

ويستشف من مضامين المخطوط، أن صاحبه كان متفتحا ومعجبا بالتنظيمات الأوربية الحديثة، لذا نجده لا يتردد في التعبير عن اقتراحاته صراحة على المخزن باقتباسها، ويتأسف لجهل المغاربة بهذه التنظيمات وتمسكهم بالتقاليد الموروثة واستلهاهم أمجاد الأجداد، حسبما يفيد قوله التالي: «...فإن الكل سار على منهج الانكشارية وهو نظام فسد ولم يعد صالحا. فعاد بالفوضى والوبال وكان يجب على المولى سليمان أو ينتبه لما فعله السلطان محمود بجيش الانكشارية، وإبداله بنظام أوربي حديث (...) ثم يدخل النظام تدريجيا وبلفظ، ولكن جهل المغرب بأحوال غيره واكتفاؤه بالقديم وقناعته بما يسد الرمق واتكاله على المجد القديم هو الذي أود به للهلاك...»⁽⁸⁹⁾.

لقد صادف مقامه بمصر مرحلة إصلاحات محمد علي وما استحدثته من تنظيمات مقتبسة من أوربا، فخصص لها صفحات طويلة يصف فيها جزئياتها، ويشيد بنتائجها الإيجابية، وقد حرص على وصف كل الميادين التي همتها هذه الإصلاحات وصفا دقيقا ينم عن رغبة في أن يباشر السلطان المغربي مثلها، فعن الإصلاحات التي مست الميدان العسكري يذكر «...ومن أعماله العظمى تنظيمه للجيش نظاما أوربيا يفوق ملوك الإسلام كلهم حتى ملوك الترك لذلك النظام، وبه أحرز النصر في الحجاز والشام وغيرهما أينما توجه برا وبحرا، كما أنه أنشأ أسطولا حربيا...»⁽⁹⁰⁾.

وإذا كان إيفاد بعثات طلابية إلى أوربا بهدف استيعاب فنون الحرب وتحصيل العلوم الحديثة قد شكل إحدى ركائز ومعالن نهضة محمد علي، فإن مؤلف الابتسام لم يفقه أن يتحدث عن هذا الإجراء بإطراء وتركيز واضحة، إذ ينقل لنا ما يلي «...كما بعث رجالا من أهل العلم لأوربا يتعلمون الطب والهندسة والحساب وعلوم البوصلة وصناعة المجانات وغير ذلك وأجرى لهم مونة لعيالهم...»⁽⁹¹⁾.

88 - عبد الرحمان المؤذن، بعض المواقف المغربية من المستجدات التقنية المغربية في القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص369.

89 - محمد الحجوي، مصدر سابق، ص360.

90 - نفسه، ص ص371-370.

91 - نفسه، ص 373.

فلا شك، أن وصفاً يمثل هذه اللهجة الإيجابية يوحى بالتبني والرغبة في تقليد التجربة المصرية، وهو ذات الاستنتاج الذي أكدّه محمد الحجوي معلقاً على أوصاف صاحب الابتسام بقوله «...عجبا لرجل أراد أن يؤرخ أيام المولى سليمان فملاً تاريخه بأعمال محمد علي بمصر في المغرب والرجل كان كاتباً بدار المخزن ولكن لما لم يجد أمثال هذه النهضة المؤسسة بمصر في المغرب ملاً تاريخه بأعمال باشا مصر موعظة وذكرى واستنهاضاً لهمم ملوكنا...»⁽⁹²⁾.

ويضيف الحجوي في تعليقه ما يفيد أن اقتباس بعض معالم نهضة محمد علي والأخذ بأسبابها قد حدث فعلاً بعد تولي الحسن الأول سلطة البلاد، يؤكد ذلك قوله «...كيف بملوك المغرب شاهدوا على مصر من خدامهم هذه الأعمال، بل وأولادهم الذين كانوا يذهبون إلى الحج⁽⁹³⁾، ولم ينهضوا لمثلها ولا عملوا منها شيئاً وبقي المغرب في جموده هذا لمدة طويلة (...) لغاية أيام المولى الحسن الذي أدخل نوعاً من النظام عليه...»⁽⁹⁴⁾.

إن مخطوط الابتسام بما تضمنه من آراء ومواقف منفتحة على المخترعات الحديثة التي عاينها مؤلفه بمصر، وباعتباره أحد كتاب البلاط المخزني يجعلنا لا نستبعد أن يكون من النصوص الأولى التي دعت الأوساط المخزنية إلى ضرورة الاستفادة من هذه التنظيمات⁽⁹⁵⁾، والافتداء بتجربة محمد علي.

وإلى جانب هذه المصادر نتحدث بعض الدراسات المعاصرة عما كان لإصلاحات محمد علي من أثر لا يقل أهمية عن أثر الأوضاع المستجدة التي اقتضت ضرورة الإصلاح. فالمرّخ عبد الله العروي يرى أن إقدام المخزن على تنظيم القوات المغربية وتدريبها على النمط الأوربي لم يكن وليد مخلفات هزيمتي إيسلي وتطوان فحسب بل كان

92 - محمد الحجوي، اختصار الابتسام، مصدر سابق، ص 373.

93 - من المفيد هنا الإشارة إلى أن السلطان عبد الرحمان بن هشام أوفد وَلَدَيْهِ سليمان والرشيد للحج سنة 1265هـ/1848م، وسافرا على متن باخرة إنجليزية مصحوبان بهدية إلى عباس باشا أمير مصر، فاستضافهما وعرضا عليهما زيارة المعامل والأبنية الحديثة التي أقامها محمد علي. أنظر: ابن زيدان، الاتحاف، مرجع سابق، ج 5، ص 154.

94 - محمد الحجوي، مصدر سابق، ص 373.

95 - عبد الرحمان المؤذن، مرجع سابق، ص 370.

أيضا بتأثير من حركة الإصلاحات التي عرفها المشرق. فقد كتب دريموند هاي قبل ذلك، إلى الوزير ابن إدريس يصف له الجهود التحديثية التي قام بها محمود الثاني في تركيا، ومحمد علي في مصر، كما أن بعض الحجاج المغاربة العائدين من بلاد المشرق كانوا يتحدثون عن الإصلاح الجديد، فهزيمة إيسلي -في رأي العروي- جاءت لتقنع المرتدين في إدخال الإصلاحات⁽⁹⁶⁾.

وقريبا من هذا الرأي يعبر عنه أحد الباحثين المغاربة مؤكدا أن الوضع الجديد الذي أصبح يعيشه المغرب وقتذاك، وتزايد الأخطار التي أخذت تحدق بالبلاد جعل بعض العلماء والمفكرين المغاربة مقتنعين أن الخطاب الإصلاحى التقليدي لم يعد بمقدوره وحده مواجهة ظرفية التأخر التاريخي، لذا بدأت تروج في أوساط النخبة بعض الأفكار والآراء الداعية إلى «اقتباس الإصلاحات عن الغرب والأخذ بمحاولة محمد علي في مصر»⁽⁹⁷⁾.

أيضا من القرائن التي تثبت أن السلطان الحسن الأول كان على علم بتجربة محمد علي، هو ما تكشفه بعض التقارير الأجنبية عن اقتراحات بعض الممثلين الأجانب على السلطان محمد بن عبد الرحمان ومن بعده الحسن الأول، أن يحذوا حذو محمد علي في مصر فلقد «نصح» دريموند هاي السلطان محمد الرابع في آخر لقاءاته سنة 1873 بقوله: «كونوا مثل السلطان محمد الثاني أو محمد علي حيث السيف في يد، ورمز العدل في اليد الأخرى»⁽⁹⁸⁾.

كما تتحدث بعض التقارير الأجنبية أن القنصل الألماني كان قد اقترح على الحسن الأول أن يشرع في تنظيم قواته على النمط الأوروبي، وجلب تقنيين وخبراء ألمان لتدريب هذه القوات وتكوين أطر مغربية بما فعله محمد علي في مصر⁽⁹⁹⁾.

96 - LAROUÏ (Abd), op-cité, pp 272-273.

97 - محمد زنيبي، هل هناك مصادر داخلية للإصلاح، ص 351-353.

98 - أوزده العروي

99 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، باريس

R.E.P ; C.P. Maroc Rapport : « Tanher 1 novembre 1874, vol 39.

من كل ما تقدم، يتبين أنه من الصعب التسليم بأن خطوة الحسن الأول بإيفاد بعثات تعليمية إلى أوروبا جاءت كتقليد مطابق لما أقدم عليه محمد علي من قبله، غير أن الشهادات التي تم الوقوف عليها في مصادر متنوعة مغربية وأجنبية تفيد أن أصداء إصلاحات محمد علي، ومن أبرزها البعثات الطلابية كانت قد وصلت المغرب قبل بداية بلورة الأفكار الإصلاحية، وأن بعض الأوساط الفكرية والمخزنية⁽¹⁰⁰⁾ لم تكن تجهلها، وبالتالي يحق اعتبار تجربة البعثات المشرقية كمصدر فاعل ساهم في بروز فكرة البعثات في المغرب.



100 - أشار العروي نقلا عن مصادر أجنبية أن الوزير ابن ادريس كان يمتلك نسخة من "تلخيص الإبريز في تخلص باريز" لرعاة الطهطاوي.

LAROUÏ (Abd), op-cité, p215.

ومعلوم أن الطهطاوي كان من أعضاء البعثة الطلابية الأولى التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا سنة 1826 وعاد سنة 1831. أنظر: أحمد عزت عبد الكريم، «تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، ص438.

الباب الثاني

البعثات التعليمية إلى الخارج

الفصل الأول

المجانب التنظيمية والعنيت

1) الإجراءات الإعدادية:

أوضحت أغلب الأبحاث التي عالجت موضوع الحياة الفكرية بمغرب القرن التاسع عشر، أنها كانت تتسم بصفات الجمود والتقليد والاجترار، وأن النظام التعليمي لم يطله أي تغيير في مناهجه أو تجديده في مضامينه منذ ثلاثة قرون، إذ كانت البنية الفكرية جزءا من بنية عامة موسومة هي الأخرى بالضعف والتأخر⁽¹⁾، لقد وصف أحد مؤرخي الأدب المغربي سمات الوضع الثقافي وقتذاك بقوله «...إن الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها من تمثل الماضي واقتداء حذوه سواء في المادة والقالب في المعنى أو الأسلوب، المؤلفون يضعون تأليفهم على غرار الذين من قبلهم والأدباء يصوغون أدبهم نفس الصياغة التي توارثوها عن تقدمهم والإنتاج في الواقع كثير (...) ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الأعمال، نعم كان هناك مؤلفون وأدباء لكن صلتهم بأهل العصور الخالية أقوى من صلتهم بأهل العصر الذين يعيشون فيه، فنتاجهم يعد من صميم الإنتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون...»⁽²⁾.

أما المواد التي كانت تدرس بالمؤسسات التعليمية وفي مقدمتها جامعة القرويين، فقد بقيت في الغالب ذات طابع ديني محض، محصورة في دائرة العلوم الشرعية والدينية، حيث كان الاهتمام منصبا بالأساس على تدريس الفقه والحديث والأصول والتفسير واللغة وما إلى ذلك، ومعلوم أن هذه العلوم كانت تؤهل محصليها لممارسة أهم الوظائف

1 - للمزيد من التفاصيل راجع الفصل المتعلق بالثقافة والإيديولوجية في القرن التاسع عشر من كتاب العروي.

LAROUÏ (Abdel), op.cit., pp191-205.

2 - عبد الله كتون، أحاديث في الأدب المغربي الحديث، صص28-25.

السائدة آنذاك كوظيفة التدريس والقضاء والكتابة، هذا بينما نجد المواد العلمية التي كانت تدرس بجامعة القرويين في ماضيها الزاهر كالفلك والتوقيت والهندسة والجغرافيا قد سجلت تراجعاً ملحوظاً وأمست دراساتها سطحية لا تعدو أن تكون وسيلة لفهم المسائل الدينية، بل لم تعد لبعض هذه المواد مكانة في البرنامج الرسمي لهذه المؤسسة⁽³⁾.

ضمن هذا الإطار الفكري الموسوم بالتقليد، نتحدث بعض المصادر عن محاولات للتجديد تجلت في قيام حركة استهدفت تنشيط دراسة العلوم الرياضية والعسكرية، وإضفاء الطابع الحديث على تعليمها⁽⁴⁾. وقد كان السلطان محمد الرابع من أبرز الشخصيات المساهمة في خلق هذه الحركة منذ أيام خلافته، حيث اشتهر بشغفه بالعلوم التجريبية والنقلية⁽⁵⁾، وكان «متشوقاً لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة»⁽⁶⁾ وساهم بنصيب وافر في بعث هذه العلوم، وتشجيع تدريسها ونشر كتبها، كما تذكر عنه المصادر: «...واحيا ما اندثر بالمغرب من العلوم كالحساب والتعديل والهندسة والنجوم، واخترع العسكر النظامي السعيد...»⁽⁷⁾.

لقد كان اهتمام السلطان بهذه العلوم وليد قناعة بأهميتها وضرورتها لضمان تكوين أطر عسكرية ومدنية يطعم بها أجهزة المخزن العتيقة التي لم تعد قادرة على مسايرة الأوضاع المستجدة، لهذا الغرض بالذات نجده يختار مدرسة جوار القصر السلطاني بفاس كمؤسسة متخصصة في تعليم ثلثة من الطلبة علوم الهندسة والحساب والتوقيت والهيئة والتنجيم⁽⁸⁾، تحت إشراف عدد من الأساتذة الفلكيين

3 - كثيرة هي الدراسات التي استقيناها منها هذه الإفادات أنظر:

Perite (P) : « Les Medresas de Fès, i, Archives Marocains, vol.XVIII Année 1912, pp 257-232.

LAROU (Abdel), op.cité, pp197-198.

4 - محمد المنوني، مظاهر بقطة المغرب الحديث، ج1، ص135.

5 - محمد بن الأعرج السليمان، زبدة التاريخ وزهرة الشماخ، ج2 خ.ع.ر رقم 3657، ص341.

6 - محمد المشرقي، الحلل البهية، ص221.

7 - أحمد بن الموار، المقالة المرضية في الدولة العلوية والتسول بالنسب الطاهر للعلي القادر، مخطوط خ.ج.ر رقم 493، ص25.

8 - ابن زيدان، "الإتحاف"، ج3، ص367.

محمد الأعرج السليمان، مصدر سابق، ص341.

ويتضح من سجل نفقات مخزنية بالخزانة الحسنية رقم 331 يحمل عنوان: "بيان الداخل والخارج على أمناء السائر بدار عدل"، أن هذه المدرسة ظلت قائمة إلى حدود سنة (1296-1297هـ)، إذ نجد ضمن ما عدده من صوائر ونفقات متنوعة ذكر مصاريف طلبة الهندسة صفحات 10-9-4-3.

والحيسوبيين نذكر منهم على سبيل المثال أبا العباس الصوري وإدريس البلغيثي⁹.

ولا شك أن هذه المديرية والدور الإعدادي الذي كان منوطا بها، هو ما قصده الإشارة الواردة في رسالة سلطانية بخصوص بعثة كانت بصدد التوجه إلى مصر سنة (1283هـ/1866م) لدراسة الفنون العسكرية¹⁰ حيث جاء في الرسالة «...فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم بعد لمصر...»¹¹.

لقد كانت هذه المدرسة «الإدارية» كما اصطلح عليها أحد الباحثين المغاربة¹² بمثابة مؤسسة إعدادية، حيث أرسل عدد من خريجها بصفته «مهندسين» في بعثات طلابية لإتمام وتعميق دراستهم بالمعاهد الأوربية كالفقيه أبي عبد الله محمد الجباص وأبي عبد الله محمد العلمي وآخرين قصدوا فرنسا وألمانيا وإنجلترا¹³.

وإذا كانت المصادر المغربية تقتصر على ذكر مدرسة المهندسين بفاس في عهد السلطان محمد الرابع كمرکز لإعداد طلبة البعثات، فإن (مبيج) أورد في دراسته إشارة تفيد أن عناصر أخرى تقدر بخمسين طالبا يحملون أيضا لقب مهندس ألحقوا بفرقة المدفعية التي كانت تشرف على تدريبها البعثة العسكرية الفرنسية بقيادة جول إيركمان Jules Erkman¹⁴، وأضاف أن هؤلاء خضعوا لتكوين إعدادي في مدارس متخصصة أسسها السلطان محمد الرابع في بعض المدن كالصويرة وأسفي، وبعد إخضاعهم لتكوين إعدادي بهذه المؤسسات تم

9 - PEREITE (A), op.cité, p285.

راجع ما كتبه المنوني حول وظيفة هذه المدرسة وأساتذتها في مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص 143-146.

10 - نفسه، ص157.

11 - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى عامل سلا الحاج محمد بن سعيد السلاوي بتاريخ 5 حجة الحرام 1283، من وثائق أسرة آل بن سعيد بسلا، أوردها المنوني: صص157-158.

12 - LAHBABI (M) : « Le gouvernement Marocain... », p135.

13 - ابن زيدان، الإتحاف، ج3، ص367.

محمد الأعرج السليماني، مصدر سابق، ص341.

14 - ERKMAN (Jules), op.cité, p230.

إيفادهم سنة 1882 إلى بعض المعاهد الأوروبية لمواصلة تكوينهم بها⁽¹⁵⁾.
على أن أهم مؤسسة كانت تضطلع بمهمة إعداد لطلبة الذين
سيقصدون الديار الأجنبية لتلقي العلوم الحديثة، هي المدرسة التي
أسسها السلطان الحسن الأول خصيصا لهذا الغرض⁽¹⁶⁾، حيث وقفنا
على ثلاث رسائل صادرة عنه غطت ثلاث سنوات متتالية، وتضمنت
إفادات هامة تخص هذه المدرسة ووظيفتها.

أولها بعث بها السلطان الحسن الأول سنة (1292هـ/1875)
إلى الباشا الجيلاني بن حمو باشا مدينة طنجة تتعلق بخمسة عشر
 طالبا سيتوجهون إلى أوروبا لتعلم الفنون الحربية بعد أن قضوا مدة
من التأهيل وتعلم اللغات الأجنبية حسبما يؤكد نص هذه الرسالة:
«وصيفنا الأرضي القائد الجيلاني بن حمو، وفقك الله وسلام عليك
ورحمة الله، وبعد: فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة
بقصد التوجه لبر النصارى لتعلم طبجيت والهندسة وغير ذلك من أمور
الحرب، بعد تعلم الكتابة واللسان بطنجة ليسهل عليهم مباشرة التعلم
ببر النصارى، وأمرنا خديمنا الطالب محمد بركاش بأن يقر كل فريق
منهم بالمحل الذي يناسبه حتى يتعلموا ذلك، ويوجه لكل فريق منهم
المكان المعين له، كما أمرت الأمناء أن ينفذوا لهم مدة إقامتهم بطنجة،
وأعلمناك لنكون على بال وتترزهم بالمحل الذي يناسبهم والسلام في
25 رجب عام 1292»⁽¹⁷⁾.

وبعد مرور سنة عن تاريخ صدور هذه الرسالة، نعثر برسالة ثانية
حوت إشارات أكثر تفصيلا، تفيد أن هذه المدرسة تخصصت في
استقبال الطلبة المرشحين للتوجه إلى أوروبا، والوافدين من مدن أخرى
لإعدادهم واختبار مستواهم المعرفي، كما تفصح عن الخطوات التي
كانت تمر منها عمليات الاختيار النهائي، والمقاييس المراعاة في هذا
الاختيار، وفي مقدمتها صغر السن والنجابة حسب ما يبرزه جواب

15 - Miège (I.L.) : « Le Maroc et l'Europe », Tome III, p230.

Miège (I.L.) : « Une mission française à Marrakech », p394.

16 - الطاهر بن الحاج الأودي، الاستبصار في عجائب الأمصار والأراضين والجنال والأنهار والبحور ومنافسين النار
سطوة الواحد القهار...، مخطوط يحظ المؤلف، ص83.

17 - مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص 441-442. وقد أوردها ابن زيدان في "النهضة العلمية في عهد الدولة
 العلوية"، خ.ج. ر. رقم 1377، ص80.

السلطان الحسن الأول الذي بعثه إلى نائبه بطنجة يقول فيه: «خديمنا الأرضي الطالب محمد بركاش، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد: وصلنا كتابك بأنك اختبرت الطلبة الذين كانوا وجهوا لطنجة لتعلم اللسان والقلم، فالتقيت فيهم من لا يقبل التعلم أصلا وثقيل الفهم مع أجنبيته عن التمدن وبيئت كلا الفريقين بطرته ومن عداهم نجيب يحصل المراد منه في المستقبل، وطلبت إبدال من لا قابلية فيه بغيره وزيادة نحو الخمسة على الاثنين المبدلين لما في زيادتهم من المصلحة التي ذكرت، ويكون الجميع مع صغار أبناء الحاضرة النجباء، فقد أمرنا خديمنا الطالب عبد السلام السوسي بانتخاب سبعة من أبناء أهل الرباط على الوصف المذكور، وتوجيههم على يدك للمحل المذكور والأمناء بأن ينفذوا لهم ما يتوقفون عليه لسفرهم للذان لا قابلية فيهما وجههما لحضرتنا العالية بالله والسلام في 20 محرم فاتح عام 1293»⁽¹⁸⁾.

وأكدت رسالة الثالثة استمرارية دور هذه المدرسة وتخصصها في تلقين أفراد البعثات لغات البلدان التي سيدرسون فيها، حيث أمر السلطان عامله في سلا باختيار خمسة شبان يوفدهم إلى أوربا لدراسة فنون الملاحة بعد أن يقضوا بمدرسة طنجة فترة من التأهيل وتعلم اللغات، وفق ما جاء في نص الرسالة: «خديمنا الأرضي الحاج محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: فنأمرك أن تعين خمسة من أولاد أعيان خدامنا أهل سلا يكون منهم من الخمسة عشر سنة إلى الثمانية عشر واخترهما (كذا) من النجاعة والفتنة بمكان، وممن يعرف الكتابة، وإن كانوا من الذين كانوا عينو -سابقا- لتعلم علم البحر وكانوا يتعاطونه فهو أولى وحين تعيينهم أعلمنا لنأمرك بتوجيههم لبر النصارى بقصد تعلم علم البحر والرياسة، وذلك بعد أن يتعلموا ما يكفيهم في ذلك من اللسان بطنجة، وقد كتبنا لخديمنا الطالب عبد السلام السوسي بتعيين مثله من خدامنا أهل الرباط الفتح والسلام في 10 رمضان المعظم، عام 1294»⁽¹⁹⁾.

18 - رسالة من الحسن الأول إلى محمد بركاش، أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج2، ص 469-470.

وقد نشر نسخة منها الأستاذ عبد الهادي التازي في مقال له بعنوان، حرص ملوك المغرب عبر التاريخ على تحسين نوعية الأطر، مجلة الشؤون الإدارية، العدد الأول، السنة الأولى، يناير 1983، ص26.

19 - من وثائق أسرة آب بن سعيد أوردها المتوني في كتابه مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص148.

وإذا كانت هذه الوثائق قد اكتفت بالحديث عن دور هذه المدرسة دون تحديد المدة الزمنية التي كان يستغرقها التكوين الإعدادي للطلبة، كما اقتضت على ذكر مادة اللغات الأجنبية دون غيرها، فإن مذكرات بعض الطلبة تمدنا بإفادات تتكامل مع ما أورده الوثائق السابقة، حيث يطلعنا الطالب الطاهر محمد الودي أنه تلقى بمدرسة طنجة تكويناً دام ست سنوات، وقد شمل هذا التكوين مواد الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية واللغة العربية والمبادئ الدينية الأولية واللغة الأجنبية⁽²⁰⁾ وهي نفس المدة التي ذكرها الطالب محمد الكعاب أحد أعضاء نفس البعثة بقوله: «... وإننا كنا بعثنا من جملة الطلبة الذين كانوا تعينوا لقراءة اللغة الرومية في منتهى رجب سنة 1291 هـ ثم بعد الإقامة من الستة سنين ونصف بثغر طنجة كما سافرنا إلى مدينة باريس»⁽²¹⁾. وخلافاً للشهادتين السابقتين، فإن الطالب الزبير سكيرج أحد أعضاء البعثة التي درست بإنجلترا، يذكر أن مدة التكوين الأولي التي قضاهها بطنجة لم تتعد سنتين، واقتصرت على تعلم اللغات الأجنبية ومبادئ الحساب كما جاء في مذكرته: «عينت ضمن الخمسة عشر تلميذاً الواقع عليهم الانتخاب لتدريبهم وتعليمهم ما به يصيرون من ذوي الأهلية لاستلام زمام الخدمات السلطانية العالية، ولسنة التعيين التي هي 1291 هـ يمم جميعنا ثغر طنجة تحت رئاسة الفقيه السيد محمد (بافتح) الجباص حيث أخذنا مبادئ الحساب ولغات الأجانب لحد سنة 1293»⁽²²⁾.

وإذا كانت الوثائق والمصادر المغربية تلوذ بالصمت حول الأساتذة الذين كانوا مكلفين بتدريس الطلبة خلال هذه المرحلة التأهيلية، فإنه لا شك أن بعض العناصر الأجنبية كان يتم استقدامها من الدول الأوروبية التي ستستضيف البعثات المغربية خصيصاً لهذه المهمة، يتضح هذا من خلال البعثة الطلابية التي توجهت للدراسة إلى ألمانيا، حيث أورد بيير كيين Pierre Guillen في دراسته حول العلاقات المغربية-الألمانية،

20 - الطار الأودي، الاستبصار، ص 83.

21 - أحمد معنيو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 محمد بن الكعاب الشري، مجلة البحث العلمي، العدد 25 يناير، يونيو 1976، ص 223.

22 - عبد الغني سكيرج، مذكرات الزبير سكيرج (1850-1932)، مجلة دار النيابة العدد 8، السنة 2، خريف 1985، ص 30.

إشارة مفادها أنه بعد حصول الاتفاق بين النائب السلطاني محمد بركاش والقنصل الألماني ويبر Weber حول إرسال ثلاثة طلبة مغاربة إلى معاهد ألمانيا قدم أحد الألمان من برلين إلى طنجة لتلقيين الشبان الثلاثة أوليات اللغة الألمانية⁽²³⁾.

ولا شك أن تأسيس هذه المدرسة بمدينة طنجة دون غيرها، يرجع لموقعها الجغرافي الذي جعل منها أقرب محطة إلى أوروبا، ولكونها كانت مقرا لجميع قناصل الدول الأجنبية الممثلة في المغرب، ومركزا لـ «دار النيابة» حيث يقوم النائب السلطاني المكلف بالتفاوض مع رؤساء الهيئة الدبلوماسية حول القضايا التي تهم رعاياهم المقيمين بالمغرب، والعلاقات التي تربط المغرب بهذه الدول على جميع المستويات⁽²⁴⁾، وفعلًا فقد كان أول ما قام به السلطان الحسن الأول بعد قراره بإيفاد البعثات هو أن اتصل بواسطة نائبه بمختلف المفوضيات الأوربية الموجودة بطنجة، لاستفسارها حول إمكانيات قبول طلبة مغاربة في المعاهد الأوربية⁽²⁵⁾، كما تؤكد هذه الرسالة السلطانية الموجهة إلى النائب محمد بركاش: «خديمنا الأرضي الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد: فقد اقتضى نظرنا الشريف تعيين أناس لتعليم ترايست والمكينة وعلم البحر وأن يفرقوا على نواب بابورات النجليز والفرنسيص والصينيول والألمان والطيالان، وعددهم ستة لكل جنس، واثنان من الستة المذكورين يحضون بتعلم ترايست والمكينة بمدارس تعلم ذلك العلم عند كل جنس ممن ذكروا وأربعة لتعلم علم البحر وهم الذين يفرقون على نواب البابورات المذكورين ويكون صائرهم على جانب المخزن إذ المقصود هو تعلمهم، وعليه فكلّم نواب الأجناس المذكورين في ذلك، وتفاوض معهم فيه، وأعلمنا بجوابهم لك فيه، لنامرك بما يكون عليه العمل في ذلك، وعجل ولا بد والسلام في 10 رجب 1299»⁽²⁶⁾.

هذا وقد تنوعت طرق إعداد الطلبة المرشحين، وتمت أحيانا خارج

23 - Guillen (Perre), op.cité,p86.

24 - عبد العزيز التمساني خلو، المطامع الإنسانية في طنجة 1914-1945، مجلة دار النيابة، العدد السابع، السنة الثانية، صيف 1985، ص45.

25 - Miège (J.L), op.cité, T.III,p222.

26 - أوردها ابن زيدان في، الإتحاف، ج2، صص371-370، العز والصولة، ج2، صص149-148.

مدرسة طنجة، حيث كان السلطان يكلف ولاته بالمدن والأقاليم بانتخاب أنجب الطلبة لتعليمهم مبادئ العلوم الرياضية والطبيعية، ويحظى المتفوقون منهم بامتياز الذهاب إلى أوروبا لتعميق دراستهم في ميدان هذه العلوم، يبين هذا من رسالة بعثها السلطان الحسن الأول إلى قائد الصويرة الحاج عمارة ابن عبد الصادق تتعلق بطلبة كانوا يتعلمون الحساب بالصويرة وأرسلوا إلى البلاط بهدف اختبار مستواهم، حسب ما يؤكد نص الرسالة التالية: «...الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله (...) وصيفنا الأَرْضِي، الحاج عمارة بن عبد الصادق (...) وبعد: فقد وصلنا كتابك وصحبته طلبة الحساب الذين وجهت بقصد اختبارهم عملا بأمرنا الشريف، فوجد أثر النجاة لأتباعي الستة المذكورين بالطرة، ويليهم الثلاثة المذكورين أثرهم، حيث مرنا باختيارهم وما عداهم حشوا لا يقبل التعليم وعليه فسرّحهم لحل سبيلهم، وعين بدلهم ممن فيه قابلية العلم، ووجدت العشرين الباقين هناك بقصد اختبارهم ولا بد والسلام في 23 صفر الخير عام 129»⁽²⁷⁾.

وقد وقفنا على أسلوب آخر اتبع في طريقة إعداد الطلبة الواقع عليهم الاخبار، وذلك من خلال ما أورده (جاك كايي J. Caille) في دراسته عن ابعثة الطلابية التي ذهبت إلى مدرسة الهندسة العسكرية في مدينة مَنبُولِييه، حيث أشار أنه بطلب من وزير فرنسا بطنجة (شارل فيرو Charles Feraud) قبل أيركمان سنة 1888 أن يشرف على تدريب خمسمائة من الشبان المغاربة، كان من المقرر أن يتم إرسالهم ليخضعوا لتدوين بمدينة فرساي في ميدان المدفعية والهندسة، وقد عقب (فيرو) على قبول أيركمان بقوله: «أظن أنه إذا علم السلطان أن إعداد الشبارسيوكل إليكم فإنه سيسرع بإرسالهم»⁽²⁸⁾.

يستخلص من مجموع هذه التدابير الإعدادية، مدى الاهتمام الذي كان يوليه السلطان الحسن الأول لهذا المشروع الإصلاحية⁽²⁹⁾ وحرصه

27 - مجلة الوثائق، جزء الثالث، ص 456-457.

28 - CAILLIE (Jacques), « Les Marocains à l'école de Génie de Montpellier (1885-1888) », in Hesperis, vol. XMI. Année 1954 p143.

29 - لقد أشار مبيج دراسته أن السلطان الحسن الأول بعد تخليه عن جزء من برنامج الإصلاحية ظل مصرًا على مواصلة إيد البعثات الطلابية إلى أوروبا.
Miège (J.L.), op. cit. T.III, p222.

الشديد على إنجاحه وذلك بتمكين الطلبة المرشحين من تكوين بدائي يؤهلهم لمسايرة ما سيدرسونه في المعاهد الأوربية والاستفادة من ذلك. غير أن هذا التكوين الإعدادي بالطريقة التي تم بها، بقي شكليا في مجمله، وغير خاضع لتصور قبلي تضبطه قواعد دقيقة وأهداف محددة، وفي ذلك نلمس أصل أحد عوامل فشل هذه التجربة، كما أن مدة التكوين الأولي كانت غير كافية لتجعل الطلبة مؤهلين بالمستوى المطلوب لمتابعة تكوينهم وتعميق معارفهم في معاهد أوربا⁽³⁰⁾، فضلا عن أن عملية الاختيار، بما شابها من ارتجال؛ جاءت أحيانا غير موفقة⁽³¹⁾، وهذا يدفعنا للحديث عن الأصول الاجتماعية والجغرافية لأفراد البعثات.

(2) الأصول الاجتماعية لأفراد البعثات:

لا شك أن مستوى ووضعية الإدارة في بلد ما لا يمكن فصلهما عن مرحلة تتطور بنياته الاقتصادية والاجتماعية، فلقد ظلت أجهزة المخزن المغربي إلى حدود القرن التاسع عشر تتسم ببساطة تركيبها، ومحدودية مهامها، كما أن أساليب ممارسة العديد من المسؤوليات لم تكن تخضع لشروط مقننة وتوزيع دقيق للمهام.

لقد توصلت بعض الأبحاث التي اهتمت بجوانب من الإدارة المغربية وسير أجهزتها أن أغلب المشرفين على تأطيرها كانوا ينتمون إلى فئات تتميز بوضعية اجتماعية ومادية مرموقة، فعن أصل الأمناء الاجتماعي تذكر (نعيمة التوزاني) أن جل أمناء المدن من عائلات موسرة ومشهورة تنتمي إلى مراكز حضرية معلومة⁽³²⁾. ففي مغرب القرن الماضي كانت الثروة المادية والنسب العائلي وبدرجة أقل المستوى العلمي، عوامل تلعب دورا أساسيا في ترقية الأشخاص داخل السلم الاجتماعي، وتكاد تكون مكانة الفرد في المجتمع مقترنة بالعائلة التي ينتمي

30 - علق مبيج على هزلة التكوين الأولي بقوله "كان طلبة البعثات تنقصهم المعارف الأولية التي كان من الممكن أن تجعل مقامهم بأوربا مقيدا".

Miège (J.L.), op.cité, T.IV,p105.

أنظر أيضا:

I.AROUI (Abd), op.cité, p285.

31 - CHAILLE (Jasques), op.cité, p 139.

32 - نعيمة التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان المولى الحسن، ص 59.

إليها، وبالتالي فإن الكفاءة الفردية نادرا ما كانت تقدر حين تتاح لها إمكانية التعبير⁽³³⁾.

لقد كان «السلطان أعرف بالبيوت العتيقة والأنساب الأنيقة والأحساب الوثيقة، إذ له النظر في أهل الترشيح»⁽³⁴⁾، فهل تنطبق هذه المعايير على الطلبة الذين رُشِّحوا للذهاب إلى أوروبا؟

إن الأمر يختلف بالنسبة لموضوعنا، لأننا حيال شخصيات لم تكن مكلفة بمهمة مخزنية أو تتولى مناصبا سياسيا، بل شخصيات حظيت بامتياز عن أبناء جيلهما وهو السفر إلى بعض الأقطار الأوربية للتكوين في عدة ميادين علمية وعسكرية، وذلك في أفق أن ترتقي إلى هذه المناصب.

فمن خلال قائمة أسماء أفراد البعثات التي أوردها ابن زيدان في مؤلفه «العز والصولة» الجزء الثاني⁽³⁵⁾ لا نعثَر فيها على أسماء تنحصر من عائلات لها شهرتها باستثناء بعض العناصر المعدودة، بل على العكس من ذلك نجد نصا صريحا بصدد الأصل الاجتماعي للطلبة المرشحين، إذ عقب (إيركمان) على طريقة اختيار طلبة البعثات بقوله: «...لقد كان من الأفضل لو أوفد السلطان إلى أوروبا طلبة ينتسبون إلى عائلات عريقة ليتلقوا تكوينا بمعاهدها بدل أن يبعث طلبة مغمورين»⁽³⁶⁾.

لقد كان أغلب هؤلاء الطلبة ينتمون إلى بعض العائلات المرتبطة تقليديا بالسلطة المركزية، وأساسا عائلات الجيش التي كان يتقلد أفرادها بعض المهام المخزنية، وخاصة العائلات المنتمية إلى قبائل الأوداية وبخاري، إذ نصادف في أغلب البعثات أسماء تحمل هذا النسب كعبد السلام الودي، والمختار الرغاي البخاري عن البعثة

33 - CHAPI (Mustapha) : « Quelques Grandes Familles du Makhzen Marocain au XIX siècle d'après Ibn Zaidane, p192.

أنظر أيضا:

مصطفى الشابي، النخبة المغربية في القرن 19، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع8، س 1982، ص304.
KERDEC : « Un boulevard de l'Islam », Tanger 1895, Madrid, p86.

34 - محمد العربي المشرفي، الحسام المشرفي، مخطوط ضمن مجموع خ.ع.ر رقم ك 2276، ص249.

35 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، صص160-150.

36 - ERHMAN (j), op. Cite, PP96-97.

نفس الملاحظة أوردها جاك كايي في مقاله عن بعثة مونبوليه.

Caille (J), op.cité, p144.

الطالبة الأولى التي قصدت إيطاليا⁽³⁷⁾، كما نجد قاسم الودي والطاهر بن الحاج الأودي الذين شكلا إلى جانب محمد الكعاب الشركي قوام البعثة الطلابية التي أوفدها الحسن الأول إلى فرنسا⁽³⁸⁾ بل نصادف بعض البعثات التي كانت تركيبتها مشككة في معظمها من عناصر تنتمي إلى بخاري، وهكذا نقراً أسماء مثل إدريس البخاري والعرفاوي البخاري ومحمد حيات البخاري والجيلاني بن مبارك البخاري وغيرهم⁽³⁹⁾، وفي تقديرنا فإن هيمنة هذا العنصر تعود إلى تغلغل الروح القبلية في نفوس بعض كبار الموظفين لاسيما قواد الجيش⁽⁴⁰⁾، الذين تمكنوا من الوصول إلى شغل مناصب مخزنية هامة كالعمالة والقيادة على البوادي والمدن خصوصاً إذا علمنا أن بعض هؤلاء قد كلفوا من طرف السلطان باختيار الطلبة كالقائد الحاج عمارة بن عبد الصادق البخاري⁽⁴¹⁾، فأنشروا ترشيح عناصر تنتمي إلى أسرهم ونسبهم.

على أننا نصادف ضمن أفراد البعثات بعض الطلبة وهم قلة ينتمون إلى «البورجوازية» الصغرى المتمركزة بالمدن⁽⁴²⁾، فقد وقفنا على رسالة سلطانية تنص الأوامر صراحة على اختيار الطلبة من أسر الأعيان... ويعد فنامرك أن تعين خمسة من أولاد أعيان خدامنا أهل سلا...»⁽⁴³⁾.

والجدير بالتسجيل أن الطلبة المنحدرين من هذه الأسر هم بالضبط الذين تمكنوا بعد عودتهم من شغل مناصب في الجهاز المخزني⁽⁴⁴⁾.

كذلك نصادف من جملة الشبان الذين وقع عليهم الاختيار أسماء بعض العناصر التي تنتمي إلى عائلات اشتهرت باهتمامها بالعلم وتقلد أفرادها بعض المناصب المخزنية، فالمصادر تذكر عن الطالب العربي حركات أحد أعضاء البعثة التي قصدت إيطاليا عام (1295هـ/1878)

37 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

38 - نفسه، ص151.

39 - نفسه، ص155.

40 - مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص300.

41 - مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص456.

42 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p289.

43 - رسالة من الحسن الأول إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي بتاريخ 10 رمضان المعظم عام 1294.
من وثائق آل بن سعيد، أوردها المتون، مرجع سابق، ص148.

44 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p289.

(45) أن هذا الأخير ينحدر من إحدى أسر أعيان مدينة سلا التي اشتهرت بتعاطيها العلوم والآداب، وخلف بعض أفرادها تأليف متنوعة من نوازل وأراجيز وغيرها، كما تولى بعضهم مسؤوليات في الجهاز المخزني في العهد الحسني والعزيمي كعامل لمدينة سلا أو خليفة لأمين المستفاد وغيرها من المناصب⁽⁴⁶⁾. ومن نفس المدينة نذكر الطالب محمد النجار أحد أفراد البعثة التي أوفدها السلطان إلى ألمانيا ودرس بمدينة (أولم ULM) سنة 1302هـ/1884) حيث كان ينحدر هو الآخر من أسرة علم⁽⁴⁷⁾، وإن كانت أقل شهرة من الأسرة السابقة الذكر.

أما عن مواطن الاختيار، فأقول ما نلاحظه هو غياب العنصر البدوي، ذلك أن جل أفراد البعثات ثم اختيارهم من مراكز حضرية معلومة كسلا والرباط ومكناس وفاس والعرائش، ولذلك تفسيره الواضح بالنظر إلى أن سكان المدن كانت حظوظهم أوفر بكثير من حظوظ سكان البوادي لتحصيل المعرفة والثقافة، ولا شك أن اختيار الطلبة من المدن الداخلية المذكورة راجع إلى تردد السلطان باستمرار عليها، وإلى نشاط حركة تدريس العلوم الرياضية والعسكرية بهذه المدن كالحساب والفلك والهندسة⁽⁴⁸⁾، فضلا عن قدم العلاقات التقليدية التي كانت تربط المخزن بفئات اجتماعية تنتمي إلى هذه المدن⁽⁴⁹⁾. أما بخصوص المدن الشاطئية فيمكن أن يعزى ذلك إلى التطور الفكري التي شهدته هذه المدن بالقياس إلى باقي المدن المغربية، ولكونها كانت أكثر تفتحا على العالم الخارجي عن غيرها⁽⁵⁰⁾. وذلك بحكم تمركز الأقليات الأجنبية بها، وهي مميزات تفسر لنا - كما أشار العروي - كون دعاة الأفكار الجديدة في مغرب القرن التاسع قد برزوا من هذه المدن.

45 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص468.

46 - عبد الله بن العباس الجراري، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا، الجزء الثاني، طبعة الرباط بدون تاريخ، ص368.

محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز (تاريخ العدوتين)، تحقيق مصطفى بوشعرا، من منشورات الخزانة الصيحية بسلا 1406/1986، ص159.

47 - نفسه، ص173.

48 - أنظر تفاصيل هذا النشاط العلمي عند محمد المنوني، مرجع سابق، ص141-137.

49 - مصطفى الشابي، النخبة المغربية في القرن التاسع عشر، ص302.

50 - عبد العزيز التمساني، خلو، الإصلاحات، الحضرة الأوربية بطنجة وردود الفعل المغربية، مجلة دار النيابة، العدد الأول السنة الأولى، يناير 1984، ص59.

3) النفقات المالية:

من المعلوم أن مشروع إيفاد بعثات طلابية إلى الأقطار الأوربية بقصد التعليم والتكوين، قد تطلب بالضرورة نفقات مالية لإنجازه، غير أن المصادر المتوفرة تلوذ بالصمت بخصوص هذا الجانب، باستثناء بعض الإشارات المقتضبة التي لا تسعف الدارس في تقديم صورة واضحة ومفصلة حول التغطية المالية للبعثات الطلابية.

فبناء على إشارات وردت في بعض الوثائق بصيغة جد عامة مثل «...ويكون صائره على جانب المخزن»⁽⁵¹⁾ أو «...فقد أمرنا الأمناء بأن ينفذوا لهم ما يتوقفون عليهم لسفرهم...»⁽⁵²⁾، نعلم أن المخزن هو الذي كان يتكف بنفقات السفر ومستلزماته، ومصاريف إقامة الطلبة بالديار الأجنبية.

ولا يمدنا المؤرخ ابن زيدان بأية إفادة حول الموضوع، إذ اكتفى بقوله «...وأجرى عليهم النفقات الكافية»⁽⁵³⁾، وبنفس العمومية أكد ذلك الطالب الحسين الزعري في مذكرته «...وسنة 1293 وعلى نفقة المخزن السعيد وعن أمره سافرت إلى الديار الإنجليزية»⁽⁵⁴⁾.

وبالنظر إلى حجم الإصلاحات التي كان السلطان الحسن الأول يروم إدخالها للنهوض بالبلاد، يتبين أن الأهداف كانت طموحة في الوقت الذي كانت فيه الإمكانيات محدودة⁽⁵⁵⁾، إذ إلى جانب اقتناء الأسلحة من بلدان أوربية بأثمان باهظة، وتأدية رواتب الخبراء الأجانب وإصلاح الموانئ وغيرها من المشاريع كان على السلطان أن يغطي نفقات البعثات الطلابية إلى الخارج⁽⁵⁶⁾، ولعل تحمل المخزن نفقات بهذه الضخامة هو ما يفسر لنا شكوى السلطان الحسن الأول إلى

51 - من رسالة بعثها السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش بتاريخ 10 رجب 1299، أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج2، ص ص470-471.

52 - من رسائلها بعثها الحسن الأول إلى محمد بركاش بتاريخ 20 محرم فاتح عام 1293، نفس المصدر، نفس الصفحة.
53 - نفسه، ص 465.

54 - عبد الغني سكيرج، مذكره الزير سكيرج، ص29.

55 - نعيمة التوازاني، مرجع سابق، ص295.

56 - Miège (J.L), op.cité, T.III,p238.

ويمكن أخذ فكرة عن قيمة المصاريف المالية التي أنفقت على شراء الأسلحة بالاطلاع على بعض الوثائق التي وقفنا عليها بالخزانة العامة بتطوان نذكر منها محفظة -8/23محفظة -7/89محفظة 8/61، وكذا بعض الكنايش والسجلات المخزنية الخاصة بشؤون الجيش ومصاريفه المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط وكمثال كناش رقم 302-كناش 303 - كناش رقم 327 وغيرها، فضلا عن الوثائق الأجنبية.

ممثله بطنجة في الرسالة التالية «...المخزن اليوم واجب أن يسان، ولا يخفak ما نخرجه كل شهر من مشاهرات النجليز والصبنيول والآلات الجهادية والبناء لها»⁽⁵⁷⁾.

لقد وقفنا على وثيقة واحدة في هذا الصدد تفصح بمعلومات وافية نسبيا وغير دقيقة بخصوص البعثة التي كانت تتابع تكوينها بمدينة باريس، والتي يمكن اعتمادها كمثال لتوضيح هذا الجانب من موضوعنا، وهذا نص الوثيقة: «خديمنا الأرضي الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: وصلنا كتابك بأن نائب الفرنسيس طلب منك مشاهرة المتعلمين الذين بباريز عن تسعة أشهر وقدرها خمس عشرة مائة ريال وأربعة وستون ريالا، وطلبت تنفيذ ذلك له، وإصدار أمرنا الشريف للأمناء بدفع واجب كل ثلاثة أشهر في المستقبل، فقد أمرناهم بتنفيذ العدد المذكور له، وبأن يكونوا يدفعون واجب كل ثلاثة أشهر في المستقبل، وكتابنا الشريف لهم بذلك يصل طيه، والسلام في 11 رمضان عام 1297»⁽⁵⁸⁾.

إن أول ما يستشف من الوثيقة السابقة، هو عدم انتظام أداء المنحة⁽⁵⁹⁾، حيث تراكت على البعثة نفقات مدة تسعة أشهر جعلت ممثل فرنسا بالمغرب يطالب المخزن في شخص نائب السلطان بواجب تسديدها، مؤكدا على ضرورة احترام موعد إيفائها على رأس كل ثلاثة أشهر استقبالا كما يستفاد من الوثيقة أن مصدر هذه النفقات كان يأتي من مداخيل أمانة المراسي، حيث كان الأمناء مكلفين بصرف النفقات الضرورية للدولة، ومن بينها المنح الدراسية لفائدة أفراد البعثات الطلابية⁽⁶⁰⁾.

أما عن قيمة المنحة التي كانت تسلم للطلبة، فمن الصعب تحديدها⁽⁶¹⁾،

57 - من رسالة السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش بتاريخ 14 ربيع الأول، عام 1297، أوردها ابن زيدان في "الإتحاف" ج2، صص 406-407.

58 - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش أوردها ابن زيدان في الإتحاف، ج2، ص 470.

59 - يؤكد هذا الاستنتاج ما أورده جاك كايي بخصوص التأخر الحاصل في أداء المصاريف التي تطلبها إقامة البعثة المغربية التي توجهت إل مونيوليه.

CAILLE (Jacques), op.cité, pp. 134-135.

60 - نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص 107 و ص 285.

61 - ذكر كايي في مقاله عن بعثة مونيوليه أن الطلبة كانوا يتقاضون فرنكين اثنين في اليوم لكل طالب يؤدي منها فرنكا يوميا للأكل.

CAILLE (Jacques), op.cité, p. 134.

لعدم معرفتنا فيما إذا كانوا يتقاضونها خلال كل شهر أو ثلاثة أشهر أو أكثر وبشكل منتظم، فضلا عن صعوبة تحديد معادلة العملة المغربية بالعملة الأجنبية، إذ في الوقت الذي كانت قيمة المئقال المغربي تساوي قيمة الريال الأجنبي سنة (1238هـ/1822م)، أصبح نفس الريال يساوي سنة (1306هـ/1888) سوى اثني عشر مئقال⁶². وإذا كانت الوثيقة تطلعننا على قيمة مبلغ النفقات التي استلزمته إقامة البعثة الطلابية مدة ثلاثة أشهر، فإنه لا يمكن الجزم بأن هذا المبلغ كان قارا، ويمكن تعميمه على باقي البعثات المقيمة بالبلدان الأوروبية الأخرى، ويتأكد هذا التحفظ بناء على ما وقفنا عليه في مراسلات أحد أفراد نفس البعثة التي صدرت بشأنها هذه الرسالة، وهي مراسلات الطالب محمد الكعاب مع بعض أفراد عائلته وبعض المسؤولين المخزنين، فقد وردت في رسالة جوابية من أخيه تفيد أن الطلبة كانوا يتقاضون منحة تقدر بثلاثين مئقال دون أي تحديد زمني: "...وقلت أنكم ببلد باريس منذ سنتين وثلاث أشهر، وتقبضون ثلاثون مئقالا 30، وكل ما ذكرت من أكل وشرب..."⁶³.

إن هذه الإشارات المقتضية تبقى في حدود أرقام بدون دلالات دقيقة تسمح بإعطاء صورة واضحة ومفصلة عن الجانب المالي وانعكاسه السلبي أو الإيجابي على وضعية الطلبة وظروف دراستهم بالديار الأجنبية.

ولحسن الحظ نستطيع استنادا إلى ما توفر لنا من مقيدات خاصة أن نؤكد على صعوبة الوضعية المادية التي كان يعيشها الطلبة المغاربة من خلال نموذج البعثة الطلابية التي كانت تدرس بباريس ومن بعد بلجيكا.

لقد بعث الطالب محمد الكعاب رسالة على شكل تقرير إلى النائب السلطاني محمد بركاش بتاريخ 18 يونيو 1884 أثناء تواجده هذا الأخير بمدينة سيرن (Seraing) البلجيكية، وهي المدينة التي كانت تقيم فيها هذه البعثة، وقد هدف من وراء هذه الرسالة أن يطلع المسؤول المغربي على وضعية البعثة الطلابية التي كانت تضم عشرين طالبا، كلف الطالب الكعاب بالإشراف عليها بأمر من النائب السلطاني، وقد

62 - آفا عمر، مشكلة النقود ومحاولات الإصلاح في مغرب القرن التاسع عشر، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص 83.

63 - من، م.ط.ك.

ضمن رسالته هاته توضيحات مفصلة حول مستلزمات إقامة هذه البعثة، والمصاريف التي سيتطلبها تكوين الطلبة من حيث الملبس ورواتب الأساتذة المشرفين على تدريسهم ومقادير المنحة الواجب تسليمها لهم⁽⁶⁴⁾.

وتكمل هذه الرسالة، رسالة ثانية في نفس الموضوع بعثها الطالب محمد الكعاب إلى الوزير الحاجب أحمد بن موسى، تكشف لنا عن معاناة الطلبة، والمصاعب التي صادفوها، وذلك من جراء عدم توصلهم منذ مدة طويلة بما يحتاجونه من نفقات مالية لمواصلة تكوينهم، وما ترتب عن تراكم الديون عليهم من المسؤولين البلجيكيين الذين كانوا ينفقون عليهم، حيث أصبحوا موضع إهانة واحتقار، مما جعلهم يأملون في الحصول على أمر السلطان بالرجوع إلى وطنهم كما يفيد نص رسالة الكعاب «...والآن فلتفهم سيادتكم أن هذه سبعة أعوام ونصف مفقودين على الأهل والوطن، والأعداء لا ينظرون إلا بعين الاحتقار (...) وعليه فالمرجو من كمال فضل سيدي علينا وعلو همته أن يكون شفيعا لنا عند سيدنا نصره الله، لينظر من حالنا ويجود علينا بطلق سراحنا لصلة الرحم...»⁽⁶⁵⁾.

يتبين لنا من خلال نموذج هذه البعثة التي توفر لنا بشأنها بعض المعلومات مدى الفرق الكبير بين نوايا السلطة العليا من وراء هذه المبادرة وطرق تنفيذها من طرف المسؤولين المخزنين⁽⁶⁶⁾ وفي ذلك نقف على أصل عامل آخر كان وراء إخفاق هذه التجربة الإصلاحية كما سيأتي تفصيله في فصل لاحق.



64 - من، م.ط.ك (بالفرنسية) أنظر الملحق.

65 - أحمد مغنينو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول، ص 225.

66 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 39.

الفصل الثاني

مقاصد البعثات

1) توضيحات أولية:

قد تكون من باب المبالغة القول إن السلطان الحسن الأول قد توخى من وراء إيفاده البعثات التعليمية إلى أوروبا، بلوغ أهداف مرسومة وفق برنامج موضوع بكل دقة وتكامل، واستراتيجية مبنية على تصور واضح للشروط الموضوعية والإمكانات المتوفرة، وإذا جاز الحديث عن أهداف لهذه المبادرة، يمكن القول إن هذه الخطوة الإصلاحية استهدفت توفير الكفاءات الوطنية اللازمة لتنفيذ المشاريع التي تبناها السلطان أو فكر في إنجازها، ذلك أن اللجوء إلى الخبراء والتقنيين والأجانب، والاستعانة بهم في الإشراف على هذه المشاريع لا يمكن إلا أن يكون ظرفيا، بالنظر لما يترتب عنه من عواقب سلبية على مستقبل البلاد، لاسيما تصاعد التنافس بين القوى الأوربية التي يمثلها هؤلاء الخبراء، وتوسيع النفوذ الأجنبي عن طريق ممارستهم للوظائف الحيوية بالبلاد، من هنا فإن العمل على تهنيء شبان مغاربة للاضطلاع بالمهام التقنية المختلفة⁽¹⁾، وتكوين أطر مغربية تكوينا عصريا⁽²⁾، بغية الاعتماد عليها بعد عودتها للنهوض بالمراقق الحيوية من أشغال عمومية ودفاع وغيرها⁽³⁾، كان الهدف الرئيس من وراء إرسال البعثات للدراسة والتكوين الحديث بمختلف المعاهد الأوربية.

1 - Miège (J.L), op.cité, T.III,p222.

2 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p285.

3 - A.G.V. « Rapport du c. Vallois n°4, Meknès, le 1 mai 1884, p5.

أنظر أيضا:

- قاسم الزهيري، اتصال المغرب بالتعليم العصري، مجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة الثانية، ص23.

- نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص44.

إذا ما تأملنا في المواد التي تخص طلبة البعثات في دراستها بأوروبا، يتبين لنا أن مادة الهندسة⁽⁴⁾ وغيرها من العلوم المرتبطة بالمجال العسكري كانت تصدر قائمة هذه المواد والملفت للانتباه أن أغلب الحركات الإصلاحية الرسمية التي شهدتها بعض أقطار العالم الإسلامي في القرن الماضي، جعلت بحق من مادة الهندسة تحديدا المادة المطلوب تعلمها والتوسع في تحصيل فروعها أكثر من غيرها، فالسلطان العثماني سليم الثالث (1807-1789) كانت أولى خطواته الإصلاحية هي تأسيس مدارس جديدة لتدريس الهندسة وغيرها من المواد العلمية تكون خارج سلطة وتأثير المدرسة التقليدية⁽⁵⁾. ولما كان هم محمد علي في المقام الأول هو إصلاح الجيش، فإن أولى مبادراته في هذا الاتجاه تمثلت في إنشاء مدرسة الهندسة أو المهندسخانة في القلعة سنة 1816 لتمد الجيش ومؤسساته بالفنيين والمهندسين الأرميين⁽⁶⁾، أيضا نجد في تونس أن أول ما افتتح به الباي أحمد باشا (1855-1837) حركته الإصلاحية هو تأسيس مدرسة عسكرية (مدرسة باردو الحربية) سنة 1804 تدرس بها أساسا الهندسة والرياضيات والجغرافيا واللغات الأجنبية⁽⁷⁾.

فكيف يمكن تفسير هذه الأولوية التي حظيت بها هذه المواد ضمن العلوم المبتغى تحصيلها واقتباسها من الغرب كما هو الشأن بالنسبة للبعثات التعليمية في عهد السلطان الحسن الأول؟

لا شك أن ذلك يكمن في أن معاينة ووعي العرب والمغاربة لتقدم الغرب كان وعيا بتفوقهم العسكري، ولم يكتشفوا في البداية المبتكرات الغربية الحديثة إلا في صيغتها العسكرية، لذا جاءت بداية القبول

4 - كتب العربي المشرفي مبرزا -وجهة نظره- دور الهندسة في ظهور بعض المخترعات الحديثة ما يلي: "...وبكثرة تصرف الروم والترك في علم الهندسة أدركوا ما لم تدركه الأمم الماضية، حفي حدود الأربعين من هذا القرن اخترعوا البابوات البحرية...".

أي حامد العربي المشرفي، نزعة الأبحار لدى المعرفة والاستبصار، مخطوط خ.ع.ر، رقم ك 579، ص 527.

وحول تزايد إقبال الطلبة المغاربة على دراسة الهندسة أنظر ما كتبه/

محمد بن سعيد الصديقي، إيقاظ السريرة لتاريخ الصورة الجزء الأول، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، دون تاريخ، ص 24.

5 - د.خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة المؤثرات العربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطبعة بيروت، يونيو 1981، ص 108.

6 - د.معن زيادة، معالم علي طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1987، ص 108.

7 - الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية.

بالأخذ عن التجربة الأوربية الحديثة بداية عسكرية صرفة⁽⁸⁾، وبالنظر إلى أن الهزيمة كانت في مظهرها هزيمة عسكرية، فمن الطبيعي وفق الوعي الحاصل لدى الجهات المسؤولة والمتقفة أن يكون التدارك عسكريا⁽⁹⁾، من هنا يمكن إدراك هاجس التطلع لاكتساب تلك القوة العسكرية بالتركيز على تدريب الجنود على أساليب الحرب الحديثة، واللجوء إلى الغرب ومعاهده المتخصصة لاكتساب العلوم التي كانت وراء تفوقه العسكري، وفي طبيعتها الهندسة العسكرية والرياضيات والجغرافيا وغيرها من العلوم اللازمة لتحديث المؤسسة العسكرية وتطويرها تلك كانت حدود الوعي الموجه للإصلاحات الرسمية التي جعلت من مسألة تحديث الجيش منطلق وبؤرة وغاية كل إصلاح⁽¹⁰⁾، لذا ليس غريبا بخصوص البعثات التعليمية التي قصدت أوروبا للدراسة بمعاهدها العسكرية أن يتم التركيز على تحصيل العلوم ذات الارتباط بالمجال العسكري.

غالبا ما تمت الإشارة إلى البعثات التعليمية إلى أوروبا بصيغة عامة دون تمييز بين طبيعتها وعناصرها وأهدافها⁽¹¹⁾، ولعل مرد ذلك إلى صعوبة استخلاص هذا التمييز⁽¹²⁾ من المادة المتوفرة والمتمثلة أساسا في السجل الإجمالي الذي أورده ابن زيدان في مؤلفه «العز والصولة»⁽¹³⁾، وهي المادة التي شكلت قوام كل حديث من قريب أو بعيد عن موضوع البعثات، غير أن توظيف هذه المادة وحدها لا يخلو من إشكالات نتج عنها أحيانا خلط في تواريخ توجيه هذه البعثات

8 - د. معن زيادة، المرجع السابق، ص 90.

9 - د. مهن زيادة، الحل السياسي عند رواد النهضة، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص 117.

10 - عبد الله العروي، تاريخ المغرب محاولة في التركيب، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977، ص 379.

وأنظر ما كتبه نفس المؤلف بصدد الإصلاح الرسمي في كتابه مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1981 ص 130-133.

11 - كنماذج من هذه الأعمال نحيل على: عبد العزيز بنعبد الله، تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة، الجزء الثاني مكتبة المعارف، الرباط بدون تاريخ ص 88-86.

الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1986، صفحات: 405-404-393.

12 - لقد أشار العروي في دراسته إلى صعوبة هذا التمييز.

LAROU (Abd), op.cité, p286.

13 - ابن زيدان، العز والصولة، الجزء الثاني، ص 162-148.

وأصنافها، ولم يتم التمييز بين البعثات التي كانت بهدف تدريب الجنود على أساليب الحرب الحديثة وتعويدهم على استعمال الأسلحة الجديدة، وغالبا ما كانت وجهة هذه البعثات الأكثر عددا هي جبل طارق، ثم البعثات المكونة من عناصر قليلة بالقياس إلى السابقة الذكر، وهي التي قصدت مختلف الأقطار الأوروبية لتلقي تكوينا عاما في بعض العلوم العصرية ومن ضمنها طبعا العلوم العسكرية⁽¹⁴⁾، كما تم إيفاد بعثات تتشكل من بعض الصناع والحرفيين قصد تلقي تعليم أولي وصقل مهنتهم، هذا فضلا من البعثات التي كان السلطان الحسن الأول يكلف أعضائها باقتناء الأسلحة من الشركات والمعامل المختصة كشركة كروب Krupp بإيسن Essen⁽¹⁵⁾، وقد كان من أعضائها بعض الطلبة الذين درسوا بأوروبا⁽¹⁶⁾ وبعض الشخصيات المخزنية التي تخصصت في مثل هذا النوع من التجارة خاصة عائلة بركاش كما يستفاد من الوثائق الأجنبية⁽¹⁷⁾.

وباستثناء دراسة الأستاذ محمد المنوني التي اهتمت أساسا بالتعريف وعرض مادة ومضام موضوع البعثات، فإن بعض الدارسين الذين تطرقوا عرضا لجوانب من هذا الموضوع في سياق أبحاثهم، قد وقعوا في بعض الأخطاء نستدل بأمثلة منها:

لقد أشار أحد الباحثين أن سنة (1299هـ/1881م) سجلت تشكيل بعثة تخصص عشرة من أعضائها للدراسة في قيادة السفن والميكانيك، وأربعة لتعلم العلوم البحرية، بينما وزع ثلاثون تقنيا في البحرية على بواخر الإنجليز والفرنسيين والألمان والإسبان والإيطاليين⁽¹⁸⁾. وهو تأويل خاطئ لما ورد في الرسالة السلطانية الخاصة بهذه البعثة⁽¹⁹⁾، إذ

14 - A.G.V « Rapport du stholl et C Maurois, Alger juin 1877, p50.

Miège (J.L), op.cité, T.IV, p97.

15 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص 227.

16 - عبد الغني سكيج، مذكرة الزبير سكيج، ص 30.

أحمد معنيو، مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة، مجلة دعوة الحق، العدد الأول السنة الثانية عشرة، نوفمبر 1968، ص 145.

17 - A.E.P.C.P Maroc, n°26, Rapport : Tanger le 8 juin 1884 vol 48.

E.P.C.P Maroc, n°26, Rapport : Tanger le 11 septembre 1881.

18 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 38.

19 - رسالة من الحسن الأول إلى محمد بركاش بتاريخ 10 رجب عام 1299، أوردها ابن زيدان في العز والصولة، ج 2، ص 149-148 الإتحاف، ج 2، ص 471-470.

لم يتعد عدد أفراد هذه البعثة ثلاثون طالبا عوض خمسة وأربعون كما يستخلص من التأويل السابق.

كما ذكر أحد الدارسين أن السلطان الحسن الأول «وجه عددا من الشبان المغاربة لدراسة الطب في أوروبا»⁽²⁰⁾، واستنادا إلى ما توفر لنا من مادة، لا نعلم أن بعض طلبة البعثات قد تخصصوا في دراسة الطب⁽²¹⁾، بل الأمر كان يتعلق فعلا بمحاولة تكوين وإعداد طلبة في الميدان الطبي بالمستشفى الإسباني بمدينة طنجة وليس بأوروبا، حيث يستفاد من بعض الوثائق الرسمية أن إسبانيا كلفت سفيرها بالمغرب بفتح مدرسة بطنجة، بهدف تدريس الطب الجراحي لمن ابتغى تعلمه كما تفصح عنه الرسالة السلطانية التالية: «الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا وولانا محمد وآله، خديمنا الأرضي الحاج محمد بن العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، وصلنا كتابك وبطيه ما كتب لك به بإشذور إسبانيا من أن دولتهم كلفت الحكيم الرسمي بفتح مدرسة بطنجة بقصد تعلم علم الطب الجراحي بها لمن أراد تعلمه وإمرته بإعلام حضرتنا الشريفة لأنمر بتوجيه من يتعلم بها ذلك في غير هذا صحبتة والسلام 22 جمادى الثانية عام 1304»⁽²²⁾. وفعلا سيتم الاهتمام بتكوين ستة طلبة مغاربة لا تفصح الوثائق عن أسمائهم بهذا المستشفى، على يد طبيب إسباني تحت نفقة المخزن وتأمينه لهم حاجاتهم ولوازمهم المختلفة من مؤنة وكسوة وغيرها⁽²³⁾. وقد استمر تكوين هؤلاء إلى حدود عهد السلطان مولاي عبد العزيز⁽²⁴⁾، تلك كانت بعض التوضيحات الأولية التي ارتأينا الوقوف عندها قبل التعريف بأهم البعثات التعليمية.

20 - عبد العزيز بتعبد الله، الموسوعة المغربية، الجزء الرابع مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية، 1401/1981، ص 247.

21 - نستنتج هنا حالتين، تتعلق أولاهما بأحد أولاد السقاط الذي رغب في تعلم علم الطب ووافق إحدى البعثات الموفدة إلى جبل طارق سنة (1293هـ/1876م). أنظر بهذا الصدد: رسالة من الحاجب الوزير موسى بن أحمد البخاري إلى باشا فاس تتعلق بطلبة مغاربة يتعلمون بجبل طارق مؤرخة بـ 3 رجب عام 1293/25 يوليوز سنة 1876م. عن مجلة الوثائق: الجزء الثالث، ص 459-460. والحالة الثانية تخص الطالب أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن قاسم التمساني (ت عام 1347-1928م) الذي أحرز على شهادة في علم الطب بأوروبا حسب ما أورده محمد المنوني نقلا عن مصادر خاصة أنظر: محمد المنوني، مرجع سابق، ص 256.

22 - من وثائق خ.ع.ت، محفظة 5/55.

23 - من وثائق خ.ع.ت، محفظة 11/131.

24 - من وثائق خ.ع.ت، محفظة 15/107، محفظة 13/130، محفظة 18/94.

(2) البعثات إلى مصر:

أول ما تجدر الإشارة إليه بخصوص هذه البعثات التي لا تتوفر بشأنها على معلومات كافية، أنها خلفت على قلة أعدادها نتائج فكرية تفوق بكثير تلك التي وصلتنا عن البعثات التي توجهت إلى مختلف الأقطار الأوروبية، إذ يمكن اعتبار عبد السلام العلمي (ت عام 1323هـ/1905م) ⁽²⁵⁾ أحد أعضاء هذه البعثات من أبرز مثقفي عصره ⁽²⁶⁾ بالنظر إلى ما خلفه من تأليف عديدة في مواضيع علمية متنوعة ⁽²⁷⁾.

ومن الملاحظ أيضا أنه إذا كانت أغلب البعثات التي أرسلت إلى أوروبا كانت في الغالب بقصد تحصيل مختلف أنواع العلوم العسكرية وغيرها، فإننا نجد بعض البعثات ⁽²⁸⁾ التي قصدت مصر قد ارتبط هدف إرسالها بالحاجة إلى توفير الكفاءة المحلية اللازمة لتسيير مؤسسة المطبعة التي كان من المنتظر من إدخالها أن تساهم في تحديث البلاد وأن تعمل على توسيع دائرة وحجم النشاط الفكري ⁽²⁹⁾.

ومن أول وأهم هذه البعثات التي توجهت إلى مصر على عهد الخديوي محمد سعيد باشا لتلقي العلوم الرياضية ⁽³⁰⁾، تلك التي كان

25 - عن ترجمته وأعماله أنظر:

محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص 456-460.

محمد المنوني، مرجع سابق، ص 240-244.

Marthe et Edmond Couvion/ Kitab haayane al Mahrib Aksa-esquisse générale des Maghreb de la Genèse à nos jours et livre des grands du Maroc, librairie orientaliste, Paul Guethner, paris 1939, pp474-475.

26 - عبد الله كتون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص 20.

27 - له تأليف قبل ذهابه إلى مصر، وأخرى بعد عودته شملت ميدان الطب ثم الفلك والرياضيات، وقد وقفنا على نماذج منها بالخزانة الصبحية بسلا.

28 - تضمن العدد الثاني من مجلة "الوثائق" أربع مراسلات بخصوص هذه البعثة (1285-1283هـ/1868-1866م) نبودلت بين أمين الأمانة الحاج محمد بن المهدي بنيس ووكيل المغرب بمصر محمد فروخ، وتكشف هذه المراسلات عن مجموع المصاريف التي أنفقت على المتدربين أنظر: مجلة الوثائق، العدد الثاني صفحات 420-431-432-433-434-435.

29 - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص 142.

30 - يلاحظ بصدد هذه البعثة اضطراب معلومات ابن زيدان عنها في مؤلفاته، فبينما ذكر في "النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية"، أن إيفاد البعثة قد صادف فترة حكم محمد علي، نجده يشير في "الدرر الفاخرة" أن ذلك تزامن مع فترة محمد سعيد باشا، كما يدرج خطأ اسم عبد السلام العلمي ضمن أفرادها في حين يتبين من المصادر أن هذا الأخير قد أوفده السلطان الحسن الأول سنة (1291هـ/1874م) لدراسة الطب بمصر. أنظر ابن زيدان، النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية، (أوراق منها) خ.ج. رقم 3177، ص 71.

- ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 95.

GOUVION (M.E), op.cité, pp 574-575.

من أعضائها محمد بن كيران وأحمد شهبون الذي رسم مجموعة من الخرائط ضمنها في كتاب عنوانه «كتاب الجغرافية العامة»⁽³¹⁾ إضافة إلى طلبة آخرون حسب ما أورده ابن زيدان⁽³²⁾، دون أن يفصح عن المصادر التي استقى منها معلوماته، ولا تاريخ إرسالها بالتحديد⁽³³⁾.

ومن بعد هذه البعثة الأولى أوفد السلطان محمد بن عبد الرحمان بعثتين، إحداهما تتعلق بثلاث صناعات رغب في تعليمهم بعض الفنون العسكرية⁽³⁴⁾، والأخرى كانت تخص طالبا وهو عبد القادر الشفشاوني ليتلقى تكوينا في فن الطباعة حسب ما يفيد نص الرسالة التالية: «الحمد لله؛ محبنا الأعز الأَرْضِي السيد الحاج محمد بن المدني بنيس، أَمَنَكَ اللهُ وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد، فإن طالبا من أهل الشاون وجهه سيدنا أيده لمصر بقصد تعلم كتابة المطبعة وكتب لوكيل المغاربة بمصر بأن تقوم بمؤنته وقال أيده الله أن الحاج محمد بن المدني بنيس ينفذ له ما يعيره في مؤنته من عند شريكه بمصر أو أحد أصحابه وعليه فلا بد أكتب لوكيل المغاربة بذلك وبين له من عند من يقبض ذلك ولا بد عن أمر سيدنا أيده الله وعلى المحبة والسلام في 11 صفر عام 1283، الطيب بن اليماني أَمَنَهُ اللهُ»⁽³⁵⁾.

وبموازاة تطور العلاقات الودية مع مصر على عهد الخديوي إسماعيل باشا⁽³⁶⁾ واصل السلطان محمد الرابع سياسة إيفاد البعثات التعليمية إلى مصر التي كانت متقدمة عن المغرب في أكثر من مجال⁽³⁷⁾، وهكذا شهدت سنة (1283هـ/1866م) تعيين وإعداد بعثة أربعة تضم ثلاثين فردا أوفدهم السلطان إلى مصر ليتلقوا تكوينا في ميدان الفنون الحربية⁽³⁸⁾، حسب ما تفصح عنه الرسالة السلطانية التالية:

31 - أحمد شهبون، كتاب الجغرافية المغربية وصورة الفلك خ.ج.ر رقم 11654.

32 - ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 95.

33 - وقد حدد المنوني تاريخ ذهاب هذه البعثة ما بين عام 1276هـ/1859م إلى عام 1280هـ/1863م). محمد المنوني، مرجع سابق، ص 156.

34 - نفسه، ص 157.

35 - مجلة الوثائق، العدد الثاني، ص. 420-421.

36 - راجع تفاصيل هذه العلاقات عند:

محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج 1، ص 66-61.

37 - إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال القرنين ونصف قبل الحماية، ص 28 و 35.

38 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص 157.

«خديمنا الأرضي الحاج محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد، فإن هذه الخطط الجهادية من علم البحر وتطبيقات ضعفت في الغرب حتى كادت أن تفقد، وقد اعتنى بها ملوك الإسلام في هذا الوقت فانتهقوا بها نتفاعل بينا، وأدركوا منها ما لم يدركه غيرهم، وق بلغ إسماعيل باشا اهتمامنا بالأمور الجهادية حيث وجهنا له من يتعلم عمل البارود وغيره على الكيفية المألوفة عندهم، فأجاب بأنه اعتنى بأميرهم (...)، فاقترضنا نظرنّا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك، من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك ثم نوجههم بعد لمصر، وأردنا انتخايمهم من أولاد الجيش البخاري وأهل فاس وأهل العدوتين وأهل الصويرة فنأمرك أن تنتخب أولاد خدامنا أهل سلا الصغار ثلاثة⁽³⁹⁾، وقد أمرنا عامل الرباط بانتخاب ثلاثة من أولاد الرباط ليكون ثلاث طبجية وثلاثة بحرية (...). وحين تعيينهم وجهوهم لحضرتنا الشريفة، بعد أن يدفع لهم الأمان ما يتزودون به، ويكثرُوا لهم ما يركبون عليه واصلين لحضرتنا العالية بالله فأطلعهم على كتابنا هذا ليعلموا بمقتضاه والسلام في 5 حجة الحرام عام 1283م»⁽⁴⁰⁾.

أما السلطان الحسن الأول فقد اكتفى بإيفاد بعثتين فقط إلى مصر، وذلك في بداية عهده، ضمت إحداها مجموعة من الطلبة مع اثنين من رجال الصناعة⁽⁴¹⁾، بينما كان قوام البعثة الثانية الطالب أحمد عبد السلام العلمي الذي قصد الديار المصرية لدراسة علم الطب كما يستفاد من أعماله⁽⁴²⁾.

39 - لقد عرف الباحث الحاج أحمد معنيو في مقال له عن البعثات بأسماء الطلبة الثلاثة المختارين من مدينة سلا وهم: المكي الزواوي ومحمد بلمعطي السفياي، ومحمد بن المختار معنيو.

الحاج أحمد معنيو، تكوين الأطر في عهد الحسن الأول، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة الثانية عشرة، ذو الحجة 1388هـ/مارس 1969، ص 179.

40 - من وثائق أسرة آل بن سعيد، أوردتها المنوني في كتابه: مظاهر رقطة المغرب الحديث، ج 1، ص 158-157 وأنظر أيضا الحاج أحمد معنيو، المرجع السابق، ص 179.

41 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص 158.

42 - أنظر نص الإجازة التي جاز عليها والمنشورة في كتاب COUVION(M et E), op.cité, p574. أحمد العلمي، ضياء البراس في حل مفردات الإنتطاي بلغة أهل فاس، المطبعة الحجرية، فاس 1318، ص 59.

3) البعثات التعليمية إلى أوروبا:

يقترن حدث إرسال البعثات التعليمية بعهد السلطان الحسن الأول إلى حد أصبحت تعرف عند الأوساط العامة بالبعثات الحسنية، غير أن هذا لا يعني أن مبادرة هذا السلطان بإيفاد طلبة للدراسة بمعاهد أوروبا كانت الأولى من نوعها، بل نجد بعض المصادر تتحدث عن مبادرات مماثلة سابقة عن هذه الفترة، وإن لم تكن بنفس الكثافة والانتظام اللذين ميز البعثات الحسنية.

ويمكن تأريخ البدايات الأولى لإرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا بتجربة السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1205-1171هـ/1757-1790م) الذي أرسل بعض الشبان المغاربة للدراسة بأوروبا، حسب إشارة غير مؤكدة أوردها المؤرخ الصديقي في مؤلفه بقوله: «...فمنهم ثلاثة يقال أن سيدي محمد بن عبد الله كان وجههم لأوروبا لتلقي علم الهندسة، ولم نتصل بتفصيل ذلك...»⁽⁴³⁾.

وإذا علمنا أن هذا السلطان قد أولى عناية فائقة لشؤون البحر وحرص على بناء أسطول قوي من حيث العدة والتأطير⁽⁴⁴⁾، فإننا لا نستبعد صحة هذه الواقعة خصوصا وأن بعض الكتابات الأجنبية تثبت ذلك، وإن بصيغة مغايرة نسيا «...وجه السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى كل من السويد وإنجلترا شيانا من مدينة الرباط للتدريب على بناء السفن والمراكب»⁽⁴⁵⁾.

ومن هذه التجارب الأولى تذكر بعض المصادر أن السلطان عبد الرحمان بن هشام قد وجه بعثة طلابية مكونة من أربعة أفراد إلى أوروبا لدراسة الهندسة⁽⁴⁶⁾، كما نعثر على إشارة أخرى تفيد أن السلطان

43 - محمد بن سعيد الصديقي، إيقاظ السريرة في تاريخ الصورة، صص 24-25.

44 - عن هذا الاهتمام يراجع:

محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، صص 169-170.

ابن زيدان، الإتحاف، ج3، صص 256-265.

45 - CAILIE (J) : « La petite histoire de Rabat, chérifienne d'éditions et de publicité, Casablanca, p132.

وعن هذه البعثة كتب عبد الهادي التازي منوها: «...وهل ننسى المبادرة الرائدة التي قامت بها الدولة منذ عهد الملك محمد الثالث بإرسال بعثة دراسية للخارج في سبيل تكوين أطرها».

عبد الهادي التازي، حرص ملوك المغرب عبر التاريخ على تحسين نوعية الأطر، ص27.

46 - أبي عبد الله العبدى الكانوني، جواهر الكمال في تراجم الرجال، الجزء الأول، المطبعة العربية، الطبعة الأولى

محمد بن عبد الرحمان قد أرسل بعثة طلابية إلى إحدى الدول الأوروبية لدراسة وتعلم فن الحرب حسب قول محمد المشرقي: «...وجه لتعلم الهندسة والحرب عددا من الطلبة أبناء المسلمين لبلاد الروم، فتعلموا ما يكفي من ذلك وما يحتاج إليه من علم الهندسة وكيفية حرب النظام...»⁽⁴⁷⁾. وإذا كانت هذه المبادرات الأولى قد تمت في نطاق محدود جدا، ولم تخلف أي أثر يذكر، فإن سياسة إيفاد البعثات قد شهدت نشاطا مكثفا ومتواصلا، وشملت عدة بلدان أوروبية على عهد السلطان الحسن الأول، وقد كانت أول وجهة قصدتها البعثات هي جبل طارق.

البعثات العسكرية إلى جبل طارق

تبين فيما سبق أن المسألة العسكرية قد حظيت بعد هزيمتي إيسلي وتطوان باهتمام واسع من أغلب الأوساط المغربية، من مخزن وعلماء وسفراء وكتاب وشعراء⁽⁴⁸⁾، وأصبح تحديث مؤسسة الجيش، والعمل على تأسيس قوة مسلحة ومدربة على النمط الحديث، مطلباً موضوعياً تقتضيه الوضعية المتردية التي آلت إليها هذه المؤسسة.

لقد كان انعدام تدريب القوات العسكرية، وجهلها لفنون وأساليب الحرب الحديثة، من أبرز مواطن ضعف الجيش المغربي كما كشفت عنه المواجهتان والكتابات المغربية والأجنبية، التي ظهرت عقبتها في شكل انتقادات للقوات المغربية من حيث تنظيمها وتعليمها وتدريبها⁽⁴⁹⁾، وتؤكد أن الحفاظ على الأسلوب العربي القديم والمتمثل في طريقة الكر والفر لم يعد مجدياً⁽⁵⁰⁾، ولا قادراً على مواجهة قوات منظمة تتحرك وفق إستراتيجية وطرق درستها بالمعاهد المختصة. من هنا ستولي

الدار البيضاء 1356، ص 14-13.

وقد اكتفى بذكر اسم أحد طلبة هذه البعثة وهو أحمد بن حيدة بن المهدي بن عبد السلام كراو والاسفي (ت1293)، ص13.

47 - محمد المشرقي، الحلل البهية، ص223.

48 - أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

49 - كامثلة نحيل على:

Xavier Dumieu : « Le maroc en 1844 la situation, les mœurs, les ressources de l'empire », in R.K.M. 1er octobre 1844 pp 249-660.

Charles de Mazude : « la guerre du maroc, in R.M.M Juillet 1860, pp427-457.

50 - الناصري، الاستقصاء، الجزء التاسع، ص 87-88.

لمسألة تدريب القوات المغربية داخل المغرب وخارجه الأولوية⁽⁵¹⁾ ضمن التدابير المتخذة من طرف المخزن بهدف تحديث النظام العسكري وتطويره، وقد كان السلطان الحسن الأول نفسه ميالا منذ صغره إلى الفن العسكري حسب ما تؤكد بعض المصادر⁽⁵²⁾، لذا نجده بموازاة استقدامه البعثات العسكرية الأجنبية لتدريب الجنود الرسميين على النمط الحديث قد حرص على مواصلة إرسال بعثات من الجنود إلى جبل طارق التي شرع فيها أبوه⁽⁵³⁾، حيث أوفد هذا الأخير ما بين سنتي (1870-1873م/1287-1290هـ) حوالي مائتي جندي إلى جبل طارق للتدريب العسكري⁽⁵⁴⁾.

وتتميز هذه البعثات عن غيرها التي قصدت المعاهد الأوربية بطبيعة أهدافها العسكرية المحضة، باعتبار أن المخزن هدف من إرسالها تدريب عناصرها على الحركات والطرق الحديثة، واستعمال الأسلحة العصرية، في أفق أن يتولوا بعد إنهاء فترة تكوينهم مهمة وتأطير وتدريب قوات الجيش المغربي⁽⁵⁵⁾، ويصدق هذا الهدف العسكري المحض أيضا على الطلبة الذين كانوا يرافقون أحيانا بعض هذه البعثات لتلقي المعارف الأولية في ميدان الطب العسكري.

وقد كانت هذه البعثات تقصد جبل طارق في أفواج متفاوتة العدد، وتخضع خلال مدة قد تستغرق سنة أو سنتين لتدريبات عسكرية مكثفة ومتنوعة على النسق البريطاني خاصة في ميدان المدفعية، وكان كلما أنهت بعثة مدة تدريبها تعود إلى المغرب لتعوضها بعثة أخرى⁽⁵⁶⁾.

51 - برادة ثريا، مرجع سابق، ص231.

52 - تحفل الوثائق والكتابات الأجنبية بشهادات دالة على مدى اهتمام السلطان الأول ورغبته في تطوير فعالية قواته خاصة في ميدان المدفعية، من هذه المظان نذكر:

A.G.V. Rapport du C. Stgolle c Maurois, Alger juin 1837, p37.

CHARMES (Gabriel), « une ambassade au Maroc, ed, CALMAN Levy paris, 1877, pp220-221.

COUFORIER (I) : « Chronique de la vie de My Hassan, archives Marocains volume8, année 1908, p355.

53 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p282.

54 - Miége (J.L.), op.cité T.III, p222.

55 - A.E.B. Rapport, Bruxelles 12-8-1877.

Armand (L) ; « Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860, à 1912 et Atlantique, Casablanca, 1952, pp53-54.

56 - Miége (J.L.), op.cité T.III, p222. Et p225.

ومن أهم هذه البعثات نذكر بالخصوص ثلاثة بعثات رئيسية، أولاها أوفدها الحسن الأول سنة 1293هـ/1876م، وكانت تتركب من أربعة وعشرين جنديا برئاسة قائد المائة الأول علال بن بلا المراكشي⁽⁵⁷⁾، وقد رافقهم شاب مغربي من فاس لتعلم الطب في المستشفى العسكري بجبل طارق⁽⁵⁸⁾، كما تفصح عنه الوثيقة التالية:

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وله وصحبه وسلم أخانا الأعز الأرض الفقيه النبيه الأحضى الباشا المرتضى سيدي عبد الله بن أحمد رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد فإن ولد السقاط تعلق بالله بتعلم علم الطب فوجهناه زائدا على العدد 24، الذي توجه بقصد السفر لجبل طارق، فيصير جميعهم خمسة وعشرين عسكريا، وأعلمناك لتجري مجراهم وتلحقه بهم وتأمر الأمناء أن يصنعوا له من الكسوة والفراش ما جعلوه لا حد الأنظار المذكورين عن أمر سيدنا أيده الله وعلى المحبة والأخوة والسلام في 3 رجب عام 1293 موسى بن أحمد لطف الله به»⁽⁵⁹⁾.

وبعد إنهاء هذه البعثة فترة تكوينها، وبناء على طلب الكولونيل كامرون الذي كان مكلفا بمهمة تدريب أعضائها والإشراف عليهم⁽⁶⁰⁾، تم إيفاد بعثة ثانية في السنة الموالية تضم خمسة وثمانين فردا من بينهم خمسة طلبة لتعلم الطب العسكري وعشرة جندي لتطوير معارفهم في ميدان المدفعية⁽⁶¹⁾، وبعد أن قضى هؤلاء سنة في التكوين بجبل طارق، تم تعويضهم ببعثة ثالثة مكونة من مائة وسبعين جنديا، تخصص خمسة وأربعون منهم أيضا في تعلم فن المدفعية⁽⁶²⁾، وبذلك بلغ مجموع

57 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص 152-151.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 467.

58 - ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية في عام 1900، ص. 244.

59 - مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص 459-460.

60 - ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص 244.

محمد أبو طالب، مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر، ص 300.

61 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص 152.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 467.

ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص 244.

62 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص 153.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 467.

الجنود المغاربة الذين تدربوا على أساليب الحرب البريطانية بجبل طارق حوالي مائتين وثمانين خلال السنوات الأولى من عهد السلطان الحسن الأول.

البعثات إلى إنجلترا:

لقد كان توجيه البعثات التعليمية إلى أهم البلدان الأوربية من الإجراءات التحديثية التي أولاها السلطان الحسن الأول اهتماما كبيرا منذ بداية حكمه، حيث تكشف لنا الوثائق الإنجليزية عن رغبة في إيفاد ثلاثة من الشبان المغاربة للدراسة في معهد ساند هرسست والأكاديمية العسكرية في ولويش⁽⁶³⁾، وما أن علم القنصل البريطاني دريموند هاي بذلك حتى بادر ببعث رسالة بتاريخ 15 يوليوز 1875، يبلغ فيها اللورد دربي وزير الخارجية البريطانية وقتذاك برغبة السلطان⁽⁶⁴⁾، مبدئا تركيته لهذه الرغبة بقوله: «تبدو بوضوح رغبة السلطان الشاب في إصلاح وتطوير بلاده (...)» وأعتقد بضرورة تقديم كل تسيير معقول من جانب حكومة جلالته للعاهل الشاب لتمكينه من التحرك تجاه طريق الإصلاح⁽⁶⁵⁾.

وقد كان من المنتظر أن يأتي الرد البريطاني إيجابيا، خصوصا إذا علمنا أن إنجلترا كانت في مقدمة الدول الأوربية التي تطالب المخزن بإصلاح بنياته وتحديث مؤسساته التقليدية، حتى وإن كان هذا الإصلاح موضوع المراسلة يختلف بكثير عن نوعية الإصلاحات التي كان القنصل البريطاني يلح في أكثر من مناسبة على إدخالها⁽⁶⁶⁾ والتي كانت بطبيعة الحال ترمي إلى خدمة مصالح بريطانيا بالمغرب وفعلا فقد عبر اللورد دربي في رسالته الجوابية على استعداد المسؤولين الإنجليز لاستقبال الشبان المغاربة بالمعاهد المذكورة⁽⁶⁷⁾.

63 - ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص 243.

64 - نفسه، نفس الصفحة.

65 - نفسه، نفس الصفحة.

66 - LAROUÏ (Abd), op.cité, p255.256.

Miége (J.L.), op.cité T.III, p216.

67 - ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص 243.

وتتكامل الوثائق المغربية من جهتها مع ما أوردته الوثائق البريطانية، حيث نعلم منها أنه تم تعيين خمسة عشر طالبا سنة (1291هـ/1874م) بهدف توجيههم إلى عدة بلدان أوربية من بينها إنجلترا⁽⁶⁸⁾، وفي السنة الموالية قصدوا مدينة طنجة ليخضعوا كمرحلة أولى إلى تكوين أولى في لغات هذه البلدان كما تفصح عنه إحدى الرسائل السلطانية⁽⁶⁹⁾، وقد وقع الاختيار ضمن الخمسة عشر طالبا على ثلاثة منهم للتوجه إلى إنجلترا وهم السيد محمد الجباص الفاسي⁽⁷⁰⁾ والسيد زبير سكيرج⁽⁷¹⁾، والسيد إدريس بن عبد الواحد⁽⁷²⁾، وبعد تلقيهم تكوينا مكثفا لتعلم اللغة الإنجليزية بطنجة⁽⁷³⁾، تم إرسالهم سنة (1293هـ/1876م) إلى إنجلترا، حيث قضوا زهاء أربع سنوات من الدراسة بمدرسة المهندسين العسكريين في شاتهم Chatham⁽⁷⁴⁾.

ويستخلص من الوثائق المغربية والإنجليزية على السواء أن أفراد هذه البعثة قد استفادوا من مقامهم بالديار الإنجليزية وعادوا منها بخبرة علمية لا تقل شأنًا، فالتقارير البريطانية تؤكد على اجتهادهم وتقديمهم السريع في أعمالهم⁽⁷⁵⁾، وهو نفس التتويح الذي تفصح عنه الرسالة التالية التي بعثها النائب محمد بركاش إلى السلطان الحسن الأول يخبره فيها برجوع الطلبة الثلاثة من إنجلترا «الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، أدام الله العز والنصر والتمكين والظفر والتأييد والفتح المبين لسيدنا ومولانا أمير

68 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص465.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص150.

69 - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري بتاريخ 25 رجب عام 1292هـ. مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص442.

70 - وردت ترجمته في فهرست أبي العباس المد سكيرج: "قدم الرسوخ فيما مؤلفه من الشيوخ، خ.ع.ر رقم د 3844، ص ص165-162.

71 - أنظر ترجمته في المصدر السابق، ص ص167-165.

72 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص466.

73 - ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص248.

74 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص466.

عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص29.

Miège (J.L.), op.cité T.III, p222.

75 - ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص248.

المؤمنين ابن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، بعد تقبيل حاشية البساط الشريف وأداء ما يجب لمولانا من الإجلال والتشريف، ينهي لكريم علم سيدنا أيده الله ونصره أن الطلبة الثلاثة الذين كان أمر سيدنا أيده الله بتوجيههم للوندريز بقصد التعلم، فقد تعلموا واستوفوا المقصود، سعادة مولانا أعزه الله في هذه المدة القريبة التي غيرهم يستحق ضعفها وقد مدحهم لا في القابلية والفهم والنجابة، ولا في المروءة ومقابلة ما كانوا بصده، وقد وردوا الآن وهم المذكورون بالطرة وأخبرنا سيدنا أيده الله بذلك ليأمرنا بما يقضيه نظره السديد في شأنهم طالبا من مولانا رضا، والسلام في 1 ربيع الأول 1297 خديم سيدنا أعزه الله محمد بركاش لطف الله به»⁽⁷⁶⁾.

ولما كان السلطان الحسن الأول عازما على بناء أسطول بحري وإنشاء قوة بحرية⁽⁷⁷⁾، أرسل عددا من الشبان المغاربة إلى مختلف الدول الأوروبية للتدريب في ميدان البحرية، ومن بينها إنجلترا⁽⁷⁸⁾ التي قصدها أربعة طلبة ليتخصصوا تقي دراسة الفنون الحربية واثنان في فن بناء السفن⁽⁷⁹⁾.

وبالإضافة إلى هذه البعثات الطلابية، تتحدث بعض الدراسات عن توجه مجموعة من المغاربة سنة 1302هـ/1884م على دفعات إلى بريطانيا بهدف تعلم صناعة الأسلحة⁽⁸⁰⁾، كما أشار المنوني من جهته أن بعض الأفراد قد درسوا بإنجلترا كالمهندس إدريس الشراي⁽⁸¹⁾، ومحمد بن لحبيب الفيلالي الكناسي الذي درس الميكانيك وخلف عدة آثار تشهد على تكوينه في هذا الميدان⁽⁸²⁾.

76 - عن مجلة الوثائق، الجزء الثالث، ص 494.

77 - ابن زيدان، الإتحاف، ج 2، ص ص 503-508.

78 - ب.ج. روجرز، مرجع سابق، ص 248.

79 - من رسالة من الحسن الأول إلى محمد بركاش بتاريخ 10 رجب 1299 أوردها ابن زيدان في : العز والصولة، ج 2، ص ص 148-149.

الإتحاف/ ج 2، ص ص 471-470.

80 - Miège (J.L), op.cité, T.IV, p97.

81 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص 256.

82 - نفسه، وللمزيد من التفاصيل، أنظر صفحات 253-252.

البعثات إلى ألمانيا:

على غرار باقي الدول الأوروبية، حرصت ألمانيا بدورها على اغتنام أية فرصة أو وسيلة لتوطيد علاقتها بالمخزن، وكسب ود صداقة السلطان، بغرض عقد معاهدات تكسبها امتيازات اقتصادية داخل البلاد.

واستنادا إلى ما أوردته الوثائق المغربية والأجنبية، وبعض الدراسات الحديثة التي عالجت موضوع العلاقات المغربية الألمانية في الربع الأخير من القرن الماضي⁽⁸³⁾، يتضح أن ألمانيا التي دخلت متأخرة ميدان التناقض الأوربي على المغرب قد تمكنت فعلا من تحقيق نفوذ واسع في فترة وجيزة داخل الأوساط المخزنية⁽⁸⁴⁾، وكانت حصيلة المساعي التي بذلها ممثلو ألمانيا بالمغرب، أن توطدت روابط البلدين خلال الفترة الممتدة بين سنتي (1885-1894)⁽⁸⁵⁾، كما تشهد عليها اللهجة المميزة للمراسلات بين الطرفين⁽⁸⁶⁾، ونشاط التبادل الدبلوماسي بين البلدين⁽⁸⁷⁾، كما أصبحت ألمانيا تشكل قوة ذات وزن، يراعيه السلطان الحسن الأول في تصريف توجهه السياسي المرتكز على استغلال تضارب مطامع الدول المتنافسة على المغرب، للحفاظ على استقلال البلاد⁽⁸⁸⁾.

ولعل خير معبر عن تزايد النفوذ الألماني هو ما حققته معامل وشركات السلاح الألمانية من تقدم واضح على حساب غيرها من الشركات الأوروبية خاصة قطاع المدفعية⁽⁸⁹⁾، حيث استطاعت شركة كروب Krupp بعد فشل عدة محاولات، أن تتصدر قائمة الشركات

83 - GUILLEN (PIERRE), op.cité.

جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص 242-223. و ص 288-242.

84 - جرمان عياش، نفس المرجع، ص 288.

85 - نفسه، ص 224 و 243.

86 - نحتفظ الخزانة العامة بتطوان بنماذج من هذه المراسلات التي تبودلت بين كل من السلطان الحسن الأول وممثله في طنجة والمفوضية الألمانية بنفس المدينة.

يمكن الرجوع إلى: محفظة - 10/74 محفظة - 51/26 محفظة - 7/18 مح - 7/28 مح 10/133.

87 - GUILLEN (PIERRE), op.cit, pp70-74.

- ابن زيدان، الإتحاف، ج 2، ص 469.

- عبد الهادي التازي، لثغور المغربية المحتلة بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي، مجلة البحث العلمي، ع 27 يناير-يوليوز 1977، ص 16.

88 - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص 242-223. و ص 240-237.

89 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص 276.

التي تباع للمغرب أسلحتها⁽⁹⁰⁾، وذلك بتأثير من ابن النائب السلطاني محمد بركاش الذي تخصص في عقد هذه الصفقات⁽⁹¹⁾، وأمام تزايد هذا النفوذ وبداية الاعتماد على الخبرة التقنية الألمانية في إنجاز بعض المشاريع الإصلاحية⁽⁹²⁾، كان من الطبيعي أن تكون ألمانيا إحدى الدول الأوروبية التي ستستضيف دوريا بعثات مغربية، والتي يلاحظ بخصوصها غلبة الطابع العسكري أكثر من غيره على تعليمها، حيث تم إيفاد عدة مدفعيين مغاربة إلى ألمانيا بهدف تلقيهم تدريباً في ميدان الرماية بمدينة إيسن⁽⁹³⁾.

وقبل التعريف بهذه البعثات العسكرية، يبدو من المناسب الوقوف عند أهم بعثة طلابية-في نظرنا قصدت ألمانيا، حيث تلقى أعضاؤها تكويناً معمقاً إلى حد ما في اختصاصات متنوعة كانت مفقودة في نظام التعليم المغربي وقتذاك، وقد تشكلت هذه البعثة من ثلاثة طلبة هم الميلودي الرباطي والحسين الودي وعبد السلام الدسولي⁽⁹⁴⁾، وهؤلاء كان قد وقع الاختيار عليهم من بين الخمسة عشر طالباً الذين تم تعيينهم سنة 1291هـ/1874م بهدف تلقيهم تكويناً إدارياً في طنجة، ليتم توزيعهم من بعد على بلدان أوروبية مختلفة⁽⁹⁵⁾، فكان نصيب الثلاثة المذكورين أن توجهوا إلى ألمانيا.

وعن هذه البعثة وتاريخ إرسالها أشار أحد الباحثين اعتماداً على الوثائق الألمانية أن النائب السلطاني محمد بركاش قد استفسر سنة 1975م الممثل الألماني (ويبر Z.H. Weber) لمعرفة ما إذا كانت حكومة

90 - GUILLEN (PIERRE), op.cit, p85.

91 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس.

A.E.P.C.P.Maroc, n°46, Rapport, Tanger 3 octobre 1885, vol.49.

A.E.P.C.P.Maroc, n°48, Rapport, Tanger 8 juin vol.48.

92 - من وثائق وزارة الحربية الفرنسية بفانسان.

A.G.V.Rapport du C. Thomad, Fez 31 décembre 1889, p4.

Miège, (J.L), op.cité, T.III, p101

من وثائق خ.ع.ت، محفظة 6/26.

93 - GUILIEN (P), op.cité, p85.

94 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص466.

ويستفاد من م.ط.ك أن أحد الطلبة الثلاث قد تخصص في دراسة علم الكيمياء والمعادن.

95 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص 141-142.

ألمانيا مستعدة لاستقبال طلبة مغاربة ليدرسوا بإحدى معاهدها، ومنذ ذلك التاريخ لم يفتحه في شأن هذا الموضوع حتى حدود سنة 1881م، حيث عبر النائب محمد بركاش من جديد لوبيير عن نية السلطان في إيفاد ثلاثة شبان مغاربة إلى ألمانيا⁽⁹⁶⁾، وفعلا تم تنفيذ المشروع بعد أن تلقى هؤلاء الشبان بعض المبادئ الأولية في اللغة الألمانية على يد الألماني (وينغ Weng) الذي قدم إلى مدينة طنجة خصيصا للقيام بهذه المهمة⁽⁹⁷⁾، وبعد إنهائهم فترة التأهيل الأولي توجهوا إلى ألمانيا، حيث تابع عبد السلام الدسولي دراسته بمدرسة المناجم ب-Klaus-thal والحسين الودي بمدرسة ضباط الهندسة، والميلودي الرباطي بالأكاديمية العسكرية ببرلين⁽⁹⁸⁾.

عدا هذه البعثة الرئيسية، فإن باقي البعثات⁽⁹⁹⁾ قد أرسلت على دفعات إلى ألمانيا خلال سنتي (1302-1303هـ/1884-1885م) وهي المدة التي تؤرخ لبداية فترة متطورة من العلاقات المغربية-الألمانية، ففي خريف سنة (1302هـ/1884م) أوفد السلطان خمسة عشر جنديا إلى ألمانيا⁽¹⁰⁰⁾ وهم السباعي البرطاعي وأحمد الرحماني، ومحمد القصري، وابن ميلود المكناسي، ومحمد العوني، وأحمد العمري، ومبارك العبدى، ومحمد الدودي والعربي المكناسي، ومحمد السوسي، ومحمد المسفيوي، وسعيد الحمري ومحمد بن الحاج الهشتوكي، ومحمد الودودي، وابن أبي شعيب الدكالي⁽¹⁰¹⁾.

وبعد أن مكث هؤلاء قرابة ثمانية أشهر قضوها في التدريب على التمارين العسكرية داخل الحرس الألماني⁽¹⁰²⁾، عادوا إلى المغرب،

96 - GUILIEN (P), op.cité, p86.

97 - GUILIEN (P), op.cité, p86.

98 - Ibid, p86.

99 - يستعصي على الباحث، استنادا إلى السجل الذي أورده ابن زيدان في مؤلفه "العز والصولة" تقديم صورة واضحة ودقيقة حول البعثات الموقدة إلى ألمانيا، فضلا عن أن حديثه عنها في مؤلفه "الاتحاف ج2"، جاء غير مطابق أحيانا لما ورد في السجل، ويشوبه نوعا من الارتباك، لذا حاولنا مقابلة وتكميل هذه المادة بما أورده بعض الوثائق الأجنبية معتمدين أساسا على دراسة بيري كين P.GUILLEN.

100 - Quedenfeldt : Mitteilungen aus Maroko und dem nord Westlichen Sahara Gebet, in -Jahresbrebricht der gerg, ges, ZU, Greifs wald, 1888, p3.

101 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص153.

102 - Quedenfeldt : op.cité, p3.

وأُسندت إليهم مهمة تأطير وتدريب القوات المغربية بمدينة أسفي والصويرة⁽¹⁰³⁾.

وقد أورد ابن زيدان بشأن هذه البعثة رسالة بعثها السلطان الحسن الأول إلى الإمبراطور غليوم الثاني عاهل ألمانيا على يد محمد بركاش ابن النائب السلطاني الذي أوفده في مهمة دبلوماسية⁽¹⁰⁴⁾، وتبرز هذه الرسالة مدى الاهتمام الفائق الذي كان يولييه الحسن الأول لموضوع البعثات وحرصه على إنجاح هذه التجربة كما يتضح من نص الرسالة:

«...أما بعد فإن المحبة والصحبة والصدقة والثقة وحسن الظن والاعتقاد الجميل، أوجبت توجيه أشخاص نجباء أختيار من هذه الآيالة لبلادكم الرفيعة المصونة بقصد الريادة في تنقيح ذكائهم، وتهذيب أخلاقهم بأداب السياسات العالمية، من العلوم العسكرية والطبجية، وما في معناهما التي فقتم بها، وانفردتهم بتحريرو علومها وتدقيقها ومعرفتها على حقيقتها، وانتخبنا من يتوجه معهم وهو خديمنا الأرضي، الأنجح، الحاج محمد، ابن خديمنا الأرضي، الأنصح الأرشد، الخير، النائب محمد بركاش ونحن على يقين من أنكم تقابلونه بزائد القبول، وتبلغونه من الاعتناء والمبرة غاية المأمول، ويحظى من معه من المتعلمين المشار إليه من جانبكم الرفيع بتمام القبول، والبر والاعتناء حتى يحصلوا في أقرب مدة -على المراد- كما ينبغي ويراد...وحرر في 24 محرم فاتح

1302»⁽¹⁰⁵⁾.

وفي نفس السنة توجهت بعثة أخرى تتركب من اثني عشر جنديا لدراسة الفنون الحربية بالمدرسة العسكرية بألمانيا⁽¹⁰⁶⁾، وبعد عودتهم في أكتوبر من السنة الموالية حسب ما تؤكد الوثائق الأجنبية⁽¹⁰⁷⁾، تم إلحاقهم كضباط في الجيش السلطاني⁽¹⁰⁸⁾.

103 - Quedenfeldt : op.cité, p4.

ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص154.

104 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص358، وص468.

105 - أوردتها ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص154.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص468، وص469.

106 - GUILIEN (P), op.cité, p85.

107 - من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية

A.E.P.C.P Maroc, n°46, Rapport, Tanger 3octobre 1885, vol.49.

108 - GUILIEN (P), op.cité, p85.

وقد اقتضى شراء مدافع من شركة كروب Krupp لتحسين قلعة الرباط⁽¹⁰⁹⁾، ضرورة إيفاد بعثة أخرى في نفس السنة (1302هـ/1884) ضمت اثني عشر طالبا بقصد تدريبهم على كيفية استعمال نماذج من المدافع المقتناة⁽¹¹⁰⁾، وكان قوام آخر بعثة قصدت ألمانيا هو الطنجي الحاج محمد زنيبر الذي أرسله السلطان بقصد تطوير معارفه في ميدان المدفعية كما يستفاد من الرسالة التالية: «خديمتنا الأرضي، القائد محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد: فقد كلفنا الخديم الطالب عبد الرحمان بركاش، بتوجيه الطنجي الحاج محمد زنيبر السلاوي لبلد الألمان ليتعلم بها طبجيت، فنأمر أن تدفعه له ليتوجه لذلك على يده، والسلام في 15 شوال عام 1306»⁽¹¹¹⁾.

البعثات إلى فرنسا

اهتمت فرنسا منذ البدايات الأولى لتغلغلها بالمغرب بالعمل على خلق أجهزة قارة داخل البلاد، كأدوات تضطلع بمهمة تنفيذ خطوات هذا التغلغل⁽¹¹²⁾. وقد وجدت في اهتمام السلطان الحسن الأول بالشؤون العسكرية أحسن وسيلة للتسرب داخل أهم مؤسسة⁽¹¹³⁾ موكل إليها مهمة الحفاظ على استقلال البلاد، وتقوية السلطة المركزية، وفعلا انتهزت أول فرصة أتاحت لها. وذلك عندما توقف السلطان في إحدى حركاته بوجدة، حيث استقبل بها بعض الضباط الفرنسيين من جيش وهران بقيادة اسمونت⁽¹¹⁴⁾ ولم يفت هذه الوحدات القيام ببعض المناورات العسكرية، واستعراض بعض الحركات أمام أنظار السلطان

109 - Ibid, p85.

ثريا برادة، مرجع سابق، ص228.

110 - GUILIEN (P), op.cité, p86.

111 - من وثائق أسرة آل بن سعيد، أوردها محمد المنوفي «مرجع سابق، ص178.

112 - لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى الدراسات العامة المتداولة التي تتحدث عن أطوار ووسائل هذا التغلغل وكأمثلة نذكر.

BRIGNON (J) et autres : «Histoire du Maroc, Paris ; Hatier, Casablanca, Lib.nat.1967.

أبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية.

113 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص325.

114 - محمد بن إبراهيم السباعي، البستان الجامع لكل نوع تحسن وفن مستحسن عند بعض مآثر السلطان مولاي الحسن خ.ع. رقم د 1346، ص112.

ERKMAN (J), op.cité, p199.

الذي لم يخف رغبته في أن تكون قواته منظمة على طراز الجيوش الفرنسية، خصوصا وأن هذه القوات كانت قد تلقت هزيمة في حركة ضد قبيلة غياثة⁽¹¹⁵⁾ ومنذ ذلك اللقاء، ظلت فرنسا متشبثة بفكرة إرسال بعثة عسكرية إلى المغرب لتدريب الجنود المغاربة، وقد نجحت في مساعيها بأن قدمت هذه البعثة سنة 1817 وحصلت على الاعتراف بها رسميا من طرف السلطان⁽¹¹⁶⁾.

وغير خاف الدور الحقيقي الذي كان منوطا بأفراد هذه البعثة العسكرية، إذ تكشف تقاريرها السرية⁽¹¹⁷⁾ بما فيه الكفاية، أن الأمر كان يتعلق بجمع الأخبار ومزاولة أعمال الجاسوسية⁽¹¹⁸⁾ وتتميم العمل السياسي الذي كان يقوم بهم مثلوا فرنسا بمدينة طنجة⁽¹¹⁹⁾.

يتأسس على ما سبق، واستنادا إلى ما ورد في بعض الوثائق الفرنسية بشأن البعثات الطلابية المغربية، أن فرنسا كانت تقصّل أن يتم تدريب القوات المغربية على يد ضباط البعثة العسكرية المتواجدة بالمغرب، بدل إيفاد بعثات من الشبان المغاربة للتكوين بمعاهدها⁽¹²⁰⁾، ولعل ذلك ما يفسر قلة البعثات التعليمية الموفدة إلى فرنسا إذا ما قيست مع عدد البعثات التي قصدت بلدانا أخرى، إذ لم يتجاوز مجموعها أكثر من بعثتين⁽¹²¹⁾.

115 - ARNAUD (L), op.cité, pp53-54.

TAILLANDIER (St René), op.cité, p19.

116 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص214.

117 - لقد وقفنا على عدة نماذج من هذه التقارير، نذكر منها على سبيل المثال:

A.G.V.Rapport, n°29, Féz le 28avril 1880.

A.G.V.Rapport, n°13, Maroc le 1 Février 1879.

A.G.V.Rapport, n°4 Meknès le 1 Mai 1884.

118 - LAHBABI (N), op.cité, p169.

Miège (J.L), op.cité, T.IV, pp107-109.

119 - DOUTEE (ED), op.cité, p53.

ثريا برادة، مرجع سابق، ص325-324.

120 - من وثائق وزارة الحرب الفرنسية (أنظر نص الوثيقة في الملحق).

121 - عدا هاتين البعثتين فإن بعض الوثائق الفرنسية تتحدثا عن مجموعة من صانعي الأسلحة كانوا يرافقون السفارات المغربية الموفدة إلى باريز، وذلك بهدف تعلم صناعة الأسلحة.

A.G.V.Rapport du (Marroi et du C.St Rohl-Alger le 1 Juin.

Miège (J.L), op.cité, T.IV, p97

وأنظر أيضا

أولى هذه البعثات ضمت ثلاثة طلبة هم قاسم الودي، والطاهري بن الحاج الأودي، ومحمد بن الكعاب الشرقي⁽¹²²⁾، فبعد إنهائهم ست سنوات من التكوين الإعدادي بمدينة طنجة، توجهوا أواخر عام (1297هـ/1879م) صوب باريس⁽¹²³⁾، ويستفاد من مراسلات الطالب محمد الكعاب أن تكوينهم طال مواد متنوعة كاللغة الفرنسية والهندسة وفنون الملاحة والتاريخ وفن التصوير وغيرها⁽¹²⁴⁾. كما تقصص مذكراته عن الرغبة التي كانت تحذو أعضاء هذه البعثة في تطوير معارفهم، والعودة إلى المغرب بوضع خبرتهم في خدمة مصالح البلاد⁽¹²⁵⁾.

وبعد مضي أربع سنوات من مقامهم بمدينة باريس، تلقوا أمرا من المخزن بمغادرة باريس والاتجاه إلى بلجيكا سنة (1301هـ/1884م) قصد الوقوف على البعثة التي كان أوفدها السلطان في هذه السنة إلى مدينة سيرن (Sering) بهدف تعلم صناعة الأسلحة⁽¹²⁶⁾.

ويستخلص من مذكرة الطالب الكعاب أنه ظل مقيما ببلجيكا حتى حدود سنة (1304هـ/1886م) صحبة باقي أعضاء البعثة، في ظروف صعبة ثاقوا معها للعودة إلى وطنهم، وذلك من جراء الديون التي تراكت عليهم من الجهات البلجيكية، وعدم موافاة المسؤولين المخزنين بأجوبة على رسائلهم التي كانوا يبعثونها إلى الممثل السلطاني بطنجة ليأذن لهم بالرجوع إلى المغرب⁽¹²⁷⁾.

أما بخصوص البعثة الثانية، فإن الباحث يتوفر بشأنها على معطيات تسعف في تقديم صورة أكثر تفصيلا عن أغلب جوانبها ذلك أنه فضلا عن المعلومات المحدودة التي تضمنها السجل الخاص بالبعثات⁽¹²⁸⁾، فإن الوثائق الأجنبية التي اعتمدها جاك كايي في دراسته عن هذه البعثة تكمل ما ورد في هذا السجل وتسد ثغراته إلى حد كبير، كما

122 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص66.

123 - أحمد معنيو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول، محمد بن الكعاب الشرقي، ص223.

124 - من: م.ط.ك. (مؤرخة ب 7 رجب عام 1299).

125 - من: م.ط.م.

126 - أحمد معنيو، نفس المرجع، ص223.

127 - نفسه، ص225.

إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص39.

128 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص154-155.

تضمنت إشارات تعكس شعور الغرب (فرنسا) بالتفوق الحضاري الذي عبر عنه الوزير الفرنسي المفوض بالمغرب بتمنيه في أن تنطبع عقول طلبة البعثات بعظمة الحضارة الفرنسية على حد قوله⁽¹²⁹⁾.

وقد توجهت هذه البعثة إلى مونبولىيه Montpellier بتاريخ 24 يونيو 1885م (1303هـ) على متن باخرة حربية L'arethusé تحت إشراف (ميكيل دي كاسترو Miguel de Castro)، وهو دبلوماسي برتغالي سابق كان قد أسلم ودخل في خدمة السلطان⁽¹³⁰⁾، وقد رافق هذه البعثة في نفس الباخرة وفد دبلوماسي برئاسة عبد المالك بن علي العبدى عامل وجدة، مصحوبا بقاضي فاس وخمسة قواد والسفير الفرنسي في المغرب، وذلك للتفاوض مع الحكومة الفرنسية حول قضايا الحدود الجزائرية⁽¹³¹⁾.

وقد شملت تركيبة هذه البعثة خمسة طلبة وسبعة صناع، «فالطلبة هم السيد محمد بن عبد الرحمان العليج»⁽¹³²⁾، والسيد عبد الله بن العربي الودي، والسيد صالح التدلاوي، والسيد علال بن محمد البخاري، والسيد محمد بن سعيد القرقوري الفاسي، والصناع هم: محمد بن عبد الرحمان التطواني، وأحمد بن عبد الرحمان التطواني ومحمد بن أحمد الأصيلي، والعربي بن عبد السلام الجديدي، ومحمد بن الهواري المسفيوي، وعمر بن محمد المسفيوي، ومحمد بن عبد الرحمان المسفيوي⁽¹³³⁾.

وبعد مضي سنتين من مقام البعثة بمونبولىيه، عاد البرتغالي (دو كاسترو) لاستغناء أعضائها عن دور الترجمان بحكم تعلمهم اللغة

129 - CAILLE (Jacques) : « Les Marocains à l'école de Genie de Montellier (1885-1888), p142.

130 - Ibid , pp131-132.

Matinière (Henri de la), Souvenirs du Maroc, pp186-196.

131 - CAILLE (Jacques), op.citép132.

132 - هو ابن عبد الرحمان العليج الفرنسي الذي قدم إلى المغرب منذ عهد عبد الرحمان بن هشام وبقي في خدمة المخزن إلى عهد السلطان الحسن الأول وساهم في نشر الرياضة والعسكرية الحديثة أنظر:

CAILLE (Jacques) : « La véritable histoire de l'ingénieur Abderhman Desaulty, in Hesperis, Tome XXXVI, Année 1949, 3-4 trimestre pp. 459-460.

محمد المنوتي، مرجع سابق، ص145.

أما ابنه أحد أفراد هذه البعثة فقد تكلف بعد عودته بالمندفعية وصار من جواسيس البعثة الفرنسية أنظر:

DOUTÉE (Edmond) ; op.cité, p71.

Martinière (Henri de la), op.cité, p184 et p196.

133 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص ص155-154.

الفرنسية، كما كان قد عاد من قبله اثنان من أفراد البعثة لعدم أهليتهم وقدرتهم على استيعاب الدروس⁽¹³⁴⁾.

أما عن سير مراحل التكوين فقد تبين بعد تبقي أفراد البعثة تدريبات ميدانية، ضرورة مواكبتها بتلقيهم بعض المواد الضرورية كالحساب والهندسة فضلا عن اللغة الفرنسية لتسهيل عملية التواصل بين المؤطرين والمتدربين.

وهكذا أصبح الطلبة يتلقوا دروسا نظرية في الصباح، وأخرى عملية في المساء طيلة أيام الأسبوع عدا يومي الجمعة والأحد⁽¹³⁵⁾. وقد شمل البرنامج النظري عدة مواد علمية كالهندسة التطبيقية والرياضيات والفيزياء والكيمياء وفروع الجغرافية، إضافة إلى تعليمهم كيفية استعمال مختلف آلات البصر⁽¹³⁶⁾.

بينما انصب التكوين العملي على تمرينهم إلى جانب الجنود الفرنسيين على بناء الخنادق والتحصينات وطرق حفر الأنعام وإقامة الخيام وتحضير آلات الحصار وغيرها من الحركات العسكرية⁽¹³⁷⁾.

ويستخلص من التقارير التقويمية التي كان يبعثها مؤطر هذه البعثة (ريوندبل Riondel) إلى الوزير الفرنسي بالمغرب، أن سوء اختيار بعض عناصرها، وخاصة الصنائع جعلهم غير مؤهلين لاستيعاب ما كانوا يدرسون، مما جعله يطالب دون جدوى- بتعويض هؤلاء بطلبة أكثر قابلية للتعليم⁽¹³⁸⁾.

وقد كان من المقرر أن تعود البعثة إلى المغرب في خريف 1884، غير أنه بإيعاز من وزير فرنسا فضل السلطان الحسن الأول تمديد فترة التدريب حتى يحصل الطلبة على تكوين تام، ومع حلول سنة 1888، تم استقبال أفراد البعثة من طرف النائب السلطاني محمد بركاش الذي عبر لممثل فرنسا عن إعجابه بمستواهم الفكري⁽¹³⁹⁾.

134 - CAILLE (Jacques) : « Les Marocains à l'école de Grénie de Montpellier, pp130-140.

135 - CAILLE (Jacques), op.cité, p136.

136 - Ibid, p137.

137 - Ibid, p136.

138 - Ibid, p139.

139 - Ibid, p143.

وتفيد بعض المصادر أنه بعد عودة هذه البعثة، تم الاتفاق بين المسؤولين المغاربة والوزير الفرنسي على تعويضها ببعثة أخرى مكونة من خمسة عشر طالبا، كان من المتوقع أن تقصد فرساي لدراسة الهندسة والتخصص في فنون المدفعية، وفعلا تبودلت بشأن تهيء أعضاء هذه البعثة، مراسلة بين الوزير الفرنسي (فيرو Feraud و) إيركمان (Erkman) الذي كان قد التحق بوطنه، وأبدى هذا الأخير موافقته على تولي مهمة إعداد الطلبة شريطة أن يقع اختيارهم من أسر مرموقة⁽¹⁴⁰⁾، غير أن تنفيذ هذا المشروع لم يتحقق لأسباب تسكت عنها المصادر⁽¹⁴¹⁾.

البعثات إلى إيطاليا:

كانت إيطاليا إحدى الدول الرئيسية التي استضافت معاهدها وأكاديمياتها العسكرية مجموعة من الشبان المغاربة للدراسة فيها، وقد ارتبط إرسال بعضهم بمحاولة السلطان الحسن الأول إنشاء صناعة حربية محلية، وذلك بهدف الاستغناء عن شراء الأسلحة من أوروبا⁽¹⁴²⁾، لما كانت تكلف المخزن من أموال باهظة⁽¹⁴³⁾، فضلا عن عدم جودة أغلبها واستغناء الأوربيين عنها⁽¹⁴⁴⁾، وفي هذا الإطار تم الاتفاق بين المخزن وسفير إيطاليا سنة 1887 على تكليف بعثة إيطالية من خبراء متخصصين بتأسيس معمل لصناعة الأسلحة بفاس⁽¹⁴⁵⁾.

140 - Ibid, pp143-144.

وأنظر أيضا:

CAILLÉ (J) : « Quelques Renseignements sur le capitaine Erkman, p471.

Miège (J.L), op.cité, T.IV, p96.

Martinière (Henri de la), op.cité, p190.

141 - لقد فسر هنري لامارتنييه سبب عدم تنفيذ هذا المشروع بموت الوزير الفرنسي بطنجة Feraud وهو تفسير غير مقنع في اعتقادنا.

142 - Miège (J.L), op.cité, T.III, p226.

143 - لقد وقفنا في الخزانة الحسنية بالرباط والخزانة العامة بتطوان على كثائش ومراسلات مخزنية تخص عقود اقتناء الأسلحة من البلدان الأوروبية، تعطي فكرة عن كلفتها الباهظة واستنزافها ميزانية المخزن:

144 - أنظر بهذا الصدد تعليق الناصري، الاستقصا، الجزء التاسع، ص 185-184.

145 - لمزيد من التفاصيل أنظر نص رسالة الوزير محمد المفضل بن محمد غريبط إلى سفير إيطاليا بتاريخ 10 رمضان 1305هـ وقد تضمنت إشارة تهم أحد الطلبة الذين درسوا بإيطاليا ورافقوا أعضاء البعثة الإيطالية بصفته مترجما: ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص 497-495. وتستبعد من اهتمامنا تقويم الحصيلة السلبية هذه المحاولة أنظر بصددها: ثريا برادة، مرجع سابق، ص 270-269.

Kerdec, op.cité, p300.

ARNAUD(L), op.cité, p60.

وقد اقتضى تشغيل هذا المعمل إرسال بعض المغاربة إلى إيطاليا وغيرها من الدول الأوروبية، بقصد اكتسابهم خبرة تقنية في هذا الميدان، تؤهلهم للعمل في هذا المعمل بعد عودتهم.

ومن الملاحظ بخصوص البعثات الموفدة إلى إيطاليا هو تنوع تركيباتها، وتنوع تخصصات أفرادها من فنون عسكرية، رياضيات، علوم بحرية، وتجارة ولغات أجنبية وغيرها، بل جرى التفكير-حسب ما أورده (مبيج) استنادا إلى الوثائق الإيطالية- في دراسة علم الاقتصاد السياسي⁽¹⁴⁶⁾.

ولا نتوفر بشأن أولى هذه البعثات على معطيات كافية، وكل ما نعمله بخصوصها أنها تشكلت من ثلاثة طلبة هم المختار الرغاي البخاري، ومحمد بناني الفاسي، وعبد السلام الودي⁽¹⁴⁷⁾، وهؤلاء كانوا ضمن الخمسة عشر طالبا الذين كان قد تم تعيينهم سنة 1291هـ/1874م لتوزيعهم على مختلف أقطار أوروبا، بعد تعلمهم لغات هذه الأقطار⁽¹⁴⁸⁾، وقد استغرقت مدة تكوين هؤلاء الثلاثة بإيطاليا تسع سنوات حسب ما ذكره ابن زيدان⁽¹⁴⁹⁾.

على أن أهم هذه البعثات، كانت قد أرسلت سنة 1306هـ/1888م مركبة من أربعة وعشرين طالبا⁽¹⁵⁰⁾ تم اختيارهم من طرف السفير الإيطالي جنتيلي Gentilé من مدن مختلفة كفاس وطنجة وسلا والرباط والعرائش⁽¹⁵¹⁾، وهؤلاء هم: أحمد الجبلي العيدوني، محمد الحريري، علي السوسي، الحسين الزعري، محمد الوزاع، محمد التدلاوي، محمد طجة، محمد بن سالم، محمد الشرقاوي البهالي، محمد ولد

146 - Miège (J.L.), op.cité, T.IV, p125.

147 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص466.

148 - مجلة الوثائق، العدد الثالث، ص441.

149 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

150 - تختلف المصادر حول تاريخ توجه هذه البعثة إلى إيطاليا وحول عدد أفرادها أنظر بصددها:

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص467-468.

أحمد معنيو، مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة، مجلة دعوة الحق، ص143.
Ray (Jauny), « Les Marocains en France, Institut des hautes études marocains collections des centres d'études juridiques, paris, 1938,p42.

151 - أحمد معنيو، مرجع سابق، ص44.

الباشا التهامي امبيركو، فضول ابن صالح، مصطفى الأودي، محمد البرجالي، محمد بن إسماعيل، أحمد حرسان، العربي حركات، عبد الله التيال، محمد القجيري، مصطفى لحلو، محمد القباچ⁽¹⁵²⁾.

وقد تلقى هؤلاء كمرحلة أولى تكوينا أوليا بالمعهد الدولي بتوران، حيث كانت تدرس بعثات طلابية أخرى قدمت من دول مختلفة كمصر واليابان وأرمينيا وبلغاريا وغيرها⁽¹⁵³⁾، وبعد مضي ثلاث سنوات من دراستهم بهذا المعهد، تم نقل بعضهم إلى الأكاديمية العسكرية بتوران، والبعض الآخر إلى أكاديميات مودين-وليفورن⁽¹⁵⁴⁾، وذلك طبقا لرغبة المخزن القاضية بتوزيعهم إلى ثلاث فئات، تتخصص كل واحدة منها في ميدان معين، حيث تخصصت فئة في دراسة فنون الملاحة، وأخرى في التدريب على الفنون العسكرية، وثالثة في تعلم صناعة الأسلحة⁽¹⁵⁵⁾.

وقد تراوحت مدة تكوين أعضاء هذه البعثة بين خمس سنوات وعشر سنوات، ويمكن الوقوف على مستوى هذا التكوين من خلال ما ذكرته بعض المصادر عن أطوار الدراسة التي مر بها الطالب الجيلي العيدوني أحد أفراد هذه البعثة، فبعد إنهاء دراسته الأولية بمعهد توران، التحق بمدرسة الضباط المشاة بأكاديمية كودين، وبحكم نبوغه في مادة الرياضيات، تفوق في امتحان الولوج إلى الأكاديمية العسكرية بتوران، وهي مؤسسة متخصصة في تلقين فن المدفعية وتدريس الهندسة، ومنها تخرج سنة 1892 برتبة ضابط⁽¹⁵⁶⁾، مما يدل على أن بعض أفراد البعثات عادوا إلى المغرب بمستوى يؤهلهم لشغل مناصب كان أغلبها محتكرا من طرف الأجانب.

ويتبين من رسالة سلطانية موجهة إلى النائب محمد بركاش سنة (1291هـ/1888م)⁽¹⁵⁷⁾، أن إيطاليا كانت ضمن الدول الأوربية الخمس

152 - أحمد معنينو، مرجع سابق، ص145.

153 - « Un homme du Maroc d'hier », in la vigie Marocaine n° du 21-30-1936.

154 - Miège (J.L.), op.cité, T.III, p222.

155 - أحمد معنينو، مرجع سابق، ص145.

156 - « Un homme du Maroc d'hier », op.cité,

RAY(J), op.cité, p42.

157 - أوردها ابن زيدان في العز والصولة، ج2، ص148.

-الإتحاف، ج2، ص ص471-470.

التي أوفد إليها السلطان ثلاثين طالبا، أربعة لكل دولة لدراسة العلوم البحرية، واثنان للتدرب على قيادة السفن.

واستنادا إلى الوثائق الإيطالية، يتضح أن السلطان الحسن الأول رغم ما صادفه من عراقيل في وجه سياسة الإصلاحية فقد ظل متشبثا بقناعته في تكوين أطر مغربية في مختلف التخصصات. وهكذا نجده يفصح للممثل الإيطالي سوكوفاسو Socovasso خلال لقاء لهما بالصويرة في أواخر مارس من سنة 1886، عن رغبته في توجيه طالبيه إلى إيطاليا للتخصص في هندسة بناء القناطر والطرق، وآخرين لدراسة الاقتصاد السياسي⁽¹⁵⁸⁾، وكخطوة إعدادية، تم تعيين اثني عشر من الشباب تتراوح أعمارهم ما بين أربعة عشر سنة وستة عشر سنة، قضوا أكثر من سنتين في طنجة يتعلمون اللغة الإيطالية⁽¹⁵⁹⁾، غير أن تنفيذ هذا المشروع لم يتحقق لأسباب لم تفصح عنها المصادر.

وكان قوام آخر بعثته إلى إيطاليا، الطالب محمد بن عمر الرباطي الذي أرسل إليها من طرف السلطان سنة 1208هـ/1891م وبعد قضاء خمس سنوات من التعليم بالمدرسة الدولية في مدينة توران، التحق بالأكاديمية الإيطالية للخيالة العصرية، حيث تخرج منها بشهادة تثبت أهليته في هذا الميدان⁽¹⁶⁰⁾.

أما عن باقي الدول الأوربية التي قصدها البعثات الطلابية، نشير إلى توجه بعثة واحدة إلى إسبانيا حوالي سنة 1294هـ/1877م، ضمت ثلاثة طلبة هم أحمد بن الحاج العباس ابن شقرون الفاسي وعبد السلام الرباطي، ومحمد الشرايبي الرباطي، وقد تابع هؤلاء تكوينهم مدة تسع سنوات⁽¹⁶¹⁾ بأكاديمية الهندسة بكواد لاجارا Guadalajara⁽¹⁶²⁾.

158 - Miège, op.cité, T.IV, p125.

159 - Miège, op.cité, T.IV, p125.

ويتأكد ذلك من خلال وثيقتين وقفنا عليهما بالخزانة العامة بتطوان، يستفاد من أولها أن بعض الطلبة كانوا يتعلمون اللغة الأجنبية خلال هذه الفترة، كما يتبين من الرسالة الثانية أن هؤلاء الطلبة كانوا لا يزالون إلى حدود سنة (1313هـ/1895م) يتعلمون اللغة الإيطالية.

رسالة موجهة من محمد التنازي إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 19 جمادى 1304/13 فبراير 1887، خ.ع.ت. محفوظة 35/36.

رسالة موجهة من السلطان عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 13 صفر 1313/5 غشت 1895 خ.ع.ت. محفوظة 14/26.

160 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص189.

161 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151. ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص466.

162 - Miège, op.cité, T.III, p223, T.IV, p96.

وفي اعتقادنا، لعل من الأسباب التي جعلت المخزن يكتفي بتوجيه بعثة فريدة، هو إدراكه لمكانة إسبانيا ضمن مجموع التطور الأوربي، وهو إدراك عبر عنه الكروودوي في رحلته بقوله: «...وهذه الدولة (أي إسبانيا) وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك، فإنها لم تبلغ بعض البعض مما استنبطوه، ولا علمت من صناعتهم مثل ما صنعوه، ولكنها لم تهمل ذلك إهمالا كلياً، ولا جعلته وراءها ظهرياً، بل جدت في إدراكه فأدركت ما تيسر من ذلك...»⁽¹⁶³⁾.

ويتأكد اعتقادنا هذا، برفض المخزن إسناد أية مهمة للبعثة العسكرية الإسبانية بالمغرب، رغم أنها كانت مكلفة مبدئياً بتكوين تقنيين في ميدان بناء وترميم الجسور⁽¹⁶⁴⁾.

واستضافت بلجيكا بدورها بعثات مغربية تتركب كلها من صناع وذلك بهدف تدريبهم على استعمال مختلف أنواع الأسلحة (تركيب الآلات والمكينات، بطاريات المدافع، صناعة الخراطيش...) ولم تكن مدة تكوينهم تتعدى سنة أو سنتين على أبعد تقدير.

ويستخلص من المعلومات المتوفرة لدينا، أن مجموع المغاربة الذين تدربوا بمعامل السلاح بمدينة لييج وصيرن Liège-Serring قد تجاوز خمسين فرداً، أرسلوا في بعثتين، تم اختيار أغلبهم من مدينتي فاس ومكناس.

واستناداً إلى الوثائق الأجنبية ومذكرة الطالب الكعاب الذي كان مشرفاً على هذه البعثات، نعلم أن البعثة الأولى توجهت في يونيو سنة 1884 على يد محمد بركاش⁽¹⁶⁵⁾، وعاد بعض أفرادها في السنة الموالية⁽¹⁶⁶⁾، وهي نفس السنة التي توجهت خلالها بعثة ثانية إلى مدينة

163 - أبو العباس الكروودوي، التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الأصبنيولية، ص 90.

164 - ثريا برادة، مرجع سابق، ص 220.

165 - في تقرير بعثته Ordega إلى وزير فرنسا في الشؤون الخارجية جول فيري Jules Ferry يؤكد له صحة الأخبار التي أبلغه إياها نائب القنصل الفرين بالدار البيضاء، والمتعلقة بإرسال صناع مغاربة لدراسة صناعة الأسلحة، ويضيف في تقريره أن أربعين من المغاربة سافروا عبر سفينة إنجليزية Steamer في اتجاه مدينة لييج وإيسن. A.E.P.C.P.Marocn Rapport n°26, Tanger, 8Juin, vol 48.

وحسب م. ط. ك فإن البعثة الأولى كانت تضم عشرون فرداً، وهو نفس العدد الذي ذكره رئيس البعثة العسكرية الفرنسية (فالو Vallois) في تقريره عن أحداث ماي ويونيو من سنة 1884.

A.G.U.Rapport n° 5 du C.Vaminois, Meknès, le 10 juin 1884, p3

166 - أحمد معنيو، ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 محمد بن الكعاب الشرقي، ص 227.

لبيج⁽¹⁶⁷⁾، وهذه أسماء أفراد هذه البعثات: محمد بن علي الفاسي، محمد المنظري الفاسي، الحسن الجندي، محمد الودغيري، عبد الرحمان البغدادي، حمان بن التهامي، علي بن قدور الحياتي، محمد بن ميمون، إدريس بن وجود، محمد الحمدي الصفريوي حمان المراكشي المعطي بن إبراهيم، إدريس زولو، الجيلاني بن مبارك، المختار الكناسي، العرفاوي بن الطاهر، محمد حيات، المكي بريطل، الحاج عبد القادر الركاني، أحمد بن موسى المحجوب البريوي، الودودي البيضاوي، أحمد بن الحسن، محمد بن الحفيان، أحمد بن علي العلج، محمد بن المؤذن، عبد الله الزموري، أمان العباس، سالم بن إبراهيم، عباس بن المصطفى العرفاوي بن الحاج محمد بن زروق، ابن عيسى بوراوين، أحمد المراكشي، الحسن الخلطي، عبد السلام الودي، المعلم محمد الكناسي، العباس بن قاسم، عبد القادر بن الميلاوي محمد بن العربي، ابن عيسى بن محمد، محمد بن الرامي، عبد النبي البوخلي، أحمد بن صالح، بوسلهام بن حمر، إدريس الحداد محمد بن العباس، الحاج محمد التاغروتي، الحاج محمد لفيتة، محمد بن ميمون، عبد السلام العلمي، إدريس بن الحاج العربي الفيلالي الجعايني، إدريس الحيسي الزنايدي، أحمد بن العربي الفيلالي الجعايني⁽¹⁶⁸⁾.

بقي أن نشير اعتمادا على ما أوردته بعض المصادر أن السلطان الحسن الأول أوقد بعثة من الشبان المغاربة سنة (1303هـ/1885) تحت قيادة إدوار كارلتون Edward Carleton قصد تدريبهم في معمل السلاح بونستشير Wenchester بالولايات الأمريكية⁽¹⁶⁹⁾.

167 - نفسه، ص 227.

168 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص 160-157.

169 - CHARMES (Gabriel) : « Une Ambassade au Maroc », p218.

Miège, (J.L.), op.cité, T.IV, p96.

عبد الهادي التازي، تاريخ الولايات المتحدة في المصادر المغربية، مجلة المناهل، العدد 12، السنة الخامسة، شعبان 1389، يوليو 1978، ص 200.

الباب الثالث حصيلة التجربة الإصلاحية

من المعلوم أن جل المحاولات الإصلاحية سواء تلك التي قامت في شكل حركات أو دعوات، لم يكتب لها النجاح الكامل في أي بلد من البلدان العربية، أو الإسلامية⁽¹⁾. وسواء كانت هذه المحاولات صادرة عن جهات رسمية أو غير رسمية، أو همت هذا الميدان أو ذاك.

وإذا كانت بعض أسباب فشل هذه المحاولات قد شكلت قواسم مشتركة بين سائر هذه البلدان، فإن بعضها الآخر كان مرتبطا بالظرفية التي يمر بها كل بلد، وبشروط أوضاعه الخاصة من جهة، وبطبيعة الميدان الذي شمله الإصلاح من جهة ثانية⁽²⁾.

ولم يكن مصير التجربة الإصلاحية موضوع دراستنا مختلفا، ذلك أن معظم مبادرات السلطان الحسن الأول لم تؤد إلى حدوث أي تغيير يذكر لأسباب متعددة، وقد اكتفت أغلب المقالات الهامة⁽³⁾ التي تطرقت عرضا لموضوع البعثات الطلابية، بالتأكيد على الفشل التام لهذه التجربة، وفي تقديرنا فقد فات هذه الأحكام الإطلاقية أن تنظر إلى هذه التجربة في إطارها المناسب وحجمها الحقيقي، وبالتالي تقويمها بالنظر إلى تواضع الأهداف المتوخاة منها، إذا لم يكن منتظرا - كما تدفع مثل هذه الأحكام إلى الاعتقاد بذلك - أن يتمخض عن تحول تقني وفكري، من شأنه أن يغير من واقع البنيات الفكرية الجامدة، والهيكل المخزنية المتهاكة، ولم تتجاوز هذه الآراء مستوى الإقرار العام بفشل التجربة، والتأسف على ضياع هذه الفرصة، دون التعريف بنتائجها المتواضعة حقا، وتحليل أسباب فشلها. وهذا ما نتوخى إبرازه في هذا الباب بتخصيص الفصل الأول منه لرصد أهم المجالات التي اشتغل فيها بعض المتخرجين والتعريف بنماذج من أعمالهم، بينما سيهتم الفصل الثاني بمحاولة تقصي عوامل الإخفاق.

1 - عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ص 131.

2 - عن نماذج من هذه التجارب راجع أعمال ندوة "الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر".

3 - كأمثلة لهذه المقالات نذكر:

محمد التهامي الوكيل، جلالة السلطان مولاي الحسن الأول، مجلة دعوة الحق، العدد 27، السنة جمادى الأولى 1403، مارس 1983.

- عبد الحق المريني، الإصلاحات العسكرية في عهد الملك المصلح مولاي الحسن، مجلة دعوة الحق، العدد 4، السنة 12 صفر 1388 / مارس 1969.

- المهدي البرجالي، نظرة على الأحوال المغربية في القرن التاسع عشر، دعوة الحق العدد 6، السنة 12 صفر 1389 / مارس 1969.

الفصل الأول

النتائج العملية والعلمية

النتائج العملية:

يرتكز تقويمنا لمصير هذا الإصلاح ونتائجه على المقدمات التالية:

■ إن توجيه بعثات تعليمية إلى مختلف معاهد أوروبا المتقدمة، بهدف اكتساب الخبرة التقنية وتعلم اللغات الأجنبية ودراسة بعض العلوم الحديثة، تقنية وعسكرية، يشكل في اعتقادنا محاولة جادة وخطوة متقدمة بالقياس إلى شروط وسمات وضعية مغرب منتصف القرن التاسع عشر.

■ لا يمكن النظر إلى هذا الإجراء بمعزل عن باقي الإجراءات المتخذة والتي شكلت ما يمكن أن نسميه تجاؤزا ببرنامج إصلاح، نلمس في منطلقاته وأهدافه مؤشرات تنم عن إدراك السلطان الحسن الأول لمخاطر المخطط الاستعماري، وسعيه لمقاولة هذه المخاطر، عن طريق تقوية وسائل الدفاع، ومحاولة تحديث بعض المؤسسات والقطاعات الهامة، وتزويدها بأطر كفأة ذات تكوين حديث⁽¹⁾.

■ من المعلوم أن هذا المجهودات التحديثية ظلت منذ بداية انطلاقها، محاصرة بالتدخل المتزايد للأوروبيين في شؤون المغرب بوسائط متعددة، وبتوالي الضغوطات الأجنبية المعرقة لكل المبادرات الداخلية التي استهدفت النهوض بالبلاد⁽²⁾.

1 : ألبير عباس، مرجع سابق، ص4.

أين الأعرج السليماني، مصدر سابق، ج2، ص347.

2 - Charles André Julien, Hassan I et la crise marocaine au XIX siècle in les AFRICAINS ? tome III éditions, J.A, p245.

Miège, op.cité, T.IV, p142.

نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص304.

ألبير عباس، مرجع سابق، ص68.

محمد المنوني، مرجع سابق، ص387.

وأخيرا نرى أن أي تقدير حقيقي لهذه المبادرة يستدعي الأخذ بعين الاعتبار أن حدث توجيه البعثات التعليمية وعودة أفرادها إلى المغرب قد تم في ظرفية موسومة بتأخر تاريخي شامل⁽³⁾، ترتبت عنه عوائق متعددة حالت دون تحقيق أي انبعاث حقيقي.

لقد علق كاتب السجل الذي أورده ابن زيدان على عودة أفراد أول بعثة بلغة تبعث على التشكيك في كفاءتهم «وهؤلاء الخمسة عشر يدعون بخطوط أيديهم أنهم بعد تحصيل اللسان، حصلوا جل العلوم الحربية والهندسة، وحيث أنهم ما زالوا لم يستخدموا في شيء مما تعلموه لم يتحقق عندنا صدق ما يدعون، وإنما تظهر ثمرة الأعمال بتطبيق القواعد على الأعمال»⁽⁴⁾.

ولقد لاحظ العروي على هذا التعليق أنه يعكس نظرة ذرائعية ضيقة الأفق لهذه التجربة، لا تدعو للاستغراب إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الصعبة التي كان يمر منها المخزن على المستوى العسكري والمالي⁽⁵⁾.

وبدورنا لا يسعنا إلا أن نتساءل بمنطق مغاير حول مدى تأكد «ثمرة هذه الأعمال» وإلى أي حد تم فعلا استثمار تكوين هؤلاء، وتوظيف معارفهم التي حصلوها على الوجه الصحيح.

تجيبنا أغلب المصادر أن استفادة البلاد من خريجي المعاهد الأوربية كانت جد محدودة، ولم يحصل الانتفاع بخبرتهم إلا في نطاقات ضيقة تبقيت مقصورة على بعض الميادين دون غيرها، وإذا كان بعض هؤلاء لم توكل إليهم أية مهمة، ويقوا في حيز الإهمال⁽⁶⁾، فإن الذين تم تشغيلهم قد أنيطوا بمهام بعيدة عن نطاق تخصصهم⁽⁷⁾.

3 - جرمان عياش، حول الإصلاح بالمغرب في القرن التاسع عشر، مجلة دار النياحة، العدد 1، السنة 1، يناير 1984، ص14.
LAROUÏ (Abdellah), op.cité, p289.

4 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص151.

5 - LAROUÏ(A), op.cité, p287.

6 - Ch René Leclerc : « L'armée MAROCAINE, IN Bulletin de la Société de géographie d'Alger et le L'Afrique du Nora, 4è trim. Neuvième Année 1904, p79.
Charles André Julien, op.cité, p242.

7 - Miège, op.cité, T.IV, p105.
Brignon et Collab, Histoire du Maroc, p319.

وأُسندت إليهم في الغالب مناصب لم تتح لهم فرصة التعبير عن كفاءتهم⁽⁸⁾، وفي أحسن الأحوال لم تسمح سوى بتوظيف قدر ضئيل مما خبروه وتعلموه بالديار الأجنبية. فقط قلة قليلة من الخريجين برزوا على الصعيد الوطني⁽⁹⁾، وتمكنوا من تقلد مناصب ذات أهمية بل استطاع أحدهم وهو محمد الجباص الذي درس بانجلترا أن يتفد إلى أحد مراكز القرار بتوليته منصب وزير الحرب في عهد السلطان عبد العزيز⁽¹⁰⁾.

لقد كان المجال العسكري والدبلوماسي والإداري من أهم المجالات التي تم فيها توظيف هذه الأطر، وقبل التعريف بمختلف المهام التي أُسندت إلى هذه العناصر لا بد من الإشارة إلى ملاحظتين، أولهما تخص طريقة عرضنا لهذه المهام حيث تعمدنا تفاديا للابتعاد عن الموضوع، أن نعددها دون الخوض في القضايا التي يثيرها التطرق إلى هذه المجالات، وثانيها تخص نوعية وقيمة هذه المهام إذ لا شك أن بعضها قد تبدو في غاية البساطة، غير أنه ينبغي ألا يغرب عن بالنا أن هذه البساطة تستمد أساسها من طبيعة دواليب إدارة مخزن القرن التاسع عشر، حيث كانت تتميز ببساطة تركيبها⁽¹¹⁾. ومحدودية وإدماج مهامها بعضها في بعض باستثناء بعض الأجهزة المخزنية كجهاز الأمانة الذي أصبح في العقود الأخيرة من القرن الماضي يتسم بضبط نسبي لاختصاصاته وتعدد في وظائفه⁽¹²⁾.

المجال العسكري:

لقد تبين من عرضنا لأهم المواد التي كان يدرسها طلبة البعثات، غلبة الطابع العسكري على هذه المواد، لذا كان من الطبيعي أن يتم توظيف أغلبهم عند رجوعهم في قطاع الجيش بمختلف خدماته من تأطير

8 - CHAPI(Mustapha), op.cité, p86.

9 - إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص39.

10 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص150.

Taillandier st René, op.cité, p158

11 - أنظر ما كتبه عبد الوهاب منصور ميرزا بساطة خصائص الإدارة المغربية في القرن الماضي.

مجلة الوثائق، المجلد الثالث، ص485.

12 - نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص295.

وتنظيم وتجهيز. فعلى مستوى التأطير، أوردت بعض المصادر إشارات تفيد أن بعض الخريجين تولوا مهمة تدريب وتعليم الفرق العسكرية بمختلف المدن، حيث تذكر المصادر الألمانية أن الطلبة الخمسة عشر الذين تدريبوا بألمانيا، قد كلفوا بعد عودتهم بتدريب فرق المدفعية في أسفي والصويرة⁽¹³⁾، كما أشار الطالب الحسين الزعري في مذكرته أن أحد أفراد هذه البعثة التي درست بألمانيا وهو محمد سباطة كان يدرب الجنود في الرباط على «كيفية تسيير حركة المدافع مع فنون الرماية»⁽¹⁴⁾. كذلك من المهام العديدة التي اضطلع بها الزبير سكيرج نذكر إشرافه رفقة إدريس الشاوي على تنظيم طابورين من الجنود لحراسة طنجة، وهي مهمة قاما بها مدة ثلاث سنوات 1323هـ/1905م-1326هـ/1908م⁽¹⁵⁾.

ومن الأعمال ذات الطابع العسكري التي كلف بعض الطلبة المهندسين القيام بها إلى جانب الميقاتين، إعدادهم تقارير حول المسالك التي ستمر منها المحلة السلطانية⁽¹⁶⁾، وهي تقارير كانوا يضمونها معلومات دقيقة حول عدد المراحل التي ستمر منها المحلة، وعدد الساعات التي سيستغرقها سيرها، وتحديد مواقع تخييم المحلة، ووصف العوائق الطبيعية التي تعترض مسلكها، فضلا عن معلومات أخرى تخص المعطيات البشرية والمادية لمناطق هذا المسلك⁽¹⁷⁾.

أما على مستوى التجهيز، نشير بالخصوص إلى أن عدد من الطلبة الذين درسوا بإيطاليا وفرنسا وبلجيكا قد تم استخدامهم في بعض الوظائف التقنية بمعمل السلاح بفاس ومن بينهم محمد الصغير،

13 - Quedenfeldt , op.cité, p3.
GUILLEN (P), op.cité, p85.

14 - أحمد معينو، مذكره طالب مغربي، ص 147.

15 - عبد الغني سكيرج، مذكره الزبير سكيرج، ص 30

ويستفاد من ترجمة مروية من ابن الطالب محمد بن الحاج النجار أحد أعضاء البعثة الموفدة إلى ألمانيا أنه عند رجوعه عين برتبة مقدم للطبعية حيث قضى نحواً من اثني عشر سنة، انظر: محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز، تحقيق مصطفى بوشعراء، من منشورات الخزنة العلمية الصيحية بسلا 1406/1986، ص 173.

16 - J. Erkman, op.cité, p256.
Leclerc (ch René), op.cité, p797.
Weisberger, op.cité, p83.

17 - أنظر أمثلة لهذه التقارير عند ابن زيدان، العز والصولة، ج 1، ص 192.
أيضا كناش رقم 12059 خ.ج.و.

المختار الرغاي، محمد بن الكعاب، إدريس الفاسي والطاهر بن الحاج الأودي، ومحمد المنقري، وعباس بن قاسم، وقد كان مجموع العاملين في دار السلاح يقدر بـ ثلاثمائة عامل يخضعون لنظام عسكري⁽¹⁸⁾.

ومن الخدمات المرتبطة أيضا بهذا المجال، تكليف المخزن بعض الخريجين بحكم تخصصهم بتشكيل لجن عسكرية، كانت تقصد بعض الأقطار الأوربية خاصة ألمانيا، وذلك بهدف التفاوض ومعاينة الأسلحة التي كان يتم اقتناؤها من شركات ومعامل السلاح، ويمكن الوقوف على مثال لهذه المهمة من خلال ما أورده الزبير السكيرج في مذكرته «سنة 1307، وعن الأمر العالي توجهت صحبة الأمين السيد الحاج محمد الزكاري والمهندس الألماني لمعمل (كروب Krupp) بألمانيا للمفاوضة في شراء المدفعين السابقة المشار إليها، وسنة 1308هـ توجهنا ثانية صحبة أعيان الطبعية السادات: الحاج إدريس بن عبد الواحد والقائد محمد الشديد والقائد محمد سباطة الرباطيين إلى مدينة (مبين) بألمانيا لحضور اختيار المدفعين العظيمين وأبنا بالنتيجة التي طرحت على البساط العالي، كتابة وهيئة»⁽¹⁹⁾.

وأخيرا نشير إلى أن بعض الطلبة الذين تدربوا على فن الملاحة بإيطاليا عملوا كبجارة ضمن طاقم باخرة «البشير» على عهد السلطان عبد العزيز⁽²⁰⁾.

18 - ابن زيدان، «الإتحاف»، ج2، ص468، ص499.

وحول استخدام الكعاب في معمل السلاح يقاس أنظر:

Edmond Ficard : « El Maghreb al Aksa Une mission belge au Maroc, Bruxelles, 1889, p370.

19 - عبد الغني سكيرج، مذكرات الزبير سكيرج، ص30. وقد أشار الحسين الزعري في مذكرته إلى توجه لجنة عسكرية سنة 1900 إلى ألمانيا لشراء المدافع من شركة كروب وكان أعضاؤها من الطلبة الذين درسوا بإيطاليا وهم: أحمد الجبلي، محمد بن عمر، محمد التندلاوي، أنظر: أحمد معتينو، مذكرات طالب مغربي، ص145.

20 - ابن زيدان، العز والصولة، ج2، ص162.

ثريا برادة، مرجع سابق، ص225.

المجالان الدبلوماسي والإداري:

غني عن البيان ما اتسمت به السنوات الأولى من القرن العشرين من تصاعد في حدة المطامع الأوربية، وفي مقدمتها المطامع الفرنسية التي كانت تروم الانفراد بالمغرب والحصول على اعتراف الدول الأخرى بهذا الانفراد عن طريق تسوية سياسة بين المصالح الامبريالية المتعارضة. ولمواجهة هذه الأطماع التي هزت بصورة عميقة الكيان المغربي، سلك المخزن من موقع ضعف، سياسة دبلوماسية دفاعية تمثلت في إرسال سفارات وعقد اتفاقيات تمخضت عنها نتائج وخيمة، شكلت خطوات على طريق تقوية سيادة البلاد للأجنبي.

وليس من موضوعنا التطرق إلى الوقائع التي أحاطت بهذا التحرك ونتائجها، وهي وقائع أصبح من الميسر اليوم الرجوع إليها في مظان عديدة، بل ما نود الإشارة إليه هو مشاركة بعض الأطر التي درست بالخارج في هذا التحرك، وأبرزها محمد الجباص ومحمد الكعاب، والزبير سكيرج، والجبلي العيدوني، والطاهر بن الحاج الأودي.

فلقد شارك الجباص بصفته عضوا رئيسا والكعاب بصفته ترجمانا في السفارة التي توجهت إلى باريس وبيطرسبورغ خلال سنة 1319هـ/1901⁽²¹⁾، كما شارك الزبير سكيرج بصفته ترجمانا في السفارة التي قصدت في نفس السنة لندن وبرلين⁽²²⁾.

وعكس ما توخته السفارة الموفدة إلى فرنسا من تسوية للقضايا العالقة بين البلدين، فإن فرنسا استطاعت أن تضيف صفة «شرعية» على اقتطاعها لإقليم توات وبعض واحة فجيج، وذلك بتوقيع لاتفاقية 3 ربيع الثاني/ 20 يونيو 1901 بين الوزير عبد الكريم بن سليمان وديلكاس Delcassé وزير خارجية فرنسا واتفاقية 12 محرم 1320هـ/ 20 أبريل 1902 بين محمد الجباص والجنرال كوشميز (Gauchemez).

21 - Bulletin A.F.R.C.N°7 - Année, 1901, p. 237.

22 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30.

وقد كان من بين أغراض هاتين السفارتين الوقوف على نوازع القوى الأوربية والتفاهم في أمر «الإصلاحات التي كانت تلح على المخزن بإدخالها. راجع:

أبي عبد الله السليمان، اللسان المغرب عن ثقافت الأجنبي حول المغرب، ص142.

LAROUÏ (Abd), op.cité, p344.

حاكم المناطق الشرقية الجزائرية⁽²³⁾. وقد كان الزبير سكيرج والجبلي العيوني ومحمد الجباص من أهم أعضاء اللجنة التي عينت لتحديد الحدود الشرقية⁽²⁴⁾.

ويستفاد من كتاب الاستبصار⁽²⁵⁾ أن صاحبه الطاهر بن الحاج الأودي قد شارك بصفته ترجمانا في سفارتين إلى فرنسا، أولاها برئاسة الوزير علي بن محمد المسفيوي سنة 1880، وثانيهما برئاسة القائد الحاج المعطي الكبير المزامري سنة 1324هـ/1906م كما رشح الطاهر بن الحاج الأودي لترجمة مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء⁽²⁶⁾.

وبصد الترجمة، تجدر الإشارة إلى أن السلطان الحسن الأول قد عمل على خلق نواة مصلحة إعلامية بتشكيل «مكتب للترجمة» يعهد إلى أعضائه بترجمة أهم مقالات الصحف الأجنبية الصادرة بطنجة، وقد كان كل أعضاء هذا المكتب من الطلبة الذين درسوا بأوروبا⁽²⁷⁾.

أما بخصوص المجال الإداري، تؤكد المصادر أن الخريجين الذين تم تشغيلهم لم تكن تتجاوز مهامهم القيام ببعض الأعمال الجامدة في

23 - أنظر ما كتبه شارل أندري جوليان بصد هذه الأوقاف.

JULIEN (Charles-André) : « Le Maroc face aux impérialismes-Editions J-A. Paris, 1978, p141.

24 - عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص30.

RAY (J), op.cité, p42.

25 - الطاهر الأودي، الاستبصار، ص 95-96.

26 - الطاهر الأودي، الاستبصار، ص95.

لمزيد من التفاصيل راجع المنوني، مرجع سابق، ج، 1، ص255، وج2، ص199-200. ويستفاد من رسالة موجهة من أحمد الطريس إلى الزبير ابن سليمان وردت في «كناش مكاتب المندوبة السعيدة بطنجة» خ.ع.ك2720 أن المفوضية الألمانية اقترحت استقدام ترجمانا يعمل معلما في مدرسة اللغة الشرقية ببرلين، وتسمية الرسالة ب عيد الوهاب بن بويكر بن علي، وقد تبين لنا استنادا إلى الوثائق الألمانية أن هذا الأخير كان أحد الطلبة الثلاثة الذين شكلوا أول بعثة طلابية أرسلت إلى ألمانيا وهو الحسن الميودي الرباطي الذي عمل بعد عودته ترجمانا سنة 1886 لفكر Wagner. ثم ما لبث أن عاد إلى ألمانيا لمتابعة دراسته، ومكث بها مدة ثمان سنوات. وبعد عودته الثانية سنة 1895 كلف من طرف المفوضية الألمانية بعدة مهام لدى السلطان، وفي سنة 1903، عين كمدرس للعربية بمعهد اللغات الشرقية ببرلين، أنظر: المنوني، مرجع سابق، ج2، ص200.

Guillen (Pierre), op.cité, p86.

27 - GAGNE (Jacques) Presse et salafisme au Maroc au début du XXème siècle in Revue Dar Al Niaba, 2ème Année, n°7, eu 1985, p4.

Miège (J.L), op.cité, T.IV, p330.

Julien (CH.A), op.cité, p238.

المكاتب الجمركية بمدينتي الرباط وطنجة⁽²⁸⁾، غير أن إحدى الدراسات الأخيرة لا تستبعد أن يكون تهيء وإعداد «ترتيب 1884» كأهم إصلاح إداري وجبائي شهده مغرب القرن التاسع عشر قد تم على يد الأطر المغربية التي درست بأوروبا⁽²⁹⁾، حيث تم تعيين محمد الجباص بعد عودته من إنجلترا للإشراف على تطبيق هذا الترتيب⁽³⁰⁾.

تبقى الإشارة أنه إذا كان اهتمام السلطان الحسن الأول بإصلاح المراسي وتحسين الثغور وبناء الأبراج قد اقتضى الاعتماد على الخبرة الأجنبية تأطيرا وتجهيزا⁽³¹⁾. فإن عودة بعض أفراد البعثات قد سجلت البدايات الأولى للاعتماد على الخبرة المحلية في إنجاز مثل هذه الأعمال، وذلك استنادا إلى بعض المذكرات التي تفيد أن أصحابها كلفوا من طرف المخزن بالعمل إلى جانب الخبراء الأجانب⁽³²⁾.

ومن المفيد أن نختم حديثنا عن النتائج العملية لتجربة البعثات بإيراد فقرات من مذكرة الزبير سكيرج⁽³³⁾. تعرفنا من جهة بالمهام وبعض الخدمات الحديثة العهد التي قام بها، كما تطلعنا من جهة ثانية على مثال لبعض الحالات النادرة جدا التي تبرز حدود الاستفادة من خبرة ومعارف هذه الأطر.

فبعد التذكير بتاريخ ذهابه إلى إنجلترا ومدة دراسته بها كتب ما يلي: «...وسنة 1297 رشحت لمساعدة المهندس الأنجليزي المكلف بتشبيد أبراج طنجة، وتركيب المدافع⁽³⁴⁾ (...) وسنة 1299 طوقت بتركيب موازين ديوانات المراسي الثمانية بجميع ما تحتاج إليه وسنة 1301 خصصت بالوقوف على تتميم أبراج طنجة لاستغناء المخزن

28 - عبد العزيز بنعبد الله، تاريخ المغرب، ج2، ص87، وتذكر المصادر الأجنبية من جهتها أن بعض الطلبة الذين تلقوا دراستهم في الخارج قد استخدموا في الموانئ المغربية المفتوحة في وجه النشاط التجاري الأوربي.
FRISCH(R.K) : « Le Maroc, édit. Ernest Leroux, Paris 1895, p59.
RAY (J), op.cité, p42.

29 - نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص152.

30 - نفسه، ص45.

31 - راجع الفصل الثاني من هذه الدراسة.

32 - عبد الغني سكيرج، مرجع سابق.

أحمد معنيثو، مرجع سابق.

33 - لم ندرج المهام التي سبق التعرض إليها.

34 - عن هذه المهام راجع:

ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص471.

الشريف عن المهندس السالف الذكر، فقامت بهذا المهم الشامل لتركيب المدافع ببرج باب المرسى أتم قيام، وسنة 1303 كلفت بإصلاح دوران المدفعين المركبين بإشارة المهندس الإنجليزي المشار إليه سابقا (...). وبالسنة عينها توليت مساعدة المهندس الألماني المكلف ببناء برج رباط الفتح⁽³⁵⁾ (...) واستهلكت ما بين 1314-1312 هـ في بناء ديوانات القبض بالمراسي الثمانية، وإنشاء ديوانيات الجمرك بالساحل البحري لمرسى الصويرة، وسنة 1315 وعلى ظهر (البابور) الحسنني كلفت بالتجوال في السواحل السوسية والصحراوية الجنوبية للاطلاع على مراسيها ومعرفة طبيعة أراضيها وشرح أحوالها⁽³⁶⁾ فقامت بهذا الواجب، وضمنت ما يخص ذلك كناشا دفع للجانب العالي سنة 1317 عينت (بالكرونطلية) الحجر الصحي بجزيرة الصويرة مع الدكتور أرينو، المعين من قبل نواب الدول بطنجة (...) وسنة 1327 انتخبت لإدارة أعمال ضريبة المباني بمدينة تطوان (...) وبربيع النبوي سنة 1345 اقتضت الإدارة السنية والجلالة الحسنية تسميتي مديرا عاما للأموال المخزنية لتنظيم مداخلها».

النتائج العلمية:

إذا جاز لنا الحديث عن نخبة مثقفة في مغرب القرن التاسع عشر، يحق تصنيف طلبة البعثات ضمن الفئات المكونة لهذه النخبة⁽³⁷⁾، وذلك على أساس أن هؤلاء أوتوا حظا من الثقافة والتحصيل العلمي بصرف النظر عن نوعية ومستوى هذا التكوين، غير أن ما ينبغي

35 - نفسة، ص 471.

36 - عن مثل هذه المهمة نشر استنادا إلى ظهور سلطاني مؤرخ ب 3 ربيع الثاني عام 1300، أن السلطان الحسن الأول كلف بعثة لتفقد وضعية الشواطئ المغربية تغرا تغرا وقد كان من أعضاء هذه البعثة الطالب المختار الرغاي الذي تلقى تكوينه بإيطاليا.

رسالة من الحسن الأول إلى خاله محمد ولد أب محمد وأمناء مرسى العرائش، أوردها المنوني، ص 104-103.

37 - لم يتردد الأستاذ عبد الله كتون في اعتبار أحمد شهبون وعبد السلام العلمي «...من الطلائع الأولى للنهضة الحديثة» بينما أكد الأستاذ محمد المنوني أن بعض أفراد البعثات كالزبير سكريج وأحمد الجبلي العبدوني والطاهر الأودي من عناصر «النخبة الواعية» التي ساهمت في يقظة البلاد. عبد الله كتون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص 20.

محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج 2، ص 308. هذا وتشهد بعض مراسلات الطالب الكعاب على وعيه بالمطامع الاجتية وحرصه على تتبع أخبار هذه المطامع سواء في الجرائد الصادرة في فرنسا وبلجيكا أو في طنجة، حيث يتبين من إحدى مراسلاته أنه رغب في الحصول على أحد أعداد جريدة Reveil

du MAROC

تسجيله هو أن كل محاولة لتقويم حصيلة الأعمال التي خلفها أفراد البعثات لا بد وأن تصطدم بصعوبتين، أولهما تتمثل في فقدان ما يكفي من النصوص، فضلا عن أن بعضها لم يكشف عنه النقاب بعد، ومنها على سبيل المثال رحلة ألفها الطاهر الأودي خلال مقامه بفرنسا حسب ما أورده في كتابه «الاستبصار»⁽³⁸⁾، ورحلة ثانية من تأليف ابن الكعاب⁽³⁹⁾.

أما الصعوبة الثانية فتكمن في نوعية هذه الأعمال، ذلك أنه بحكم طبيعة التكوين الذي تلقاه الطلبة، وهو تكوين في معظمه ذو طابع تقني محض، فإن النصوص المتوفرة لا تسعف الدارس في إخضاعها لتحليل يتيح استخراج عناصر الأفق النظري الذي كان يتحرك فيه تفكير أصحابها، فنحن لسنا حيال نصوص من مستوى نص «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي أحد أبرز أعضاء البعثة الطلابية الأولى التي أرسلها محمد علي للدراسة فرنسا، حيث شكل هذا النص موضوع دراسات عديدة ومتباينة⁽⁴⁰⁾.

وباستثناء تأليف عبد السلام العلمي التي طالت ميادين متنوعة من فلك ورياضات وطب⁽⁴¹⁾، فإن المتأمل للآثار التي خلفها أفراد البعثات لا يملك إلا أن يسجل غياب النص النظري وحضور الإبداع المستجيب لحاجيات عسكرية ودينية، ذلك أن الكتابات المتوفرة جاءت في شكل مذكرات إن كانت ذات قيمة تاريخية فإنها لا ترقى إلى مستوى نص يستوفى أبسط قواعد وشروط التأليف المتعارف عليها⁽⁴²⁾.

38 - وقد أشار في كتابه أنه بعث بنسخة منها إلى السلطان الحسن الأول سنة 1300/1882.

39 - عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج2، ص352.

40 - من بين هذه الدراسات العديدة نخل على سبيل المثال:

- معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، ص175/201.

- كمال عبد اللطيف، التمدن والتقدم، عوائق الحداثة السياسية في خطاب الطهطاوي «ندوة النهضة والتراكم»، سلسلة المعرفة التاريخية، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المحمدية 1986 ص150-129.

41 - تحاشيا للتكرار لم نر فائدة في التعريف بمؤلفات الطبيب عبد السلام العلمي، وقد وقفنا على نماذج منها بالخزانة الصبيحية بسلا، ولمزيد من التفاصيل عن نشاطه العلمي وأهميته راجع:

- محمد لأضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص458-456.

- محمد المنوني، مرجع سابق، ص244-237.

- عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية 1960، ص87-86.

Renaud (DH.P.J) : « Médecine et Médecins Marocains au siècle de My Ismail Annales de L'Institut d'études orientales T.III, année 1937, Librairie Larousse, pp96.

42 - ونقص مذكرات الزير سيكرج، ومذكرات الزعري، والكعاب وقد كتب هذا الأخير بعض مقيداته باللغة الفرنسية، تدل على مدى تمكنه من هذه اللغة، أنظر الملحق.

وهي صفة تصدق على كتاب الطاهر الأودي «الاستبصار» وهو في الأصل تأليف جغرافي عام يقع في 211 صفحة، استهله بالحديث عن أسباب وأطوار الحرب العالمية الأولى ومخلفاتها، ثم انتقل للتعريف بالكيانات السياسية لكل قارة على حدة، مفصلاً تارة أخرى، ومذيلاً حديثه عن كل قارة بجدول توضيحي حول أسماء أقطارها وعدد سكانها وعواصمها وعدد سكانها ووضعيتها السياسية، وقد تخللت هذه الأوصاف استطرادات وتعليقات في المتن والهامش، منها ما خصصه لبعض الأحداث التاريخية والسياسية التي عاشها المغرب قبل الحماية الفرنسية وبعدها، ومنها ما أفرد لسرد بعض الوقائع التي تهم البلد الذي يكون بصدد تعريفه جغرافياً، عدا حديثه عن المهام التي قام بها كما ضمن آخر كتابه بعض المراسلات السياسية.

لقد صاغ الطاهر الأودي كتابه هذا بأسلوب مهلهل أقرب إلى الدارجة منه إلى العربية الفصحى، مما جعل قراءاته مستعصية وأحياناً متعذرة، فضلاً عن افتقاره لوحدة الموضوع وانتظام محاوره. ولا شك أن تأليفاً تلك خصائصه، وخال من أي سعي نظري جاد سيكون من المجازفة اعتباره إنتاجاً فكرياً قابلاً للتحليل أو التأويل، وبالتالي استشفاف عناصر تقويمه.

ويمكن اعتبار الجغرافية والهندسة من أبرز الميادين التي أينع فيها خريجي البعثات، فالى جانب اختراع بعضهم ساعات تقنية وأجهزة فلكية وما يدخل في معناها من الرسوم⁽⁴³⁾، ترك عدد منهم تصاميم هندسية متنوعة وخرائط مرسومة وفق الطرق الحديثة⁽⁴⁴⁾، توخى واضعوها نوعاً من الدقة ينم عن كفاءتهم في هذا الميدان.

ومعظم هذه الأعمال إما محفوظة بالخزانة الحسنية، أو لا زالت في حوزة ورثة أفراد البعثات، وقد تيسر لنا الاطلاع على بعضها، وتتمثل في مجموعة من التصاميم الهندسية من وضع الطالب ابن الكعاب،

43 - أنظر نماذج منها عند محمد المنوني، مرجع سابق، ص 253-252.

44 - من هذه الخرائط نذكر خريطة من وضع الطالب الزبير سكيرج سنة 1319هـ/1901م لميناء طنجة، وما ذكره في مقدمتها «هذه صورة، خريطة مساحة الأرض المشتملة عليها ديوانة طنجة، وحدودها الكائنة بها مع قدر الفتحة الفارغة من البناء...».

عبد الغني سكيرج، مذكرة الزبير سكيرج، ص 31.

كما أشار الطاهر الأودي إلى صورة للكرة الأرضية من رسمه أنظر: الطاهر الأودي: الاستبصار، ص 96.

ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص 105.

وهي تخص بعض الآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة، تدل على مدى تمكنه وخبرته في هذا المجال⁽⁴⁵⁾.

ولتقريب صورة هذه الأعمال وإبراز مستواها، ارتأينا الاقتصار على تقديم نموذج تمثيلي يأتي في مقدمة هذا الصنف من الموضوعات التي برز فيها طلبه البعثات، وهو عبارة عن مجموعة من الخرائط الجغرافية جمعها أحمد شهبون في كتاب على شكل أطلس سماه «كتاب الجغرافية المغربية»⁽⁴⁶⁾.

يتميز العمل الكارطوغرافي الذي أنجزه أحمد شهبون سنة 1315هـ/1898م بمجموعة خصائص تتم عن مستوى استيعابه لتقنيات وضع الخرائط التي ازدهرت وترسخت خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا الغربية، كما تظهر سلامة وغنى معارفه الجغرافية سواء في الميدان الطبيعي أو البشري⁽⁴⁷⁾.

فعلى المستوى الطبيعي يستعمل شهبون بإتقان شبكة الإحداثيات من خطوط الطول والعرض حسب الإسقاطات المتعارف عليها آنذاك كالإسقاط المخروطي للامبر Lambert الذي يمكن من الحفاظ على حقيقة الزوايا والاتجاهات مع تشويهه للامتداد الحقيقي للمساحات والإسقاط الأسطوانى والإسقاط السميتي.

إن شبكة الإحداثيات الموضوعية من طرف شهبون وفقا لقياسات فلكية ورياضية سمحت له بتحديد دقيق حسب خطوط الطول والعرض لجميع القارات والجزر والمناطق، وبصفة عامة لجميع الظواهر الممثلة في خرائطه، كما يمتاز رسمه لشكل السواحل بدقة تؤكد جودة عمله الكارطوغرافي، وسعة اطلاعه على الخرائط الموضوعية في عصره.

كما استعمل شهبون تقنية الإسقاطات مع تغيير مركزها حسب المناطق المراد تمثيلها، حيث جعل مركز الإسقاط في المحيط الأطلنتي (يسميه بالمحيط الكبير) في خريطة غرينلاند⁽⁴⁸⁾، وفي المحيط الهادي

45 - أنظر الملحق.

46 - أحمد شهبون، كتاب الجغرافية المغربية، خ.ج.و، رقم 2388.

47 - راجع تعليق ابن زيدان في العز والصولة، ج2، ص ص162-161.

«الدرر الفاخرة»، ص ص96-95.

48 - أحمد شهبون، ص 16.

يسميه البحر المحيط) في خريطة استراليا وجزر⁽⁴⁹⁾ المحيط الهادي الجنوبي، وفي أمريكا الوسطى في خريطة الأمريكتين⁽⁵⁰⁾، وفي وسط إفريقيا في خريطة هذه القارة⁽⁵¹⁾، وفي وسط في خريطة أوروبا⁽⁵²⁾.

وبالإضافة إلى أن شهبون كان مستوعبا ومطبعا موقفا لأهم أسس الكارطوغرافيا الحديثة (كروية الأرض-القياسات الرياضية لوضع الإحداثيات، ميلان محور الكرة الأرضية تغيير مراكز الإسقاطات، فإن عمله الكارطوغرافي يعطي معلومات وافية حول شبكة الجريان المائي برسمه أهم الأنهار فضلا عن البحيرات والبحار الداخلية، كما أرفقت خرائط القارات بجدول لأسماء أهم المجموعات الجبلية.

ومما يظهر عمق ورشد المعرفة الجغرافية عند ابن شهبون تعرضه لمفاهيم ومعاريف جغرافية حديثة الظهور بالنسبة لتاريخ وضعه لأطلسه. فمن جهة يعرض من خلال خريطته الأولى⁽⁵³⁾ لظاهرة البنية الباطنية للكرة الأرضية حيث يبرز من خلال الرسم البنية الطبقيّة للأرض، فهو يصور تعاقب ثلاثة طبقات قبل الوصول إلى المعطف الذي يحيط بالنواة، وإذا كان سمك هذه الطبقات غير مطابق بدقة لما نعرفه اليوم عنها، وكذا غياب تسميتها وذكره لخصائصها الفيزيوكيميائية يمثل نقصا في عمله، فإن مجرد تبنيه للتصور الطبقي للبنية الباطنية للكرة الأرضية يعتبر في حد ذاته مكسبا معرفيا متقدما بالقياس إلى حداثة المعارف حول هذا الموضوع في فترة وضعه لهذه الخريطة.

ومن جهة ثانية، يعرض شهبون لمفهوم جغرافي متطور في إحدى خرائطه⁽⁵⁴⁾ حيث يصنف الأرض إلى مناطق بيومناخية اعتمادا على خصائصها المناخية والحرارية بالخصوص، فهو يميز بكل وضوح المنطقة الحارة الممتدة ما بين مداري الجدي والسرطان يتوسطهما النطاق الاستوائي، والمنطقة المعتدلة الشمالية والجنوبية، وأخيرا المناطق المتجمدة عند القطبين.

49 - نفسه، ص 17.

50 - نفسه، ص 13-14.

51 - نفسه، ص 11-12.

52 - نفسه، ص 9-10.

53 - نفسه، ص 2.

54 - نفسه، ص 3-4.

كما يظهر في عمل شهبون إهتمام ملحوظ بمعطيات الجغرافية البشرية، وذلك بمحاولته إبراز أسماء البلدان وأهم الحواضر إضافة إلى رسمه الحدود السياسية لبلدان العالم.

كما يشير في جداول مرافقة للخرائط إلى عدد سكان هذه البلدان وعواصمها والأجناس التي تقطنها، وتعكس المعطيات البشرية الممثلة في الخرائط العامة وفي خريطة المغرب معرفة واسعة بالواقع السياسي والديمقراطي والانتقراطي لمختلف المناطق التي مثلها في هذه الخرائط.

وإذا كان عمل شهبون يمثل أهم إنجاز كارتوغرافي في مغرب نهاية القرن التاسع عشر، فإنه يرقى في جميع جوانبه إلى المستوى الذي كانت قد وصلته الإنجازات الكارتوغرافية في أوروبا خلال نفس الفترة. ومن أهم المؤاخذات التي يمكن تسجيلها عدم استعماله للمقياس في كل الخرائط، في وقت كانت هذه التقنية قد أصبحت شرطاً علمياً لدقة الإنجاز وإمكانية قراءته بنفس الدقة، كما يسجل عليه عدم استعماله لتقنية المفتاح والرموز الكارتوغرافية التي أصبح على الخريطة الحديثة أن تمثلها.

وإجمالاً فخرائط شهبون من النوع العام، كما أنها تمثل مجموع الكرة الأرضية أو قاراتها ومحيطاتها الكبرى وفي حالة وحيدة خريطة بالمغرب، لذلك فهي تكتفي بالمعطيات العامة وغير المفصلة، وعليه فالحاجة إلى استعمال الرموز غير ملحة.

على أن هذه النواقص لا تقل في شيء من قيمة عمل أحمد شهبون، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار قلة وتواضع عطاء المغاربة في هذا المجال خلال هذه الفترة بالقياس إلى عطائهم في مجالات أخرى من المعرفة.



الفصل الثاني

أسباب الفشل

على غرار ما آلت إليه أغلب المحاولات الإصلاحية التي شهدتها المغرب طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر⁽¹⁾، فإن تجربة البعثات التعليمية كمجهود إصلاحية رسمي باءت هي الأخرى بفشل يكاد يكون تاما.

لقد كان من المنتظر من هذه المبادرة أن تزود الأجهزة المخزنية بأطر تتحدث لغات مختلفة، ومكونة تكوينا حديثا⁽²⁾، من شأنها أن تساهم من موقعها بدور فعال في النهوض بالبلاد⁽³⁾، غير أن كل هذا لم يحصل وذلك بتجميد المسؤولين لأغلب الخريجين، رغم عودتهم بمؤهلات تعدهم للاضطلاع بالمهام التقنية التي كان يحتكرها الخبراء والمدرّبون الأجانب، وحتى تلك القلة القليلة التي أوكلت إليها بعض المهام لم يتأت لها ولم يكن بمقدورها القيام بأي دور⁽⁴⁾ في مستوى ما كانت تتطلبه أوضاع المغرب المتردية وقتذاك، ولم تخلف كتاباتها المحدودة أي صدى في الأوساط المثقفة.

1 - في تقييمهم لمجمل هذه الإصلاحات كتب مؤلفو تاريخ المغرب ما يلي: «على كل المستويات آلت الجهود إلى فشل شبه كلي مرده إلى قلة الوسائل وقلة كفاءة الموظفين وانعدام خبرة الإدارات المغربية، ومرده كذلك إلى احتراس الناس من الإجراءات المتخذة نظرا للحالة التي كان عليها الرأي العام لقلّة اطلاعه...».

2 - Brignon (J) et Collab : « Histoire du Maroc », p319.

SALMI (Jeanne Marie) : « L'attitude des Européens à l'égard de la politique de reformes au Maroc à la veill du protectorat, in Actes du colloque : Reforisme et société Marocaine au XIX siècle, publications de la faculté des lettre-Rabat 1983, p438.

نعيمة التوزاني، مرجع سابق، ص45.

3 - المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص45.

-قاسم الزهيري، مرجع سابق، ص

4 - LAROUÏ (Abdellah), op.cité, p289.

ولا شك أن رصد عوامل إخفاق هذه التجربة يقتضي بالضرورة ربطها بطبيعة البنية الكلية للمجتمع المغربي، ومعرفة مواقف واختبارات بعض القوى النافذة والمؤطرة لهذا المجتمع، فضلا عن دور التدخل الأجنبي المتزايد في شؤون المغرب، فالحديث إذن عن أسباب فشل تجربة البعثات التعليمية لا بد وأن ينتظم ضمن هذه المستويات في تشابكها وتفاعلها، وما تمخض عنها من عوائق في وجه كل المحاولات الإصلاحية التي استهدفت تجديد بعض الهياكل التقليدية المتداعية إلى الانهيار.

وبالطبع، يأتي دور الضغط الأجنبي في مقدمة أسباب فشل هذه التجربة وغيرها من المحاولات الإصلاحية التي رام السلطان الحسن الأول تحقيقها، والتي من دون شك كان من أهدافها المركزية مواجهة مضاعفات هذا الضغط، ونرى من المفيد هنا أن نورد ما قاله ألبير عياش مبرزا آثار هذا العامل في شل الجهود التحديثية: «...ولو لم يكن العالم آنذاك عبارة عن غابة متوحشة لاستمرت عملية التحديث التي ابتدأت منذ عشرات السنين عبر الاتصالات المتكررة مع العالم الخارجي وتبعا لوتيرة تتلائم وعبقورية الشعب المغربي»⁽⁵⁾.

على أن دور الضغط الأجنبي لم يقف عند حدود إفشال هذه المحاولات بل عمل على تحريفها وتوجيهها الوجهة التي تخدم مصالحه⁽⁶⁾، وحتى لا نستعيد ما أبرزته دراسات سابقة حول دور هذا العامل⁽⁷⁾، نكتفي بالإشارة إلى أننا نشاطر رأي أحد الباحثين الذي لا يستبعد أن المدربين العسكريين الأوربيين الذين كانوا يعملون في صفوف المخزن قد عرقلوا بنجاح عمل هذه الأطر⁽⁸⁾.

ولا نعد مجازفين إذا اعتبرنا أن طغيان التفسير الذي يرجع الفشل إلى عامل التدخل الأجنبي وحده قد يحجب عنا رؤية وتلمس عناصر ركود البنيات الداخلية كعائق من عوائق الإصلاح.

5 - ألبير عياش، مرجع سابق، ص 68.

6 - ثريا رادة، مرجع سابق، ص 349.

7 - Miège (IL), op.cité, T.III, p142.

SALMI (J.M), op.cité, p438.

JULIEN (ch.A), op.cité, p245.

لطيفة كندوز، التنافس الأوربي في المغرب على عهد السلطان الحسن الأول، ضمن مجلة البحث العلمي العدد 32، ذو الحجة 1401، نونبر 1981، ص 143-142.

8 - CHAPI (Mustapha), op.cité, p86.

في هذا السياق يمدنا المؤرخ الناصري بشهادة قصيرة ذات دلالات غنية، بخصوص ما نحن بصدد إبرازه، حيث علق على مبادرة السلطان الحسن الأول بإيفاد البعثات التعليمية إلى أوروبا بالكلمات التالية: «... إلا أن ذلك لم يظهر له كبير فائدة، إذ كان ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمات وتمهيد أصول ينبغي الخوض في تلك العلوم والعمل بها عليها»⁽⁹⁾.

تحيلنا هذه الشهادة في جوهرها إلى القيام باستعادة نقدية للمنطلقات التي حددت المبادرة السلطانية، والخلفية التصورية التي حركتها، والطريقة التي باشر بها المخزن هذا الإصلاح وكيفية إنجازه، وفي هذه الاستعادة نكتشف أن تجربة البعثات التعليمية حملت في طياتها منذ انطلاقتها بعض عوامل فشلها.

لقد كانت النظرة التي استحكمت في الإقدام على هذه الخطوة- على أهميتها- نظرة ضيقة وتقنية بالأساس⁽¹⁰⁾، وتفسير ذلك يكمن في الطريقة التي أدرك بها المخزن أسباب الهزائم العسكرية التي مني بها المغرب، ونقصد بالأساس هزيمتي إيسلي وتطوان، مع ما ترتب عن هذا الإدراك من وعي سطحي لمفعول هذه الهزائم وفهم غير شامل لمرتكزات التقدم الأوربي، وبالتالي اختزال الغرب أو أوروبا إلى مجرد قوة عسكرية يسهل تداركها ومواكبتها⁽¹¹⁾، وذلك عن طريق القيام بإجراءات تحديثية معزولة كلياً عن سياق تحديث بنيات المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً، ومن هذه الإجراءات العمل على إيجاد أطر ذات تكوين حديث على نمط الأداة التي ألحقت بالمغرب هذه الهزائم، وكشفت عن هشاشة تنظيماته التقليدية.

9 - الناصري، زهرة الأفنان، ج2، نقلا عن المنوني، مظاهر بقطة المغرب الحديث، ج2، ص386.

10 - راجع بصدد هذا الاستنتاج:

عبد المجيد الصغير، ملاحظات حول مشكل الإصلاح في أول مخطوط (صوفي) لتحرير الجزائر، سنة 1265هـ/1849م، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط العدد الثامن السنة 1982، ص351-350.

11 - تنطبق هذه الملاحظة أيضاً على الإصلاحات العثمانية الأولى حيث أكد أكثر من باحث أن بداية القبول بالأخذ عن التجربة الأوربية كانت عسكرية صرفة، نتيجة الوعي الحاصل بعد هزيمة الجيوش العثمانية وهو الوعي الذي حدد نظرة السلاطين العثمانيين للتقدم الأوربي كتقدم عسكري تقني، لذا ثبت الاعتقاد بضرورة الإصلاح والأخذ بالتجربة الأوربية في مجال التنظيم العسكري والعلوم الحربية أنظر:

خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطليعة الطبعة الأولى، بيروت، يونيو 1981 صفحات 34-16-8 معنى زيادة، الحل السياسي عند رواد النهضة، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص117.

وقد كان لهذه النظرة أثرها البالغ في محدودية آفاق هذه الخطوة الإصلاحية، وذلك بحصر الاهتمام على تمكين الطلبة الموقدين إلى المعاهد الأوربية من العلوم العسكرية في المقام الأول، دون الاهتمام بتوسيع دائرة تخصصاتهم لتطال علوم أخرى، اللهم عدا إذا استثنينا بعض البعثات القليلة التي استفاد أفرادها من تكوين متنوع وشامل إلى حد ما⁽¹²⁾.

ولعل هذا ما يفسر لنا كون البعثات لم تمارس أي تأثير في ميدان التعليم، يؤكد قولنا هذا ما ذهب إليه الأستاذ كنون، حيث اعتبر غلبة الطابع العسكري على نوعية التكوين الذي تلقاه أغلب أفراد البعثات أحد الأسباب التي حرمت المغرب من الاستفادة من نتائجها، يقول في هذا الصدد: «...وإذا كان مما يلاحظ أن هذه البعثات لم تقم بنشاط مهم في ميدان التعليم بعد رجوعها وأن الانتفاع بها كان قاصرا على الميادين التي ذكرناها (بقصد قطاع الجيش والإدارة والدبلوماسية)، فإن ذلك لسببين مانعين أحدهما أن التعليم الذي كان يتلقاه غالب أفرادها لم يكن تعليما كاملا وإنما تدريبا أو تكوينا عاما وأكثره مما يتعلق بالفنون العسكرية»⁽¹³⁾.

يضاف إلى هذا العامل، كون هذه الأطر لم تجد بعد عودتها بنية تعليمية تتيح لها توظيف ما حصلت عليه من المعارف الجديدة، إذ لم تكن وقتذاك مدارس كان بالإمكان أن تتولى فيها مهام التدريس⁽¹⁴⁾. كتعليم اللغات الأجنبية التي لا شك أن بعض الخريجين كانوا يتقنونها⁽¹⁵⁾.

ومن جهة أخرى يتبين لنا من خلال معاينة دقيقة للحيثيات التي رافقت تطبيق هذا الإصلاح، غياب تصور كلي له، أو تخطيط مسبق ومتكامل للإجراءات التي كانت تستلزمها عملية إيفاد البعثات إلى الأقطار الأوربية، فاختيار الطلبة لم يحتكم إلى مقاييس مفصلة

12 - أنظر الفصل الخاص بمقاصد البعثات من هذه الدراسة.

13 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص21.

14 - نفسه، ص21.

15 - كمثال على ذلك، أنظر في الملحق وثائق الطالب ابن الكعاب باللغة الفرنسية. وقد أشار قاسم الزهيري الذي أدرك بعض أفراد البعثات كالعربي حركات، وحسين الزعري «أن أحدهم حاول فتح مدرسة بعد عودته من فرنسا فأقفلتها السلطات إذا ذاك...». قاسم الزهيري، اتصال المغرب بالتعليم العصري، ص25.

ومضبوطة، وإنما اكتفت الرسائل السلطانية الموجهة إلى النائب السلطاني وعمال المدن في هذا الشأن، بالتنصيص فقط على مقاييس عامة، تذكر منها على الأخص صغر سن المرشحين وقابليتهم للتعليم⁽¹⁶⁾ وحتى هذان الشرطان نادرا هي الحالات التي تثبت الوثائق أنه تم التحقق من مراعاتهما⁽¹⁷⁾، فكان من نتائج ذلك أن جاء الاختيار في غالب الأحيان غير موفق ومناسب، بل هم أحيانا عناصر تفتقر إلى الحد الأدنى من المعارف الأولية⁽¹⁸⁾.

كذلك لم يكن توجه البعثات مسبقا بإعداد فعلي وكاف يجعل أفرادها مؤهلين لاستيعاب ما سيدرسونه بالمعاهد الأوروبية⁽¹⁹⁾، إذ لم يتجاوز التكوين الإعدادي الذي تلقوه بطنجة حدود تعلم أوليات لغة البلاد التي سيقصدونها.

وإذا كانت بعض الحالات قد أثبتت عناية المخزن بطلبة البعثات أثناء مقامهم بأوربا، وذلك بتفقد أحوالهم ومعاينة أعمالهم، فإنه على ما يبدو لم يقع التفكير في جعل هذا التفقد إجراء منتظما وشاملا لكل البعثات، إذ بقي رهين بعض المناسبات والمتمثلة أساسا في توجيه السفراء إلى بعض الأقطار الأوروبية حيث يقيم أعضاء البعثات الطلابية، ولم نقف على مراسلات تفيد حرص المخزن على متابعة نوعية وأطوار التكوين الذي يتلقاه الطلبة، بل على العكس من ذلك، فإن بعض رسائل الطالب ابن الكعاب الموجه إلى النائب السلطاني بطنجة، تمدنا بشهادات دالة على تخاذل الجهات المسؤولة في هذا الشأن.

وإذا كان تنويع البلدان التي قصدتها البعثات، قد فسر كمظهر من مظاهر سياسة التوازن التي نهجها السلطان الحسن الأول اتجاه الدول الأوروبية المتنافسة⁽²⁰⁾، فإن (مبيج) في دراسته قد اعتبر هذا

16 - أنظر نماذج من هذه الرسائل في: مجلة الوثائق، المجلد الثالث.

17 - رسالة الحسن الأول إلى قائد الصورة الحاج عمارة بن عبد الصادق بتاريخ 23 صفر عام 1293هـ (20 مارس 1876م)، عن مجلة الوثائق المجلد الثالث، ص 457-456.

18 - CAILLIE (J), op.cité, p139.

Miège (J.L), op.cité, T.III, p105.

LAROUÏ (A), op.cité, p285.

19 - جاك كايي، السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا، مجلة تطوان، العدد 6 السنة 1961، ص 186.

أحمد معنيو، مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة، ص 145.

20 - Miège (J.L), op.cité, T.III, p221.

التنوع كسبب من أسباب فشل تجربة البعثات التعليمية، ذلك أن توزيع الطلبة على مدارس إنجليزية وألمانية وإيطالية وفرنسية، وتلقيهم بها دروسا متنوعة وفق مناهج مختلفة جعل تكوينهم جد متباين، كان له انعكاس سلبي على مستوى توظيفهم⁽²¹⁾.

نستنتج مما سبق أن سوء طرق تنفيذ الإصلاح، وما شاب إجراءاته من ارتجال، كان من الأسباب التي ساهمت في التقليل من حظوظ الاستفادة منه⁽²²⁾، على أن شهادة الناصري السابقة تحمل دلالة أبعد من هذه الجوانب التنظيمية التي حاولنا إبراز قصورها، فـ «تقديم مقدمات وتمهيد أصول» التي سجل غيابها، تعني بتعبير آخر أن هذا الإصلاح لم يركز على أساس اجتماعي واقتصادي وفكري يوفر له إمكانيات التطبيق الناجع، وبالتالي يضمن له حظوظا ليسفر عن «كبير فائدة»، لذا لم يكن ممكنا أن يؤدي هذا الإصلاح ثماره في غياب أي استعداد داخلي، من شأنه أن يجعل الرأي العام مهيا لاستقبال وتمثل عناصر التحديث، واستيعاب المعارف الجديدة التي عاد بها طلبة البعثات، وراغبا في غرسها في كيان المجتمع بدل معارضتها كما حصل⁽²³⁾.

فغني عن البيان أن ضمان إنجاح هذا الإصلاح كان يستلزم مسبقا تهيئ شروط الأرضية المناسبة التي يمكن الاستناد إليها، وهذا بالضبط ما كان يفتقر إليه المجتمع المغربي وقت إفاد البعثات وعودة أفرادها، وفي هذا المعنى كتب محمد عابد الجابري مفسرا بعض أسباب فشل التجربة الإصلاحية بقوله: «...غير أن هذه الإصلاحات لم تكن مرفوقة بأي تجديد في الفكر والثقافة، وبعبارة أخرى لقد كانت هذه الإصلاحات تفتقد المناخ الضروري لغرس جذورها في المجتمع وضمان نموها وتطورها، لقد كان أفراد البعثات الموجهة إلى أوروبا

21 - Ibid, T.IV, p105.

22 - في تفسيره لأسباب فشل إصلاحات محمد الرابع والحسن الأول عدد إدمون بورك جملة عناصر نذكر منها سوء التطبيق، وتجاهل عنصر التدخل الأجنبي وأثاره الذي كان في مقدمة عوائق الإصلاح الحقيقي. إدمون بورك، العلماء المغاربة في 1860-1912، تعريب محمد بن عبود وعبد العزيز السعود، مجلة البحث العلمي، العدد 31، السنة ذو الحجة 1400هـ/أكتوبر 1980، ص124.

23 - LAROUÏ (Abd), op.cit, p283.

محمد المنوني، مرجع سابق، ص387.
الحسن السانح، الحضارة الإسلامية في المغرب، ص405.

على دفعات- نحو الأربعمئة من العسكريين والمدنيين- يعودون ليندمجوا في أوضاع فكرية واجتماعية لم تكن تسمح لهم بالتنفس بالقيام بأية أعمال تجديدية فكرية أو اجتماعية...»⁽²⁴⁾.

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على أننا ننظر إلى عامل سيادة العقلية التقليدية وتجذرها في البنية المجتمعية كعائق من عوائق هذا الإصلاح، من زاوية مغايرة لتلك التي نظرت بها الكتابات الأجنبية إلى هذا العامل، حيث جعلت من «تخلف» عقلية المغاربة و«ثقل» التقاليد السبب الرئيسي الذي كان وراء فشل كل المحاولات الإصلاحية⁽²⁵⁾.

بناء على هذا التأكيد نود الإشارة إلى ما كان لمواقف بعض القوى التقليدية ذات النفوذ القوي في أوساط المجتمع، من مسؤولية في جعل أعضاء البعثات يعيشون منعزلين، وغير فاعلين في مجتمعهم أو حتى في اختصاصاتهم.

لقد ظل أغلب العلماء متمسكين بمواقفهم المحافظة، ومناهضين لأي مبادرة تحديثية منبعثة من آفاق غربية⁽²⁶⁾، وكانوا يرون في عادات وزي وعلوم الأوربيين ومن يأخذ عنهم أو يتشبه بهم، بدعا ينبغي محاربتها، حتى لا تغزو أذهان الناس وتهدد قيم المجتمع المغربي⁽²⁷⁾. وأمام هذا النفور الشديد، كان من الطبيعي أن لا ينظر العلماء بعين الارتياح إلى مجموعة الشبان المغاربة باعتبارهم درسوا في ديار الأجنبي، وعادوا حاملين لأفكار جديدة وعلوم دخيلة.

24 - محمد عابد الجابري: «نظور الأنتلجنسيا المغربية، الأصالة والتحديث في المغرب»، ص15.

25 - تحفل أغلب الكتابات الأجنبية بمثل هذه الأحكام، نحيل على سبيل المثال لا الحصر:

Terrasse (H) : « Histoire du Maroc, des origines de l'établissement du protectorat Français.

E. Aubin (E) : « Le Maroc d'aujourd'hui, p155.

Kerdec un boulevard de l'islam, p111.

ادمون بورك، مرجع سابق، ص124.

26 - Miège (JL), op.cité, T.IV, pp135-139.

مصطفى الشابي، النخبة المغربية في القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثامن السنة 1982، ص306.

27 - محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص395.

عبد العزيز بنعبد الله، مرجع سابق، ص86.

محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص17.

وإذا كان موقف هذه الفئة راجع إلى تخوفها من أن يواكب هذه التدابير الإصلاحية تدخلا أجنبيا، خصوصا وأنها عاينت الدسائس الأوربية التي ما فتئت تشدد وقتذاك مستهدفة سيادة وخيرات البلاد، فإن كثيرا من الباحثين يجمعون على ما كان لمثل هذه المواقف المحافظة من أثر في تعطيل إمكانيات الإبداع والخلق، وصبغ الفكر بسمات الجمود والتقليد، إذ لم يتعد دور أغلب العلماء مستوى الرفض والاكتفاء بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون أن ترتقي كتاباتهم إلى مستوى بلورة حول مطابقة لمتطلبات أحوال الوضع المستجد آنذاك، وبقي فكرهم يتحرك في دائرة القديم، مستلهما أمجاد الماضي⁽²⁸⁾. وبعيدا كل البعد عن إدراك روح العصر، لذا لم يشهد المغرب تلك الحركة الفكرية النشيطة التي عرفتها مصر في نفس الفترة⁽²⁹⁾، ولم يبرز فيه مثقفون باثروا التفكير في مستويات التأخر وسبل الترقى والتقدم، أو دعاة إصلاح يتبنون آراء تنويرية أو ذوا نزعة تجديدية توفيقية كما حصل في مصر وتونس⁽³⁰⁾.

ففي ظل هذه البيئة الفكرية الموسومة بسيادة التقليد والجمود ظل أفراد البعثات يعيشون على هامش المجتمع والأحداث، وتحت ضغط الإحباط والشعور بالعجز.

وهكذا نجد أحد الباحثين المعاصرين لا يتردد في تحميل نصيب من المسؤولية حول مصير هذه التجربة إلى مواقف العلماء، يقول الأستاذ عباس الجراري في هذا الصدد: «...وما تجميد المسؤولين للخريجين الذين عادوا من البعثات الموفدة للخارج إلا مظهر لذلك، والمسؤولية تقع كذلك على العلماء ورجال الفكر الذين قطعوا ما بينهم وبين الجماهير

28 - محمد زنيبر، الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، 322-317، 6.

عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص25.

29 - محمد الأمين البراز، الإصلاحات والمشاكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، ص232.

محمد زنيبر، المرجع السابق، ص320.

ولقد أشار لوترنو إلى المفارقة بين الحياة الثقافية والنشاط الاقتصادي التي ميزت مدينة فاس قبيل الحماية الفرنسية، إذ في الوقت الذي شهدت المدينة تطورا اقتصاديا ظلت على الصعيد الثقافي منغلقة على نفسها، ومشدودة بإخلاص إلى التقاليد.

30 - سقنا هذه الملاحظة على سبيل المقارنة الأولية فحسب، علما أن كتابات رواد الإصلاح قد تعرضت لانتقادات عديدة من حيث بنيتها الفكرية، غير أن هذه الانتقادات لا تقلل من فاعليتها الإصلاحية كما أشار إلى ذلك عبد الله العروي في مؤلفه مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1981، ص36.

من رباط، فلم تعد لهم على الصعيد المجتمعي أية مبادرة ولا أي دور قيادي ولا أي صوت مسموع إلا ما كان من صوت الوعظ والإرشاد، وحتى هذا الصوت فقد كان غالبا ما يضيع في زحمة الصراع من أجل المصالح...»⁽³¹⁾.

وأخيرا نشير إلى أن عدم استغلال هذه الأطر وتهميشها كان راجعا أيضا إلى معارضة رجال المخزن من وزراء وقواد وكتاب وغيرهم لهذه الأطر⁽³²⁾، وإذا علمنا أن جل هؤلاء كانوا شبه أميين أو في أحسن الأحوال ذوو تكوين ثقافي محدود وجامد، أدركنا خلفية موقفهم هذا والذي بلغ حد تنظيم حملات تشهير ضد أفراد البعثات متهمين إياهم بالجهل والكفر، حيث يستفاد من كتاب «الاستبصار» أن صاحبه الطاهر الأودي بعد أن نبه الأوساط المخزنية إلى حقيقة المطامع الاستعمارية وضرورة الاستعداد اللازم لدرء أخطارها، جاء جواب بعض الوزراء أن اتهموه بالإلحاد مضيفا أنهم كانوا ينقلون للسلطان أن أعضاء البعثات بعد أن مكثوا في الدول الأوربية مدة طويلة عادوا منها جهالا متنصرين⁽³³⁾. ولا شك أنهم فعلوا ذلك كما أكد عابد الجابري: «خوفا من أن ينال هذا الاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي من مكانتهم ونفوذهم ومصالحهم»⁽³⁴⁾.

إن فشل أول تجربة للبعثات التعليمية، والتجارب المماثلة التي سبقتها في فترات لاحقة، يقضى بنا إلى التأكيد على أن أية محاولة تروم إدخال بعض عناصر التحديث على بنية مجتمعية موسومة بهيمنة الطابع التقليدي، دون أن توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ودون أن تكون منبثقة من تطور داخلي، تبقى محاولة محكومة بإخفاق متواصل،

31 - عباس الجراري، النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 1912، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الجديدة، الطبعة 2، الداري البيضاء 1978، ص11.

32 - ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص465.

عبد العزيز بنعبد الله، مرجع سابق، ص86.

33 - المنوني، مرجع سابق، ص386 387 op.cité, LAROU (ABD).

حول هذه الاتهامات كتب الطاهر الأودي بلغة أقرب إلى العامة ما يلي: «وحيث بينهم بحجاج الستعداد لأعادي الدين على سبيل النصيحة بنياتنا خالصة، الحساد وزراء وكتاب خرجونا من الملة المحمدية...».

وفي موقع آخر كتب «...وفي عام 1305 بفاس رثيت بعين القلب وزراء وكتاب وأمناء...حيث قالوا لأمر المسلمين كما ير النصارى جثنا منها جهور (كذا) متنصرين».

الطاهر الأودي، الاستبصار، ص38، وص96.

34 - محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص15.

وغير قادرة على إحداث تحول حقيقي، رغم عودة بعض أفراد البعثات وصياغتهم لبعض أطروحات الإصلاح في هذا الميدان أو ذاك، وهو أمر يبرزه بكل وضوح الأستاذ عبد الله العروي في كتابه «العرب والفكر التاريخي»⁽³⁵⁾ بقوله: «ينظر هذا المجتمع (يقصد المجتمع المتخلف) إلى العلوم الحديثة كبضاعة أجنبية، يستوعبها في لغة أجنبية، وأحياناً في مناخ أجنبي حيث يرسل أبناءه للتعليم والتدريب، والتخلف في الحقيقة هو عدم التمكن من استغلال هذا العلم المستورد، فتبقى البعثات تتبع البعثات دون أن تنجح عند رجوعها في تجديد هذا العلم المكتسب وتلقيح الحياة العمومية، قد تكون أسباب هذا العقم ناتجة عن كيفية التلقين في البلد المضيف أو المادة الملقاة أو القدر الملقن، وقد تكون الأسباب منوطة بأوضاع البلد الذي يحاول استيعاب ذلك العلم. لكن الظاهرة التي لا جدال فيها هي أنه لا يوجد تداخل بين العلم الحديث والإيديولوجية العامة في البلاد المتخلفة، ومن ضمنها البلاد العربية».



35 - عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة بيروت، 1973، ص 31-30.

خاتمة

كيف نشأت فكرة إيفاد البعثات التعليمية إلى الخارج؟ هل جاءت كمبادرة سلطانية صرفة، أم تمت بإيعاز من جهات أجنبية؟ ما هي المقاييس والشروط التي روعيت في عملية اختيار أفراد البعثات؟ ما هي الأهداف المتوخاة من وراء هذه المبادرة الإصلاحية. كيف يتأتى لتجربة مماثلة أن تؤتي ثمارها في مجتمع مغرب القرن التاسع عشر بما هو عليه كمجتمع تقليدي متأخر؟ وما هي حدود استفادة المغرب من هذه المبادرة؟

إن هذه الدراسة في بنائها العام لا تعدو أن تكون محاولة جد متواضعة لتقديم أجوبة عن هذه الأسئلة ومثيلاتها، أثبتناها في سياق تحليل فصول البحث، جاعلين من هذه الأسئلة منطلق وموجه هذه المقاربة التي نشعر حيالها أنها لا زالت في حاجة إلى مزيد من التهذيب، والتمحيص، وليس ذلك نتيجة تقصير في التنقيب عن المادة اللازمة والكافية، بقدر ما هو مرتبط بندرة ومحدودية المعلومات التي تمدنا بها المظان التي تيسر الاطلاع عليها.

وهي معلومات لم تسعفنا دوما في تقديم صورة دقيقة وعميقة لبعض جوانب موضوع هذه الدراسة، كالجانب المتعلق بالآصول الاجتماعية لأفراد البعثات، ودرجة ومستوى وعيهم بعد عودتهم إلى المغرب، وتصوراتهم لمظاهر الحضارة الأوربية التي عاينوها خلال مقامهم بالديار الأجنبية، والقضايا التي استقطبت اهتمامهم.

ولا شك أن التمكن من الوثائق الخاصة التي من المؤكد أن بعضها لا زال مودعا في خزائن أسر بعض أفراد البعثات، واستغلال المعلومات الواردة فيها، من شأنه أن يمكن من إغناء معالجتنا لهذه الجوانب.

ومن جهة أخرى فإن الوثائق الأجنبية التي طالتها اليد تعد غير كافية، ولا يخامرنا شك في أن الاطلاع على مزيد من الوثائق المحفوظة في أرشيفات كل الدول التي قصدها البعثات، لكفيل بسد بعض ثغرات هذا العمل.

تأسيسا على هذه الاعتبارات، نرى من المجازفة والسابق لأوانه إصدار خلاصات وأحكام نهائية حول هذه التجربة الإصلاحية، بيد أن تفاعلنا مع الموضوع طيلة المدة التي استغرقها إنجازها أتاح لنا بلورة بعض التصورات الأولية التي يمكن إجمالها فيما يلي:

إن أية رؤية موضوعية لهذه التجربة تجنب نفسها السقوط في إصدار أحكام قيمة، لا بد تستبعد تصورين يختلفان في الحكم والتقييم، ويلتقيان في المنطق المعتمد، التصور الأول الذي يستصغر أو يقزم - إن جاز التعبير - من شأن هذه المبادرة، باعتبارها مثلث مجرد إجراء سطحي وجزئي، مما يوحي بالاعتقاد أنها غير قميئة بالبحث والدراسة، والتصور الثاني مناقض للأول، وهو تصور يعلي أكثر من اللازم من شأن هذه المبادرة ويحملها أبعادا تفوق بكثير حجمها الحقيقي.

إن هذه التجربة - بصرف النظر عن مردوديتها السلبية - تمثل في اعتقادنا محاولة جادة تثبت الإرادة الإصلاحية لدى السلطان الحسن الأول، وتعكس رغبة أكيدة في تجاوز الحالة المتردية التي أصبحت عليها الهياكل الإدارية والعسكرية، وتستهدف تقوية هذه الهياكل إزاء تحديات الدول الأوروبية الاستعمارية، غير أن هذه الرغبة اعترضتها عوائق داخلية وخارجية حالت دون إنجازها بصورة فعالة، وافتقدت إلى المناخ المناسب الذي يمكنها من التبلور وتحقيق الأهداف المنشودة.

من الخطأ تصنيف هذه المحاولة ضمن مجال محدد من المجالات التي جرى الاهتمام بإصلاحها، كالقول مثلا أنها تمس الميدان التعليمي فحسب، أو اعتبارها مجرد إجراء من ضمن الإجراءات المتخذة بهدف تحديث مؤسسة الجيش، بل هي تجسيد مكثف لكل هذه المحاولات الإصلاحية، باعتبارها تطل الميدان العسكري والتعليمي والإداري،

ويتأكد هذا من خلال منطلقاتها ومحتواها وأهدافها ونتائجها، وذلك بالنظر إلى نوعية تركيبة البعثات، حيث تشكلت بعضها من طلبية، وأخرى من جنود، وثالثة منهما معا، وبالنظر أيضا إلى أهدافها حيث توخى السلطان الحسن الأول من ورائها إيجاد أطر مؤهلة للإشراف على المشاريع الإصلاحية التي رغب في إنجازها، وأخيرا بالنظر إلى تنوع المجالات التي استثمرت فيها معارف وخبرة القلة القليلة من الأطر التي تم استخدامها بعد عودتها من أوروبا.

إن تجربة إيفاد البعثات الطلابية إلى مختلف الدول الأوروبية، تمثل في نظرنا خير معبر عن مآزق الإصلاح الذي يكمن تفسيره في الموقف المزدوج اتجاه أوروبا، والمتمثل في التناقض بين الرغبة في تحصيل علوم أوروبا المتقدمة والأخذ بأسباب قوتها، واستيعاب أسس تنظيماتها من جهة، والعمل على مقاومة النفوذ المتزايد للدول الأوروبية ومواجهة ضغوطها المتعددة من جهة ثانية، فأوروبا مثلت النموذج والعدو في نفس الآن، النموذج بعلومها وسلاحها وصناعاتها، والعدو لأنها أبانت عن سياستها التوسعية وأطماعها الاستعمارية التي أصبحت تهدد كيان وسيادة البلاد.



الملاحق:

- نماذج من الوثائق الأجنبية المتعلقة بالموضوع
- نماذج من مراسلات محمد الكعاب أحد طلبة البعثات
- نماذج من أعمال متنوعة للأفراد بعض البعثات

■ نماذج من الوثائق الأجنبية

*6. Lettre sans adresse à destination
de M. de Malmagne, à signifier au
Ministre des Affaires Étrangères.*

Ordre

LEGATION
DES AFFAIRES ÉTRANGÈRES
MAROC
Offices Français
Direction Algérie
113
Tanger, le 8 Juin 1914
RECEVU
MAROC
113
RECEVU
113
113

N° 26

Thomassin le Transmis

Je vous prie d'assister les
représentants étrangers au Débar-
quement, par le Vice-Consul des
États-Unis, et d'envoyer à l'envoi
des lettres et autres Transmis,
chargés d'étudier la fabrication
des armes, pour qu'ils puissent

Son Excellence
Monsieur Jules Ferry
Président du Conseil, Ministre des
Affaires Étrangères.

des indigènes ramène des
monnaies d'argent à l'usage d'une
monnaie anglaise pour se rendre
à Lège et à Lège.

Je suis de source in-
certaine que mon collègue d'Al-
gérie a obtenu un Sultan
pour la maison anglaise.
L'indigène du Maroc, une
commande de la situation d'Al-
gérie se montait en 1911. On
n'aurait pu l'obtenir, pour une autre
commande de services aurait été
faite par le gouvernement
marocain à la maison Krupp
pour les agents ont fait recon-
naître un voyage à l'étranger.

Je suis d'accord avec
vous pour ne pas à nous rendre
cette même mesure de ces ob-
stacles qui ne sont pas de l'ordre
des lois électorales.

114
parlement l'entourage des Sultan
se sont à quelques agents étrangers.
Le fils de M. de Malmagne, Bouché
est chargé de ces agents et son
sage s'occupe des communi-
cations. Les agents ont été pour
à l'étranger, en compagnie des
agents de la Légation
à l'étranger.

Par ailleurs, M. de Malmagne
de Malmagne, les services de
maître dans la considération

J. Ferry

REPRODU



combinaison de valeurs, j'ai chargé l'exercice
général de cause au sujet de l'éducation.
Le jeune homme, de campagne, a été envoyé à
Paris le 15 mai, et d'abord j'ai pu le voir dans son
appartement, (15 rue de la Harpe), et j'ai pu voir le
jeune homme à Paris, et j'ai pu voir le jeune homme
en son lieu de destination, j'ai pu voir le jeune homme
dans son lieu de destination, et le jeune homme a fait une
communication de son travail de l'école qui
devrait lui être livrée en octobre prochain, par la
même personne. C'est une opération d'enseignement
et c'est un acte de service au Maroc, et le
jeune homme, quand on aura pu le transporter à Paris
au fur et à mesure de l'argent et d'argent
convenable, y restera immobilisé, et ne
rendra rien, (pas d'argent, aucun service). Le
jeune homme, d'ailleurs, doit avoir fait la même chose
des agents lui ont été envoyés jusqu'à maintenant de
la commission de travail, et il est fort probable
qu'il n'a jamais été envoyé à l'école pour un
autre acte.

Ensuite de la mission - cinquante des jeunes gens dont j'ai vu
certains à Paris en Algérie dans mon dernier
rapport, sont partis depuis quelques jours,
sont venus tout à fait, tout près à Paris, pour
être, et en. Enfin, un commencement de travail,
quelque commission de tout caractère à l'école,
à l'école de l'école; il y a fait de
travail, dit-il de moi, - la proposition de leur
travail, dit-il de moi.

Ensuite de la mission - cinquante des jeunes gens dont j'ai vu
certains à Paris en Algérie dans mon dernier
rapport, sont partis depuis quelques jours,
sont venus tout à fait, tout près à Paris, pour
être, et en. Enfin, un commencement de travail,
quelque commission de tout caractère à l'école,
à l'école de l'école; il y a fait de
travail, dit-il de moi, - la proposition de leur
travail, dit-il de moi.

A.G.V. Rapport de C. Vallois, n° 5 mémoires,
le 10 juin 1884

وأما قولك نبين لك ما نحن فيه من أمر العسكر والطبجية والمسخرين، أعلم أننا لم يكن عندنا فيهم أحد غير اثنان من المسخرين الذين تركتهم عندنا كما علمتهم، غير أن المخازنية تفر من الخدمة الشريفة، وتكتب الحضرة العالية بالله للبasha في رجوعهم للخدمة، ويأمرنا البasha بإحضارهم فنخرج لمجيئهم، فلا نمكث إلا أياما قلائلا، فيأتي كتاباء آخر في شأن آخرين فنخرج أيضا إليهم، وهكذا نحن الله ينظر من حال الجميع، وأما قولك على قبر الوالد رحمه الله، فهو في قرب سيدي بوبكر بن العربي نفعتنا الله وإياك ببركته، وأما قولك على الفلاحة فما نحن رابطين أزواج عن ثلاثة، فالله يجعل البركة ويمطرنا مطر الرحمة، وكما يسلمون عليك القايد بوشنت بن علي وأولاده علال والسيد محمد وعباس وإدريس وأهمهم وهما بخير الله، وكما يسلم عليك الكاتب بكثير السلام وعز السلام وما نحن نطلب الله عز وجل أن يطلق سراحك عن قريب إنه سميع مجيب، وسلم من عند أخوتك على ساداتنا طلبا قبيلة الأوداية جميعا بكثير السلام وعز السلام، وأعلم أن ما ذكرت من أمور وأمر أصحابك من القراءة وما أنتم بصدده فالله يعينكم ويقضى بكم غرض سيدنا نصره الله، وذكرت لنا في كتابك أن مولانا المؤيد بالله، وجه لكم ثلاثة كساو مطروزين بالذهب زي المغرب، وتملكتم بهم حجة الحرام متم 1298، فبصحتكم وعافيتكم، فالله يعطى لسيدنا خير الدنيا والآخرة، وذكرتم ما أنتم صدد من الله في أحسن ما ينبغي والحمد لله، وقلت أنكم ببلد باريس من سنتين وثلاثة أشهر، وتقبضون ثلاثون مثقالا 30 وكل ما ذكرت من أكل وشرب، فنحن منه على بال، واستوصى بأصحابك وعشرائك خيرا، واتهلا في حسن الخلق معهم، فالله يرضى عنك ويردك سالما عن قريب، إنه سميع مجيب وهذا ما وجب به إعلامك وعلى محبتك والسلام وفي 8 ربيع الثاني عام 1299.

أخاك القايد محمد

وماتبه عبد السلام

من فوق الجميع،

آمين

fr. 5 (Cinq francs) pour les cinq meilleurs
apprenants par fr. 3, pp (Trois francs pour les
vingt autres) pour les autres par jour,
libre à moi de me payer à l'interprète
de fr. 50 - que si je suis content de son
professorat et aux ouvriers le salaire
entier que lorsque je les en jugerai
capables.

La Société Cocherill remettra de son côté à
la fin de chaque semaine (quatre semaines
la situation exacte des comptes, ouvriers
deux nos livres pour le service, avec
les états de salaires et de dépenses à
l'appui.

Sur le solde de l'ouvrier sera retenu
le montant des dépenses de vivres, si
cela sera nécessaire de faire et dont je reste
seul juge.

Je prie votre Excellence de nous donner
son accord sur ce qui précède et de
croire à mon entier dévouement aux
Augustes intentions de Sa Majesté
Messieurs du Maroc.

A Son Excellence Pacha de
Alger.

Respectueusement
A. S. S. S.

(Lettre)

9 Août

1940

Cher ami.

Permettez-moi de vous écrire quelques
mots en français, pour que je ne
dechaie pas bien encore cette langue.
Aussi je ne vous parle pas
bien longtemps.

Je désire avoir des nouvelles de
votre santé. Je prie Dieu de
vous la faire toujours bonne et
de vous accorder tout ce que
vous en avez désiré.

Ecrivez-moi le plus tôt que
vous pourrez et donnez-moi des
nouvelles de tout ce que vous
faites.

Une autre fois je vous ferai
une lettre très longue.

Je suis bonne d'âme grâce
à Dieu et je travaille beaucoup
et me rends bien de vous
revoir, mais je ne sais pas
quand cela pourra se
faire.

Votre dévoué ami

travailler beaucoup, et de
même côté l'école
d'ici de là est bonne et pour
vous de là est bonne et pour
vous de là est bonne et pour
vous de là est bonne et pour

Adieu

Cher ami

Votre lettre m'a fait beaucoup
de plaisir. Je suis heureux d'apprendre
que votre santé est bonne et que vous
vous portez bien.
De mon côté je me sens très bien et
vous et je suis très content de nos
relations et de la continuation de
votre lettre. Mes lettres sont très bonnes et
je travaille beaucoup. Je me sens
très bien et je fais beaucoup de
travail, mais je trouve que je n'en
fais pas assez, je voudrais en faire
plus et venir avec vous à Paris,
et je ne le puis pas pour le moment.
Je pense que cela sera suffisant pour
vous travailler, je suis très content
d'avoir été envoyé à Paris, cela prouve
à la France que le monde est de tous
les étrangers de tous les pays, c'est à Paris
la capitale du monde et de la
France.
Enfin, il y a de bien de gens de
travailler à Paris, c'est la place de
l'école des gens de bien et de la France.

■ نماذج من أعمال أفراد البعثات

♦ الطاهر الأودي ♦ أحمد شهبون ♦ محمد بن الكعاب

المستبحار ومجانب المعاصر والجمال والاعمار والبحور وما يبس النهر والرافض علىها
المدالو اجيد النظر للعبوات والاحبار والحين والافنن فرار مومي الجنة والحاجم
للنار وتناول النكا على مرهفي وتبخر والمقادير معة البدل الطربو الغيسار

المدل وودعده وصل المد على سيدنا محمد ووالدوسلو

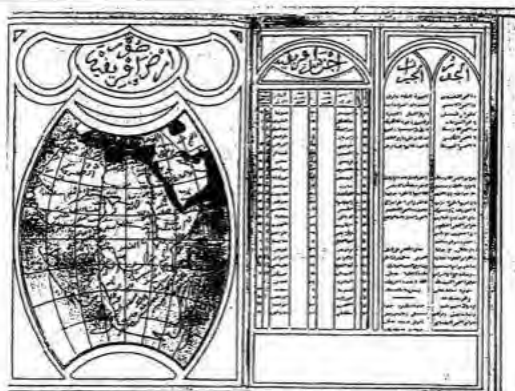
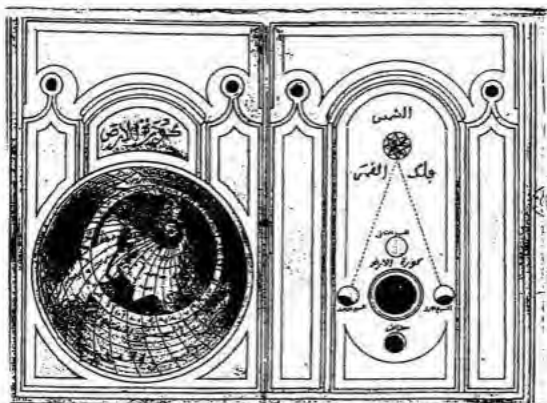
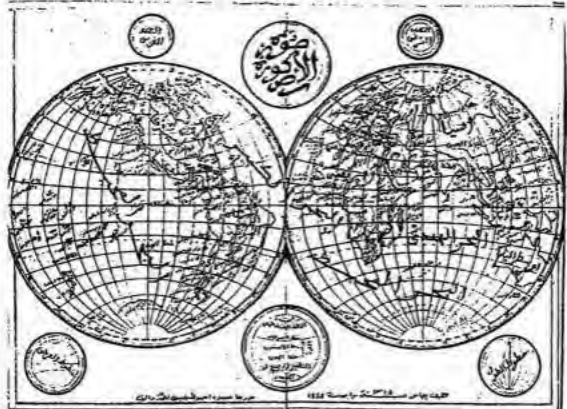
ما شاء المدل قوله بالمد

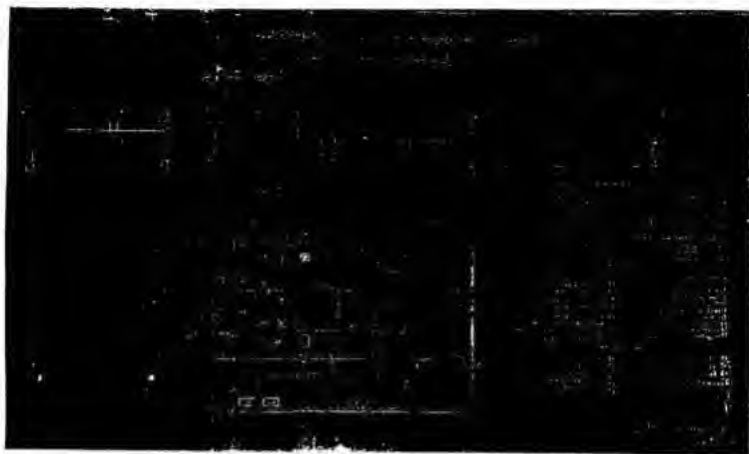
ترتيب العنايا الضاربة العقيمة بين دول البرية المتقدمة
المدحورة كمنها التلعبس الداهرين والعقود الرياضية وكنتون
النور من المتغيرين العنفي اهر الخيط وعبره ما حذر في
الزمان المحاصر والعقود القضاية بتواربها حرة وقبيحية

سبيله العربي العقيمة هذا الزمان لأن ما تقدم متلذذ الخروب المتأبذ للهمال متفقد
التمبين وفصصين دشهر من قنص سنة العار والسمعة والاربعه عصفه لمدل
إلى احد عشره في فيبر ١٣٣٥ والى تسعة عايقه وتنان عصفه لمدل
عام ثمانية عشره ما يند وتنان في عام ثمانية عشره ما يند وتنان في
هذا الحرب وقبها العضر أجا يند ولتلك الحروب ما يند وتنان في
دول الحروب من آسيا وبريقا والميريقا سبب هذا الودع والى العنايا المتأ
تحتن الفخية ما يند فيترافون وتلعبس من دشهر فيبر ١٣٣٥
١٣٣٥ قيل الملك التلعبس فيترافون والى عهد التلعبس ما يند وتنان في
بعد التلعبس عدت الصحابة العقيمة بين تسكليس وسمك الميريقا وتنان في
المدل فيبر ١٣٣٥ إلى عام ١٣٣٥ ذلك عالم من بجه الميريقا في
وتمت فيبر ذلك عدت فيترافون إلى ما مله المتأ والى كونه باليريقا

المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥
المدل فيبر ١٣٣٥

[illegible]







صورة لطلاب محمد بن الكعاب ببذلت له الأروبية

البيوغرافيا

المصادر والمراجع

■ باللغة العربية:

الوثائق:

المحافظ رقم: 15-14-13-11-10-8-7-5 بالخزانة العامة تطوان
الوثائق: مجموعة دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط:
المجلد الثالث والرابع، 1396هـ/1976.

♦ الكناشات:

كناش رقم: 302، كناش رقم: 303، كناش رقم: 327، كناش رقم: 321، سجل
مخزني «بيان الداخل والخارج على أمناء الصائر بدار عدل» رقم 331
بالخزانة الحسنية الرباط.

♦ المخطوطات:

ابن زيدان: عبد الرحمان «النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية خ.ح.ر.
تحت رقم 1377
ابن عزوز المراكشي: «رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف»،
مخطوط ع.ر. تحت رقم د1623.
ابن المواز أحمد: «المقالة المرضية في الدولة العلوية والتسول بالنبي الطاهر
للعلي القادر»، خ.ح.ر. تحت رقم 493.
الحجوي محمد: «اختصار الابتسام خ.ع.ر. تحت رقم ح144.
الخوجة محمد بن أحمد: «رألة في تنظيم الجيش»، خ.ع.ر. رقم ك2733.
سكيرج أبي العباس أحمد: «قدم الرسوخ فيما لمؤلفه من الشيوخ»، خ.ع.ر.
رقم د3844.

- السباعي بن إبراهيم: «البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن»، خ.ع.ر. رقم د 1346.
- السليمانى محمد بن الأعرج: «زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ»، ج 2 خ.ع.ر. رقم د 3657.
- السملالى علي السوسى: «عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة»، خ.ع.ر. ضمن مجموع تحت رقم د 480.
- شهيون أحمد:
- «كتابة الجغرافية المغربية وصورة الفلك»، خ.ح.ر. رقم 11654.
- الصفار محمد بن عبد الله التطواني: «رحلة إلى فرنسا»، خ.ح.ر. رقم 113.
- الغياثي محمد بن عبد الله: «رحلة الغياثي»، خ.ع.ر. رقم ج 98.
- الكرودى أحمد: «كشف الضمة ببيان أن قريب النظام حق على الأمة»، خ.ع.ر. رقم د 1281.
- اللجائي الغالي: «مقمع الكفرة بالنسب والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام»، خ.ح.ر. رقم 965.
- المدغري محمد الدرقاوي العربي: «منشور يدعو إلى الحرب»، خ.ع.ر. رقم د 3353.
- المشرقي محمد بن محمد بن مصطفى: «الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية»، خ.ع.ر. رقم د 1463.
- المشرقي العربي بن علي:
- «الحسام المشرقي»، خ.ع.ر. ضمن مجموع رقم ك 2276.
- نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار»، خ.ع.ر. رقم ك 579.
- المغيلي محمد بن عبد الكريم: «جواب على سؤال فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار»، خ.ع.ر. د 2013.
- الأودي الطاهر ن الحاج: «الاستبصار في عجائب الأمصار والأراضي والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار...»، مخطوط خاص.

♦ المصادر المطبوعة:

- ابن إبراهيم عباس المراكشي: «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمت من الأعلام»، المطبعة بالرباط، 1974-1983، الجزء 3 و 7.

ابن زيدان عبد الرحمان:

«إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»، الأجزاء (2-3-5) المطبعة الوطنية، الرباط 1931.

العز والصولة في معالم نظم الدولة»، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط 1962.

«الدرر الفاخرة»، المطبعة الاقتصادية»، الرباط 1937.

بلديراما فرناند ومرتنيت: خواكين غاثيل رحالة المغرب»، دار الطباعة المغربية، تطوان 1954.

داود محمد: «تاريخ تطوان»، المجلد الثالث، المطبعة المهدية تطوان 1962.

الدكالي محمد بن علي: «الاتحاف الوجيز»، تحقيق مصطفى بو شعراء، من منشورات الخزنة الصيحية بسلا 1406-1986.

السليمانى أبو عبد الله: «اللسان العرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب»، المطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط 1971.

الصدقي محمد بن سعيد: «إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة»، الجزء الأول، مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء بدون تاريخ.

الضعيف محمد بن عد السلام الرباطي: «تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)»، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، نشر دار الماثورات، الطبعة الأولى، الرباط 1406-1986.

العلمي أحمد: «ضيء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة أهل فاس»، المطبعة الحجرية، فاس 1318هـ.

العمراوي إدريس ابن إدريس: «تحفة الملك العزيز بمملكة باريز»، الطبعة الحجرية دون تاريخ.

غريط محمد: «فواصل الجمال في أنباء ووزراء وكتاب الزمان»، مطبعة الجديدة، فاس 1346هـ.

الكانوتي أبي عبد الله العبدى: «جواهر الكمال في تراجم الرجال»، الجزء الأولى، المطبعة العربية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1356هـ.

الكرودي أبو العباس أحمد: «التحفة السنية بالمملكة الاصبنيولية»، مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1963م.

الناصرى أحمد بن خالد: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، الجزء التاسع دار الكتاب، الدار البيضاء 1956.

♦ المراجع والدراسات:

- ابن سودة عبد السلام: «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، الجزء الثاني، طبعة دار الكتاب الدار البيضاء، 1960.
- ابن عبود محمد بن عبد السلام: «تاريخ المغرب»، الجزء الأول، دار الطباعة، تطوان، الطبعة الثانية 1957.
- أبوطالب محمد: «مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر»، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1983.
- أومليل علي: «الإصلاحية العربية والدولة الوطنية»، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1985.
- الأخضر محمد: «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1664-1894)، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى الدار البيضاء 1977.
- ألبرت حوراني: «الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939»، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية بيروت 1977.
- برادة ثريا: «الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر»، مساهمة في دراسة الإصلاحات العسكرية، رسالة نيل دكتوراه السلك الثالث، خزانة كلية الآداب، الرباط 1984.
- البزاز محمد أمين:
- ♦ «المجلس الصحي الدولي بالمغرب، 1792-1929»، رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1980.
- ♦ «الإصلاحات والمشكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر»، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، الرباط 1983.
- بروفتصال ليفي: «مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلافي»، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط 1977.
- بنعبد الله عبد العزيز:
- ♦ «تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة»، الجزء الثاني، مكتبة المعارف، الرباط بدون تاريخ.
- ♦ «الموسوعة المغربية، الجزء الرابع»، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية 1981.
- ♦ «الطب والأطباء بالمغرب»، المطبعة الاقتصادية 1960.

التازي عبد الهادي:

♦ «الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية»، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الجديدة 1984.

«الأمراء بالمغرب في عهد السلطان المولى الحسن 1873-1894»، مطبعة فضالة، الرباط 1977.

الجابري محمد عابد: «تطور الانتلجنسيا المغربية، الأصالة والتحديث في المغرب»، ضمن أعمال ندوة الانتلجنسيا في المغرب العربي، المجموعة بإشراف عبد القادر جغلول، دار الحداثة، الطبعة الأولى بيروت 1984.

الجراري عبد الله:

♦ «من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين سلا والرباط»، الجزء الثاني، دون تاريخ الطبع ومكانه.

♦ «النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830-1912»، دار الثقافة، مطبعة النجاج، الجديدة الطبعة الثانية البيضاء 1978.

حركات إبراهيم: «التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية»، مطبعة الدار البيضاء، الطبعة 1، الدار البيضاء 1985.

الرافعي عبد الرحمان: «عصر محمد علي»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951.

روجرز ب.ج: «تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية في عام 1900»، ترجمة ودراسة وتعليق، ديونان لبيب رزق، دار الثقافة الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1981.

زنيبر محمد: «هل هناك مصادر داخلية للإصلاح»، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.

زيادة خالد: «اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة المؤشرات العربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر»، دار الطبعة، بيروت يونيو 1981.

السائح الحسن: «الحضارة الإسلامية في المغرب»، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1986.

الشريف محمد الهادي: «مشكلة الإصلاحات بتونس وارتباطها بمسألة العلاقات التونسية العثمانية حوالي 1840.

عبد الكريم أحمد عزت:

«تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، دار النهضة المصرية القاهرة 1938.

العماري أحمد: «نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوي السملالي من

- خلال كتابه (عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة)، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.
- الفاسي علال: «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»، مطبعة الرسالة الطبعة الرابعة، الرباط 1980.
- العروي عبد الله:
- ♦ «العرب والفكر التاريخي»، دار الحقيقة، بيروت 1973.
 - ♦ «تاريخ المغرب محاولة في التركيب»، ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.
 - ♦ «مفهوم الدول»، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى الدار البيضاء 1981.
 - ♦ «مفهوم الحرية»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1981.
- عياش ألبير: «المغرب والاستعمار»، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، أبريل 1985.
- عياش جرمان: «دراسات في تاريخ المغرب»، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1986.
- كنون عبد الله: «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث»، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1981.
- المنصور محمد: «الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن التاسع عشر»، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.
- معن زيادة: «معالم على طريق تحديث الفكر العربي»، سلسلة عالم المعرفة الكويت، يوليو 1987.
- المنوني محمد:
- ♦ «مظاهر يقظة المغرب الحديث»، (جزءان) مطبعة المتوسط، الطبعة الثانية، بيروت 1985.
 - ♦ «المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1983.
 - ♦ «نماذج من تفتح مغرب القرن التاسع على معطيات نهضة أوروبا والشرق الإسلامي، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي القرن 19، الرباط 1983.

- ♦ ركب الحاج المغربي، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان 1953.
- المؤيد عبد الرحمان:
- ♦ «الرحلة الحجية مصدر من مصادر التاريخ الاجتماعي المغربي ضمن أعمال ندوة: في النهضة والتراكم»، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، المحمدية 1986.
- ♦ بعض المواقف المغربية من المستجدات التقنية الغربية في القرن التاسع عشر، ضمن أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، الرباط 1983.

■ المصادر والمراجع الأجنبية:

- Archives du Ministère des Affaires Etrangères Quai d'Orsay-Paris.
- Archives du Service Historique de L'Armée de Terre- Ministère de la Guerre-Vincennes-Paris.
- ARNAUD(Louis) : « Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1980 à 1912 », Editions Atlantides Casablanca 1952.
- AUBIN (Eugène) : « Le Maroc d'aujourd'hui- Librairie Armand Gollin-Paris 1904.
- BAYSSIER(N) : « Histoire du Maroc », Librairie Hatier, Paris.
- BRIGNON et COLL : « Histoire du Maroc », Paris, Hatier, Casablanca, Lib. Nat 1967.
- CAILLE (Jaques) : « La petite Histoire de Rabat », Chérifienne d'éditions et de publicités Casablanca.
- CHAPI (Mustapha) : « Quelques Grandes Famille du Makhzen Marocain au XIXe siècle d'après IBN ZAIDANE, thèse de doctorat, 3ème cycle, Rabat 5 Avril 1973.
- CHARMES (Gabriel) : « Une Ambassade au Maroc», Edi. Calman Lvy, Paris 1887.

- COMPOU (DE Ludvic): « Un Empire qui croule, le Maroc Contemporain », Paris 1886.
- COUVION (Marthe et Edmond) : « Kitab Ayane al Maghreb Aksa, Esquisse générale des Maghrebs de la Genèse à nos jours et livre des Grands du Maroc », Librairie orientaliste, Paul Guethner, Paris 1939.
- DOUTTE (Edmond) : « Des Moyens pour développer l'influence Française au Maroc » -Paris 1909.
- ERCKMAN (Jules) : « Le Maroc Moderne », Challmel, Paris 1885.
- EDMOND(Picard) : « El Moghreb al Aksa, Une Mission belge au Maroc », Bruxelles 1889.
- EL MALKI (H) et DOUMOU (A) : « Réflexions Méthodologiques sur la problématique des réformes au Maroc du 19ème siècle, in Actes du Colloque : Réformisme et Société Marocaine au XIX siècle, publications de la Faculté de Lettres et des sciences humaines, Rabat 1983.
- FOUGAULD (Charles-Eugène de) : « Reconnaissance au Maroc 1883-1884 CHALLAMEL », Paris 1888.
- France : « Documents Politiques-Affaires du Maroc », vol1, 1901-1905.
- FRISH (R. J) : « Le Maroc : géographie-organisation-politique », Editeur Ernest Leroux, Paris 1895.
- GODARD (Abbé Léon) : « Description et histoire du Maroc », Paris 1860.
- GUILLEN (Pierre) : « L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905, P.U.F, Paris 1967.
- JULIEN (CA) : « Le Maroc face aux impérialismes, Editions J.A 1978.
- KERDEC : « Un boulevard de l'Islam », Tanger 1895, Madrid.
- LAHBABI(Mohamed) : Le Gouvernement Marocain à L'Aube du XX siècle, Editions Techniques Nord-Africaines, Rabat 1958.
- LAROUI (Abdallah) : « Les Origines Sociales et Culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Maspero, Paris 1977.
- MARTINIERE Henri de la) : « Souvenirs du Maroc voyages et missions 1882-1918 Lib. PLON, Paris 1919.
- MARLET (A) : « Le Maroc voyage d'une Mission Française à la cour du Sultan Lib. PLON, Paris 1885.

- MIGE(J.L) : «Une Mission Française à Marrakech en 1882», Publications des annales de la Faculté des Lettres, Aix-en-provence 1960.
- Le Maroc et L'Europe P.U.F. Paris 1962, Tome III et IV.
- GUEDEFELDT (M) : « Mitteilungen aus Marokko und dem nord westlichen, Sahara gebet, in Jahresbresbricht der geog. Ges-zu Greifs Wald 1888.
- RAy (Jauny) : « Les Marocains en France», Institut des hautes études marocains collections des centres d'études juridiques 1938.
- SALMI (Jeame-Marie) : « L'Attitude des Européens à L'égard de la politique de reformes au Maroc à la veille du protectorat», in Actes du colloque, Réformisme et Société Marocaine au XIX siècle, Rabat 1983.
- TAILLANDIER(S.R) : «Les Origines du Maroc Français, Récit d'une Mission », 1901-1906, paris 1930.
- TERRASSE (H) : « Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français» -Editions Atlantides, Casablanca 1950.
- WEUSGERBER (D) : « Au seuil du Maroc Moderne », Rabat 1947.



المجلات والدوريات:

■ بالعربية:

- البرجاني المهدي: «نظرة على الأحوال المغربية في القرن التاسع عشر»، مجلة دعوة الحق، العدد 6، السنة 12، ماي 1969.
- بورك آدمون: «العلماء المغاربة في 1860-1912»، تعريب محمد بن عبود عبد العزيز سعود، مجلة البحث العدد 31، السنة أكتوبر 1980.
- التازي عبد الهادي:
- ♦ «تاريخ الولايات المتحدة في المصادر المغربية»، مجلة المناهل، العدد 12، السنة الخامسة، يوليو 1978.
 - ♦ الثغور المغربية المحتلة بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي، مجلة البحث العلمي، العدد 27، يناير-يوليو 1977.
 - ♦ حرص ملوك المغرب عبر التاريخ على تحسين نوعية الأطر»، مجلة الشؤون الإدارية ع 1 س 1 يناير 1983.
- الجابري محمد عابد: «العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 32، السنة 1984.
- خلوق عبد العزيز التمساني: «المطامع الإسبانية في طنجة 1914-1945»، مجلة دار النيابة العدد 8، السنة 2 خريف 1985.
- زنيبر محمد: «الفكر المغربي في الربع الأخير من القرن 19»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ع 8، السنة 1982.
- الزهيري قاسم: «اتصال المغرب بالتعليم العصري»، مجلة دعوة الحق، العدد الثالث السنة الثانية.
- سكيرج عبد الغني: «مذكرة الزبير سكيرج (1850-1932)»، مجلة دار النيابة، العدد 8، السنة 2، خريف 1985.
- الشابي مصطفى: «النخبة المغربية في القرن التاسع عشر»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثامن، السنة 1982.
- الصغير عبد المجيد: «ملاحظات حول مشكل الإصلاح في أول مخطوط (صوفي) لتحرير الجزائر سنة 1265/1849 مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، العدد الثامن، السنة 1982.

عياش جرمان: «حول الإصلاح بالمغرب في القرن التاسع عشر»، مجلة دار
النيابة، العدد الأول، السنة الأولى يناير 1984.

الفاصي محمد: «الرحلات السفارية المغربية»، مجلة البيئة، العدد 6 السنة
الأولى، أكتوبر 1962.

كاوي جاك: «السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا»، مجلة تطوان، العدد 6،
السنة 1961.

كندور لطيفة: «التنافس الأوربي في المغرب على عهد السلطان الحسن
الأول»، مجلة البحث العلمي، العدد 32، السنة نونبر 1981.

زكي مبارك: «من أدب الرحلات: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز للكاتب الأديب
الحاد إدريس العمراوي، مجلة البحث العلمي، العدد 31، السنة أكتوبر 1980.
معينو أحمد:

«مذكرة طالب مغربي أرسل في بعثة مغربية إلى إيطاليا منذ ثمانين سنة»،
مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة 12 نونبر 1968.

ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297 محمد بن الكعاب
الشركي، مجلة البحث العلمي، العدد 25، السنة يناير-يونيو 1976.

«تكوين الأطر في عهد الحسن الأول»، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة
الثانية عشرة، مارس 1969.

المريني عبد الحق: «الإصلاحات العسكرية في عهد الملك المصلح مولاي
الحسن»، مجلة دعوة الحق، العدد 4، السنة 12 مارس 1969.

الوكيلي محمد التهامي: «جلالة السلطان مولاي الحسن الأول»، مجلة دعوة
الحق، العدد 27 السنة، مارس 1983.



- Archives Marocaines-Tome 3, année 1905.
- Bulletin de L'Afrique Française, Renseignements coloniaux, n°7 Année 1901.
- GAGNE (Jacques) : « Presse et Salafisme au Maroc au début du XIXe Siècle », in Revue Dar et Niaba, 2ème Année, n°7, Eté 1985.
- GAILLIE (Jacques) :
« Les Marocains à L'école de Génie de Montpellier 1885-1888 », Hesperis, vl. XLI année 1954.
« Quelques Renseignements sur le capitaine ERCKMAN », Hesperis, vl. XLI , 3-4ème trimestre année 1954.
- La véritable histoire de l'ingénieur Abder-Rahman-Desaulty », Hesperis, vol. XXXVL, 3-4ème trimestre, Année 1949.
- COUFOURISER (L) : « Chronique de la vie de My Hassan », in Archives Marocains, Volume 8, anné 1908.
- ISKANDAR (Assabghy) : « Les Missions Scolaires au temps de Mohamed Aly », in Revue Conférences Françaises en Orient-publication Mensuelle n°11, 9ème Année, Novembre 1945, le Caire Egypte.
- JULIEN (C. A) : « Hassan 1 er et la crise marocaine au XIX siècle », in les AFRICAINS , tome III, Editions J. A.
- LEROUX (Charles) : « Mission Diplomatique française à Fès », in Hesperis, vol. 35n Année 1948.
- LECLERC (Ch René) : « L'Armée Marocaine », in bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de L'Afrique du Nord, 4ème trimestre, Neuvième Année.
- PERETIE (A) : « Les Medersas de Fès » in Archives Marocaines, vol. XVIII, Année 1912
- « Un homme du Maroc d'hier », in la vigie Marocaine, n° du 21-30-1938.
- YVER (Georges) : « La Question Marocaine », in Revue Africaine, Année 1909.

فهرس الموضوعات

10	المقدمة
18	الباب الأول: مصادر فكرة البعثات
21	الفصل الأول: مصادر داخلية
21	(1) مشاريع نظرية حول إصلاح الجيش
31	(2) تقارير الرحلات السفارية
43	الفصل الثاني: مصادر خارجية
43	(1) دور الحضور الأجنبي
57	(2) أثر تجربة محمد علي بمصر
66	الباب الثاني: البعثات التعليمية إلى الخارج
67	الفصل الأول: الجوانب التنظيمية والعملية
67	(1) الإجراءات الإعدادية
75	(2) الأصول الاجتماعية لأفراد البعثات
79	(3) النفقات المالية
83	الفصل الثاني: مقاصد البعثات
83	(1) توضيحات أولية
88	(2) البعثات إلى مصر
91	(3) البعثات إلى أوروبا
92	• البعثات إلى جبل طارق
95	• البعثات إلى إنجلترا
98	• البعثات إلى ألمانيا
102	• البعثات إلى فرنسا
107	• البعثات إلى إيطاليا
113	الباب الثالث: حصيلة التجربة الإصلاحية
115	الفصل الأول: النتائج العملية والعلمية
115	(1) النتائج العملية
117	• المجال العسكري
120	• المجالان الدبلوماسي والإداري
123	(2) النتائج العلمية
129	الفصل الثاني: أسباب الفشل
139	الخاتمة
142	الملحق
163	البيبلوغرافيا
175	فهرست الموضوعات

حصريات

kitabweb-2013.forumsmaroc.com

ⵜⴰⴷⵓⴷⴰ ⵜⴰⵎⴰⵔⵜ | ⵎⴰⵔⵓⵔⵉⵙ
ⵜⴰⵎⴰⵔⵜ ⵜⴰⵎⴰⵔⵜ | ⵜⴰⵎⴰⵔⵜ



المملكة المغربية
وزارة الثقافة

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

الدكتور جمال حيمر البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن

"... يمكن الجزم أنه قبل إقدام الباحث جمال حيمر على هذه المغامرة البحثية الدقيقة، لم تكن معرفة المهتمين بتاريخ المغرب في القرن 19م تتجاوز سقف الإشارات، والتلميحات الباهتة إلى هذه المبادرة الإصلاحية بكثير من العمومية والتأسف عن نكوص وكبوة هذه المبادرة على غرار كل التجارب الإصلاحية التي شهدتها معظم البلدان الإسلامية في سياق الاحتكاكات الأولى التي وقعت بينها وبين أوروبا خلال القرن التاسع عشر."

"لقد أكدت نتائج الدراسة أن فشل هذه التجربة يعزى إلى أن أي محاولة نريد إدخال بعض عناصر التحديث على بنيات اقتصادية واجتماعية وذهنية تقليدية دون أن توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ودون أن تكون منبثقة من تطور داخلي، تبقى محاولة عقيمة ومحكومة بإخفاق متواصل، وغير قادرة على إحداث تحول حقيقي. وفي تقدير الباحث أن هذا الحكم لا يزال يصدق على تجارب متعددة، ومن هنا تكمن راهنية هذا الموضوع، وحاجتنا إليه اليوم كمرجعية نبني عليها توجهاتنا."

"إن الكتاب الذي بين أيدينا يعد قيمة مضافة لتاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، وللحركة الإصلاحية التي ميزت هذا القرن، وتفسيرا مقنعا للإخفاقات التي بصمت هذه المرحلة من تاريخنا الوطني. كما أنه يشكل مرجعا مهما أساسيا لا يستغني عنه أي باحث في القرن التاسع عشر، ولكل مهتم بتاريخ إصلاح التعليم بالمغرب، وبالتالي فإن هذا الكتاب يعتبر قيمة مضافة يشرف الخزانة التاريخية المغربية."

(الدكتور (رفيع (الفاوري) بونبسي